" الرواية الحائزة على جائزة كريسنيك السلوفينية "

يوغوسلافيا .. أرض أبي

جوران فوينوفيتش

ترجمة: شرقاوي حافظ



روايات مترجمة



يوغوسلافيا.. أرض أبي

يوغوسلافيا.. أرض أبي

تأليف: جوران فوينوفيتش

ترجمة: شرقاوي حافظ

تحرير: إيزيس عاشور

مراجعة لغوية: محمد حامد بكر

الطبعة الأولى: سبتمبر 2019

رقم الإيداع: 2019/9889

الترقيم الدولي: 9789773194987

تصميم الغلاف: د. چورچ لطيف

60 شارع قصر العيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg



Originally published in Slovene as *Jugoslavija, moja Dežela* by Beletrina Academic Press.

جوران فوينوفيتش

يوغوسلافيا.. أرض أبي

رواية من سلوفينيا

ترجمة: شرقاوي حافظ





بطاقة فهرسة

فوينوفيتش، جوران

يوغوسلافيا.. أرض أبي / تأليف جوران فوينوفيتش؛ ترجمة شرقاوي حافظ.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2019.

ص؛ سم.

تدمك 9789773194987

1- القصص السلوفينية

أ- حافظ، شرقاوي (مترجم)

ب- العنوان 891,843

إلى "باربرا"

خريطة يوغوسلافيا السابقة

مقدمة المؤلف للقارئ العربي

منذ بضع سنوات، نظمت صديقة لي من سيريلانكا ندوة لمناقشة روايتي "يوغوسلافيا.. أرض أبي"، وذلك في منزلها في كولمبو. كانت الندوة من أكثر الندوات المثيرة التي عقدت لمناقشة روايتي. فالناس الذين لم يعرفوا شيئًا عن حروب يوغوسلافيا أو الذين يعرفون منها شذرات تحدثوا معي فورًا عن تجاربهم في الحروب الأهلية. ومن المثير للدهشة أنني أدركت أن روايتي يمكن قراءتها وفهمها بأكثر من طريقة، وأنني - دون تعمد - لم أكتب فقط عن يوغوسلافيا، بل عن أماكن كثيرة سيئة الحظ.

في تلك الأمسية في كولمبو، استوعب الجمهور جيدًا ما أرمي إليه عندما تحدثت عن العنف المفاجئ بسبب العرقية. كانوا على وعي تام بكيفية تحول الجيران والأصدقاء الذين دامت علاقاتهم لسنين طويلة إلى أعداء ألداء ما بين عشية وضحاها. ومن جهة أخرى، تفهمت تمامًا حديثهم عن الصمت المفروض ذاتيًا الذي ساد بلادهم بعد الحرب، وعن عدم رغبة الجميع وعجزهم عن مواجهة الأعمال الوحشية التي ارتكبتها جميع الأطراف المتناحرة. بانتهاء الأمسية لم نكن نتحدث عن الأسرار المظلمة الخاصة بيوغوسلافيا أو سيريلانكا فحسب، بل عن الأسرار المظلمة التي تعم الجنس البشري بأكمله. وتجاوز نقاشنا التفاصيل المحلية، التي اعتقدت حتى ذلك الحين أنها مفتاح فهم كتابي. لقد وصلنا إلى نقطة وجدنا فيها أنفسنا نتحدث عن تجربتنا المشتركة في الحرب.

مرة أخرى، أيقنت أن جماليات الأدب ما هي إلا حقيقة. فإننا قادرون على معرفة أنفسنا في الآخر، أيًا كان هذا الآخر فإنه بإمكاننا أن نعرف الكثير عن عالمنا من خلال قصص بعيدة في الزمان والمكان. ولقد اكتشفت مرة أخرى أن الأدب لا شيء فيه غريب، حيث لغة الأدب هي لغة التفاهم.

لقد أمضيت في ديسمبر 2010 أسبوعًا في القاهرة حيث كان العرض الأول لفيلمي الروائي الأول في مهرجان القاهرة السينمائي. وكنت في وقت سابق في ذلك العام نفسه قد قمت برحلة عبر الأردن وسوريا. ظللت لسنوات عدة تالية أرجع لهاتين الرحلتين، أقلب في ذاكرتي صورًا ما لبثت أن انتشرت عبر شاشات تليفزيوننا وعلى أغلفة صحفنا.

مثلما كنت في طفولتي ومثل "فلادان"، الشخصية الرئيسية في الرواية، حاولت جاهدًا أن أفهم كيف يتحول العالم فجأة إلى شعلة نار مدمرة، أو يتبدد كما هو الحال في سوريا. عدت بمخيلتي إلى حمص، حلب، وحماة، كما عدت إلى ميدان التحرير أبحث عن أدنى أثر لهذه التشققات. فلم أجد شيئًا مهما كان تخيلك. مجرد بعض الغضب من سائقي التاكسي في اللاذقية، الذين طعن بعضهم بعضًا من أجل حفنة من اليوروهات؛ وبعض الاكتئاب لدى الناس في فندق دمشقي رخيص الذين ملؤوا بهو الفندق كالدخان الكثيف؛ وبعض اليأس من عمال فلسطينيين بمحطة باص، وهم ينتظرون دخول النهار في الليل. كما أنني وجدت بعض الفوضى الباعثة على التوتر بفظاعة في حفل عشاء مهرجان القاهرة، والوهج الذي ينحسر عن عيني "عمر الشريف" المتعبتين. ولكن كما حدث في يوغوسلافيا منذ ثلاثين عامًا، كانت هذه التشققات مخبأة بشكل واضح في انتظار أي شخص لا يعرف عما يبحث.

لقـد تعلمـت في أيـام حيـاتي الأولى أن العـالم يمكنـه أن ينـزع إلى الاختفـاء. وتعلمت أيضًا أن اختفاء العالم هو اختفاء الجنس الـبشري. وبغـض النظـر عـن أين وكيف يتم هذا الاختفاء، فإن العواقب متشابهة جدًا، وحشية ومدمرة.

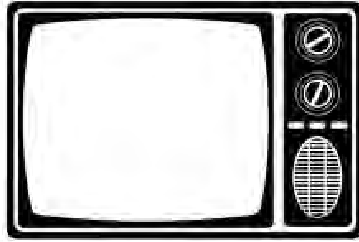
هذا هو سبب شعوري بالارتباط الغريب بين الأماكن والشعوب التي عانت من نوع ما من اختفاء العالم، الذين يعانون عواقب هذا الاختفاء. وهو السـبب الذي جعلني أشعر بأننا نعيش القصـة نفسـها. قصـة المأسـاة العميقـة، القصـة التي في حاجة بشكل حزين إلى سردها مرة بعد المرة.

وهـذا أيضًـا هـو السـبب في اعتقـادي بـأن القـارئ العـربي سـيجد يأسـه وإحساسه بالوحدة وشعوره ببث الشكوى مبعثرًا على صـفحات روايتـي، مـثلما كنت أجد حزني في روايات الروَّاد من الكتَّاب العرب. وكما قلت؛ لا شيء غريـب في الأدب، فلغة الأدب هي لغة التفاهم.

جوران فوينوفيتش

صيف 2019

1



لا بُدَّ أنه كان يومًا عاديًّا من أيَّام الصيف الأولى لعام 1991، عندما انتهت فجأة أيَّام طفولتي. كان يومًا خانقًا ومُنذرًا بالمطر، وكان الكبار يقولون منذ الصباح الباكر إنها ستُمطر بعد الظُّهر، بينما الأطفال يتساءلون: لماذا الناس يتمنُّون المطر في عِزِّ موسم السباحة الأساسي، ما داموا لا يزرعون في حدائقهم الطماطم والكوسة؟ كان الوقت الذي نعيش فيه مختلفًا تمامًا عن زمن آبائنا. كان معظمنا يرى الكبار كأنهم كائنات من كوكب آخر، لا يلفتون الانتباه إلا إذا كانوا يفتقدون ذراعًا، أو ساقًا، أو لديهم لِحى طويلة حتى أخمُص أقدامهم، أو يرتدون ملابسَ كالهنود الحُمر، أو على ظهورهم وشم، أو عضلاتهم بارزة مثل "رامبو"، في جميع أجزائه.

انطلقنا في ذلك الصباح الحارِّ لنرى واحدًا من هؤلاء الكبار النادرين المثيرين للاهتمام. لم يصدق "ماريو" ولا "سينيشا" أنني لم أرَ بعد الشاب صاحب الورم الأحمر في وجهه. والورم، وفقًا لكلام البعض، مجرد ورم كبير في المخ، بينما يعتقد الآخرون أنه مرض جديد - جَرَتْ مناقشته في التليفزيون في الآونة الأخيرة - يُسَمَّى مرض النُّهام، أو البوليميا، وهو

مـرض اضـطراب في تنـاول الطعـام، أو الشراهـة المرضـية. وهـو - كـما يَـدَّعي "سينيشا" - يحول رأس الإنسان إلى ورم أحمر كبير. زعم "مـاريو" أن كـل النـاس قد رؤوا ذلك الشاب صاحب الورم الأحمر ما عدا أنا، في الوقـت الـذي اسـترجع فيه "سينيشا" المغـامرة بعـد الأخـرى التـي كـان بطلهـا الشـاب صـاحب الـورم الأحمر. وطبقًا لأكبر ثرثار في مدينة "باولا"، أن سائحة ألمانية ألقت نظرة واحدة على الشاب صاحب الورم الأحمر فرجعت إلى الخلـف، وسـارت بظهرهـا قرابـة الميل حتى وصلت إلى فندقها، وأن أسرة إيطالية أبلغت عنه البـوليس والسـفارة الإيطالية في بلجراد. قـال "مـاريو" و"سينيشـا" إنـه يجـب عـليَّ أن أرى الشـاب صاحب الورم الأحمر، فكم مرَّة سأرى شابًّا له رأس نصفه عادي، والنصف الآخر منفوخ ككرة السلة، وأحمر كلون البطـيخ؟ لم يمُـرَّ وقـت طويـل حتـى أقنعـاني، وعلى الفور سرنا معًا لما بعد المحل، واتجهنا نحو سكن العُمَّال.

كان السكن عبارة عن مبنى مسـتطيل الشـكل أبـيض وكئيـب؛ يسـكن فيـه الشاب صاحب الورم الأحمر مع العُمَّال الذين يجلسون - بعـد يـوم شـاق مـن العمل في ترسانة السُّفُن - في هدوء في المدخل، يشربون البـيرة، ويتحـدَّثون عـن حال البوسنة. وعلى الرغم مـن أنهـم يسـكنون عـلى مقربـة مـن العـمارة التـي نسكن فيها، فـإنهم يعيشـون في عـالمهم الخـاص غـير المـرئي تقريبًا. فقـط مـع بعضهم بعضًا يصبحون إخوة، ويجتمعون عند المساء في صالة المبنـى العموميـة في الطابق الأول من السكن، ليشاهدوا الأخبار أو مباراة كُرة قدم على الهواء، أو بعض المسلسلات على التليفزيون الرسمي.

في الطريـق، كـان صـديقاي - اللـذان لـديهما معرفـة بـالأمر - يشرحـان لي أن الشـاب صـاحب الـورم الأحمـر يسـترخي طـوال اليـوم أمـام جهـاز

التليفزيون ويشـاهد في قنـاة "زغـرب" بـلا حـراك؛ جميـع المسلسـلات العائليـة والأفلام الوثائقية التي تم اختيارها بمعرفة رئـيس التليفزيـون الكـرواتي. أخـبرني "سينيشا" أن هناك شائعة تقول إن زملاء الشاب صاحب الورم في الغرفة جمعوا نقودًا واشتروا جهاز تليفزيون صغيرًا ووضـعوه لـه في الغرفـة، ولكنـه اسـتمر في تردده على الصالة العمومية، على الرغم من أنه لا يتكلَّم مع أحد على الإطـلاق. وأضاف "ماريو" أن "فاها"، عامل اللِّحام، أخذ ذات مـرَّة يغـير قنـاة التليفزيـون كل عشر دقائق، ولكن الشـاب صـاحب الـورم الأحمـر لم يتـأثَّر إطلاقًـا، كأنـه لا يُلقي بالًا لما يشاهده مُطلَقًا.

أثناء استماعي لهذه القصص كنت قـد اقتربـت مـن مـدخل سـكن العُـمَّال متوقعًا الكثير، تقريبًا مـثلما كانـت حـالتي حيـنما ذهبنـا في ليلـة العـرض الأول للسيرك بجوار إستاد نادي "إسـترا" لكُـرة القـدم؛ لـكي نشـاهد تـدريبات لاعبـي السيرك سرًّا. وما إن خرجنا من وسط الحشائش الطويلة، ونجحنا في إلقاء نظـرة سريعة، حتى أفزعتنا صرخات فتاة غجرية سوداء، فهرولنا نتخبَّط مذعورين من ذلك الكائن الصغير.

في ذلك اليوم بدا سكن العُمَّال مختلفًا تمامًا عمَّا توقَّعته. فبدلًا من أن نجـد الشاب صاحب الورم الأحمر وحده، وجدنا صالة التليفزيون العمومية الصـغيرة مُزدحمة. الكل يُحَدِّق في شاشة التليفزيون، حيث تُذاع الأخبار. كان الجو العـام شبيهًا بالعام الماضي، عندما هلَّل الرجال فجأة بعد الهدف الثـاني لــ"بـيكسي" في مبارة رُبـع النهـائي بـين يوغوسـلافيا وإسـبانيا في كـأس العـالم بإيطاليـا. في ذلـك الوقت، لم يستطع سوى البوليس أن يستعيد النظام، وانتهى الأمـر بــ"رامـو" في الطوارئ، إذ إنه أُصيب بصدمة كهربية حينما حاول تقبيل التليفزيون بفمه.

بعد اثنـي عشر شـهرًا، كُنَّـا أنـا و"سينيشـا" و"مـاريو" نبحـث عـن "الرجـل صاحب الورم البطيخي" بين جمع من المُشجِّعين يهتفون أمام التليفزيون وقـت أخبار الظهيرة. واندهشنا لمَّا رأينا عددًا صغيرًا من المجتمعـين يشـجع جمهوريـة يوغوسـلافيا الاتحاديـة الاشـتراكية. كـان يمكـن للمـرء أن يعـرف مـن بعيـد أن المجموعة يقودها "ميلو لولا ريبار"، الذي يستطيع أن يشرب صندوقًا من البيرة بمفرده، وكان يصيح بصـوت مرتفـع "ملعونـة يـا يوغوسـلافيا"، لأنهـا خسرت في العام الماضي أمام الأرجنتينيين الكارهين لـلصرب، ولم يعـد الآن مُهـتمًّا بالرياضـة تمامًا. وكان يقف بجانبه وبجوار التليفزيون "ميرسو" الصـغير، عمـره سـتة عشر عامًـا، ولكـن وجهـه رجـولي كوجـه جنـدي، ولـه السـلوك نفسـه، وكـان يُحـذِّر الحاضرين، في لهجة حادَّة، من أن احتفالات "15 أغسطس"، وحمَّامات الشمس، والألعاب النارية الخاصة بها قد تم إيقافها في المنطقة، ولكنه لم يـذكر السـبب. اجتمع عدد كبير من المتابعين الجُـدُد في صـالة المبنـى، وأصـواتهم العاديـة غـير مُعبِّرة، ولكنها تشكل حائطًا مُبهمًا، على الرغم من أن وجـوههم المُحمَـرَّة تنبـئ بأنهم يفعلون أقصى ما في وسعهم.

كان "سيرا" أشهر عامـل تشـغيل سـينما في "بـاولا"، يقـف عنـد المـدخل، حيث كان الزحام شديدًا، فانحشرنا وكأننـا في عُنُـق زجاجـة. يجعلنـا نـدخل سينما بلجراد مجَّانًا، بدعوى أننا أصـدقاؤه الصِّـغار. كانـت السـينما في ذلـك الوقت خاويـة، وكـما يعـرف الجميـع في "بـاولا"، يبـدأ "سـيرا" بعـد السـاعة الثامنة في خلط بَكَر الأفلام. يبدأ تشغيل بعض الأفلام مـن المنتصـف، أو مـن النهايـة، أو حتـى أحيانًـا يُـديرها بـالعكس. باسـتثناء عشـقه للــ"برانـدي

الأستيري"، كان أطيب إنسان عرفته في حياتي. بعدما اكتشف أننا لم نفهـم أي شيء مما تقوله الأخبار عن ذلك "اليوم المشؤوم"، استدار نحونا وقال:

- لـو لم تعجـبهم يوغوسـلافيا، عـلى السـلوفينيين أن يشربـوا مـن البحـر في لوكسمبورج.

يبدو أن "سيرا" خلط البَكَر مبكـرًا عـن المُعتـاد في ذلـك اليـوم، لـذا واصـلنا المشاهدة، مندهشين من أن الأخبار شدَّت انتباه الحشد الذي أمامنا. كُنَّا نـؤمن جميعًا بأن أي شيء يُعرض، حتى لو كـان "جـدول بـرامج التليفزيـون"، سـيكون أكثر إثارة للاهتمام من أخبار المساء هذه، على الرغم من أننا لا نفهم كلمة مما يُقال. اقترح "سينيشا" و"ماريو" أن نتخذ طريقنـا نحـو مبنـى السـكن، ولكننـي كنت لم أزل أُفَكِّر في أننا سنجد الشاب صاحب الورم الأحمـر، فانـدفعت أُفَـتِّش بـين الجماهـير المُتَحَمِّسـة للتليفزيـون. فبـدلًا مـن أرى الشـاب صـاحب الـورم الأحمر، لم أرَ من خلال الجدار الزجاجي في الجانب الآخر للصالة غـير أبي سـائرًا ببُطءٍ تجاه البيت.

في طريقه عائدًا من العمل إلى البيت، يمُرُّ على سكن العُمَّال، حيث يتوقَّـف لكي يشرب كوبًا أو اثنين من البيرة، ويسمع أخبار اليوم والتعليق عليها، غالبًا ما يفعل ذلك بصحبته المُفَضَّلة، "ميرسو" الصغير. لكن في ذلك اليوم، حيـنما اعـتلى "ميرسو" كرسيًّا أمام التليفزيون، مخاطبًا الحشد، صـارخًا: "اقـترب الوقـت الـذي سيتعلَّم فيه حتى الحمقى درسًا أو اثنين"، ابتعد أبي وهو مُسـتغرق في التفكـير، كأنما قد نسيَ ما يحدث على بُعد أمتار منه.

حاولت أن أشقَّ طريقي بين الزحـام وألحـق بـه أمـام المـدخل، في الجانـب الآخـر مـن المبنـى، لكـن سرعـان مـا أدركـت أن التـدافع بـين الأيـدي الملوِّحـة

سينتهي بي بضربة شديدة على ظهري أو رأسي. لذا تراجعت مسرعًا وقرَّرت أن أقابل أبي عند المحل. أستطيع القول إنه كان يجُرُّ قدميه ببُطءٍ أكثر من المُعتاد، ولذلك فلن يسبقني. نظرته غير مُعبِّرة، كالرجل الأعمى، وقفت بجوار المحل وترقَّبته حتى يجيء. أحسستُ بأنه سيمُرُّ عليَّ مثلما مرَّ على الزحام أمام سكن العُمَّال. كانت العمَّة "إنيسا" قد قالت: "إنه يمُرُّ دون أن يلقي نظرة خاطفة". لكنه أخيرًا توقف، واحتضنني بشدَّةٍ؛ حتى إنه كاد يُطبق على ضلوعي، فتحسَّستُ من تحت زيِّه عضلاته البارزة إثر الخدمة العسكرية، والتي كان يتباهى بها فيظهرها كلما نزل الشاطئ الضَّحل في الإجازات. لَكَم كُنَّا أنا وأُمِّي نغيظه بسببها، فيلهينا بالحديث عن اختلاف درجات الحرارة بين الماء والهواء، ولماذا من الخطأ الغطس في مياه البحر العميقة. لم يكن أبي يشرب مُطلقًا أثناء العمل، وسمعته أكثر من مرَّة يقول: "في يوغوسلافيا فقط، يشرب الشعب أثناء العمل أكثر مما بعد العمل، مما يُذهب بالبلاد إلى الحضيض". لكن في ذلك اليوم احتضنني بذراعيه القويتين لدرجة أنني ظننته ثملًا فعلًا.

تركني، وعاد بعد لحظة ليمسك بي من ذراعي، وجذبني نحوه، وأخذ يُحَدِّق فيَّ بنظرات غريبة في عينيه. بعد فترة، أحسستُ أنها نظرات طويلة جدًّا، واعتقدت أنه نسيَ ما يريد، سألني إذا كنت أحب أن أذهب معه إلى المحل لكي نشتري لعبة "هيمان".

لا يعني هذا الاقتراح إلا شيئًا واحدًا، شيئًا غير طبيعي بشكل مُرعب. فالشخصيات الكارتونية المُجَسَّمة من أفضل ألعابي على الإطلاق، ولكن أُمِّي وضعت القواعد الصارمة تجاه ذلك وقالت إنني لا يمكنني أن أحصل على المزيد، فيكفي أنني اقتنيت ثلاث شخصيات من السلسلة ـ "هيمان"،

و"سكيلتور"، و"تيلو" ـ وهذا، على حد قولها، كثير بما فيه الكفاية. كما كانت ترى أن هذه اللعب باهظة الثمن، وأنني يجب ألا ألعب بها، فعمري تجاوز هذه النوعية من اللعب. قالت أيضًا إنني حصلت عليها لأنني كنت مُدَلَّلًا. وعندما قالت هذه الجملة، نظرت إلى أبي نظرة لها مغزى، ولكن أبي كالعادة كان يتظاهر بأنه لا يدري عمَّا تتحدَّث.



سرنا نحو المحل في صمت. لم يتوقَّف أبي كعادته كل عدَّة أمتار ليُلقي التحية على شخص ما، أو ينطلق ليشرب كأسًا سريعًا مع "فلاتكو"، و"ماتي"، مما يضطرني إلى حمل شنطة المُشتريات والذهاب إلى المنزل بمفردي. مثل هذه الأحداث كانت تنتهي به حتمًا أن يعود مُتَرَنِّحًا إلى البيت، مُعطيًا أُمِّي حضنًا يفوح منه الخمر، ورقصة تجعلها تسرع بعيدًا عنه، وتشعر بالاستياء، فيحتضنها مرَّة أخرى، ويَعِدُها بأنه لن يخطف أي كأس في طريق عودته في الشهر القادم. لكن في تلك الليلة، كان أبي يتجوَّل في "باولا"، وهو مُطأطئ الرأس، لا يُومئ لأحد من معارفه مُطلقًا. وزاد من دهشتي أنه لم يفكر حتى في التَّوقُّف عند حديقة "نيقولا تيلسا"، حيث يوجد بيت صغير مكتوب على جداره جرافيتي:

"جمهورية لكوسوفو، وقارة لإستريا"

حيث تجمع عنده مجموعة من الشباب الحُفاة الذين أخذ عددهم يتزايد في كل وقت. أطلقتُ أنا وأبي على هؤلاء الصبية اسم "الغجر الصِّغار" لأن كثيرًا منهم كان يسبح كل يوم في آخر رصيف الميناء وهم يرتدون فقط التيشيرت. بالضبط كما يفعل "ميلان" ابن "جوفان"، شاب نحيف جدًّا،

يلبس قميصًا في المياه، حسب ما تقول أُمِّي، لـكي يُخبـئ قفصه الصـدري البـارز عن الفتيات.

لم أكتشف مُطلقًا ماذا يُخبئ الغجر الصِّغار تحت قمصانهم، وللأمانة لم أكن مُهتمًّا بذلك. وعلى الجانب الآخر، يعشقهم أبي نوعًا ما، ودائمًا ما يقول إنه كـان واحدًا منهم، وخصوصًا عندما يشرب براندي "ستانزيك بلوم" المُفَضَّل لديه. كان يشرح بكل جِدِّيَّـة أنـه وهـو صـغير نسـيه أبـواه الغجريـان اللـذان يعمـلان في السيرك. غادرا ومعهما أكثر من ثمانية عشر صبيًّا غجريًّا، من مدينـة "فوتـوج" في مقاطعة "فويفودينا". في ظل تلك الظـروف، تبنَّـاه رجـل صربي لطيـف، وسـيدة مجرية ألطف، ولسوء الحظ ماتا في وقتٍ مبكر، وتركاه مـع جـيش يوغوسـلافيا الشعبي وهو ما زال صبيًّا صغيرًا. اعتاد الناس أن يستمعوا لأبي البشوش، لكـنهم لم يعرفوا على الإطلاق أيحزنون عليه أم يحسدونه على حياته المليئة بالقصص.

بصرف النظر عمَّا إذا كان لاعبو السـيرك نسـوا أبي فعـلًا، أم أنـه اخـترع هـذه القصة لكي يجمل طفولة يتيم بائس قام بتربيته ضباط وجنود. فالحقيقـة التـي لا جدال فيها أنني شعرت بالفخر لأنني امتلكـت مجموعـة مـن الألعـاب المُجَسَّـمة التي باعها لي الغجري "ماكي" بمهارة. اعتاد أبي أن يساومه في السعر حتـى النهايـة، أحيانًا يصل الوقت لنصف ساعة لكي يخفض السعر مـن ثمانيـة دنـانير إلى أربعـة. عندئذٍ فقط، عندما يستسلم "ماكي" ويُغمغم بأن الـدنانير الأربعـة سرقـة علانيـة، سرقة من أفواه الناس الطيبـين الـذين هرَّبـوا لـه اللِّعَـب، عندئـذٍ يضـع أبي ورقـة بعشرة دنانير في يد "مـاكي"، ويربـت عـلى ظهـره، ويقـول إنـه لم يـرَ غجريًّـا بهـذا الصدق في حياته.

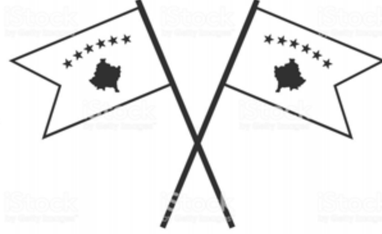
لكن لم يكن هناك فصال في ذلك اليوم. يضع أبي النقـود في يـد "مـاكي" دون أن ينطـق بكلمـة. قبـل أن أنتهـز الفرصـة وألقـي نظـرة عـلى الأرفـف المليئـة بالبضاعة الرخيصة المُلَوَّنـة، اختفـى أبي وسـط الزحـام في سـوق "بـاولا". للمـرَّة الأولى، أشعر بالقلق على أبي، فانـدفعت بـين المُتَسـوِّقين، في حالـة ذُعـر تقريبًـا. تخيَّلت أبي يستغرق في التفكير ويخطو في الطريـق دون أن يلتفـت إلى جانبيـه، فيصدمه سائح إيطـالي معتـوه، أو سـائق مخمـور عـلى "فسـبا". أخـذت أجـري مُتَوتِّرًا، واللِّعَب البلاستيكية في يدي، ارتطمت بالسيدات في فسـاتيهن المنقوشـة أثناء هرولتي في السوق. لم أجد أبي في أي مكان. خطر في بالي أنه نسي أننا جئنـا معًا فتوجَّه إلى البيت للغداء، حتى رأيته أخـيرًا واقفًـا عنـد مـدخل محـل كبـير، ويبدو عليه الارتباك. كنت على وشك أن أجري إليه عندما وضع شخص ما يـده على كتفـي وأفزعنـي. اسـتدرت فـإذا بـه "مـاكي" ينظـر إليَّ بعينيـه السـوداوين الكبيرتين بقلق:

- أبوك العجوز يبدو غريبًا جدًّا اليوم، ألم يُناصره أحد أيضًا؟

لم أسمع بكلمة "يُنـاصره" مـن قبـل، ولا أعـرف معناهـا. كنـت في الحاديـة عشرة وقتها، وكل حلمي أن نستعير قارب والد "ماريو"، ونبحر نحن الثلاثـة إلى أقرب جزيرة.



2



"جمهورية لكوسوفو، قارة لإستريا"

لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن كيف ظهر في "باولا" هذا الجرافيتي الذي اختفى من زمن طويل، ولكن بعد ستة عشر عامًا اتَّضح كما لو أن الحروف تتسابق مع دقَّات قلبي. بدأت الصور والوجوه والأماكن التي دفنتها جيِّدًا في اللا وعي تومض أمام عيني، مثلما تومض فيديوهات قناة الـ"MTV". وراحت حياتي السابقة تمرُّ أمامي كالهلوسة، وشعرت بأنني في أرجوحة تلفُّ في جنون لتقذف بي في عالم كنت قد اقتنعت بأنني تخلَّصت منه. انطلق بداخلي اللا شعور المضطرب القلق، فاستسلمت له دون إرادة. راحت الحروف السوداء الضخمة المرشوشة على الجدران البيضاء في "باولا" تومض وتلمع أكثر، كأنها توشك أن تنفجر بالجدار الذي كتبت عليه:

جمهورية لكوسوفو، قارة لإستريا.

جلست في سيارتي المُتهالكة البالغ عمرها عشرين عامًا في جراج بجوار مصنع ضخم مُلَوَّن في وسط "ليوبليانا". كان يجب أن أتوجَّه إلى "إنيس"، الميكانيكي المُفَضَّل لي؛ لكي يضع ذلك البوسني المحترف لمساته في السيارة لأستطيع أن أقطع بها أول رحلة طويلة لها منذ سنوات. ولكن بدلًا من ذلك جلست أُحَدِّق في حائط الجراج، حيث تصارعت خيالاتي. حاولت أن أضع رجلى اليُسرى في السيارة وأدوس على مغير السرعات الياباني الناعم، وكأن رجلي لإنسان آخر، ظلَّت على أرض الجراج الصلبة، غير مكترثة بما هو أهم؛ وهو أن ساعات عمل "إنيس" المُعتادة قاربت على الانتهاء. للحظة شعرت بأنني غير قادر على التخلص من تيبُّس جسمي وتفكيري. فلم أستطع تذكُّر آخر مرَّة فكَّرت فيها في "باولا"، وطفولتي في عمارات الضباط البيضاء قبل صيف عام 1991. لقد دفنتها كلها في يوم ما، دون أن أُتعب نفسي بوضع شاهد، بلا كفن، وبلا شموع، ودون حتى كلمة رثاء، أو موكب جنائزي. لقد دفنتها كلها ورحلت بعيدًا دون أن ألتفت للوراء مقتنعًا بأن هذا العالم المنسي لن يخرج من مقبرته أبدًا ويلاحقني.

ظللتُ أكثر من عشرين دقيقة بلا حراك، حاولت دون نجاح أن أعود إلى تلك الحالة من الشرود الذهني، إلى تلك اللا مُبالاة المحببة إليَّ، التي حمتني سنينَ طويلة من آليات الحصار العاطفي، لكنني لم أقدر على الحركة ولو سنتيمترًا واحدًا. أبي - الذي كان لوقت قريب مُتَوَفًّى بالنسبة لي – هاجمني الآن، وذلك بعد ستة عشر عامًا من وفاته المزعومة. بعنف أبدي لدرجة أنني أحسستُ بدنيًّا بأن الرُّعب الذي ينمو بداخلي سمَّر قدميَّ في الأرض.

تدفَّق كل شيء من الماضي؛ "باولا" وكتاباتها الجرافيتية، وفندق "بريستول" في بلجراد، والرطوبة التي لا تُطاق في مدينة "نوفي ساد".

عادت أيضًا صورة مدينة "ليوبليانا" القديمة، وصورة أُمِّي، عندما كانت أُمِّي فعلًا. تزاحمت الذكريات في رأسي ووصلت إلى ذروتها، وأوشكت أن تبدأ الألعاب النارية البارعة. أخذت ألهث ولم أقدر على التنفس، شعرت بأنني سأصاب بإغماء مؤكد.

عند هذه اللحظة، بدت لي الكذبة البيضاء البريئة التي نسجتها لرئيسي باحتياجي إلى أسبوع إجازة مرضية تتحول إلى حقيقة غير مرغوب فيها. والآن من المؤكد أن ماكينة القهوة في العمل تفتقد يدي المفترض أنها مصابة.

لقد بذلت قصارى جهدي لكي أتذكَّر الـ"سي دي" الذي طلبت مِنِّي "نادية" أن أُحضره من السيارة. نظرت إلى ركن في الجراج، ولكي أُلهي نفسي حاولت أن أتذكَّر ما الأشياء المُخبَّأة في الكرتونة المُهترئة المُكَوَّمة هناك. مَن وضعها هناك أولًا؟ وكيف جعلوا ركن الجراج مقلب زبالة؟ بدأتُ تشغيل السيارة، لكنها لم تعمل في البداية، هذا الهيكل القديم، ثم أخيرًا دارت بعد أول محاولة طويلة، إنني ممنون لذلك. دون تفكير، ضغطت على دوَّاسة البنزين، ورجعت إلى الخلف. عند هذه اللحظة، سمعت صوت احتكاك عاليًا. رأيت باب السيارة المفتوح يحكُّ في حائط الجراج، وقبل أن يرتطم باب السيارة بباب الجراج وتتحطَّم شبابيك السيارة، شددت فرملة اليد، وأطفأت المُحَرِّك.



- متى ستغادر؟

- لا أدري.

- متى ستحتاج إلى السيارة؟

- بأسرع ما يمكن. غدًا، لو أمكن هذا.

- وأين ستذهب؟

- حتى هذه اللحظة لا أعرف.

- استمع لنفسك. إنك لا تعرف حتى هذه اللحظة. تبدو مثل ابن عَمِّي؛ فهو يعرف أنه سيلتقي امرأة في يوم ما؛ لأنه زير نساء، ولكن لا يدري أي امرأة تلك سعيدة الحظ.

من عادة "إنيس" أنه يحدث صخبًا قبل أن يأخذ مِنِّي المفاتيح، ثم يُتمتم بأنه سيتَّصل عندما تكون السيارة مُؤهَّلة جيِّدًا للحركة. أخيرًا أصبح أُسطى، بعد سنين من العمل لدى مَعَاتيه آخرين مثله، والآن صار يستمتع بتهوية الصمامات والعوادم بنفسه، إذا صحَّ التعبير. اسم ورشته شبه الشرعية "دينو" على اسم ابنه الأول، وتقع بجوار السكك الحديدية، أمام إستاد "ليوبليانا" القديم. "إنه مكان مدفون حتى إن الألبان لا يبيعون أي سلعة هناك". أخذ يصف ذات مرَّة منطقته الجاذبة لكل إنسان بائس يمُرُّ من هناك. والآن هو البائس المعني. بعد وقت مر كأنه قرون، فتح "إنيس" غطاء السيارة، وبدأ يفحصها.

- مَن غيَّر المروحة؟

- "نادية" هي التي قادتها.

- لماذا لم تحضرها لي؟

- السيارة توقَّفت في منتصف الطريق.

- وإلى أين ذهبت بها؟

- "دولجي موست".

- "دولجي موست"! وكم كلَّفها البلطجية في هذه المنطقة؟

- لا أتذكَّر.

- حسنًا، حسنًا، لماذا لم تتَّصل بك لتتَّصل أنت بي؟

- هذا ليس أسلوب السلوفينيين.

هذا المبرر السِّحري أرضاه.

- هذا لا يهم، سأفعل المطلوب.

لسبب ما، كنت أقضي في ورشة "إنيس" على الأقل نصف ساعة بلا غرض. خطر على بالي أن أحصل على عرض في هذه المنطقة النَّتنة من المدينة، وخصوصًا إذا اعتبرني واحدًا من رجاله. لم يخطر ببالي إطلاقًا أن أشرح لكل أُسطى من وسط البوسنة بأنني لم أحسَّ إطلاقًا بأنني واحد من رجالهم، ولا أردت ذلك. كان من الأسهل والأرخص أن أتعامل مع ثرثرة هذا الولد الجيد التي تتم بلُغتنا، وأسلي نفسي بالتخمين في العرض الذي يمكن أن أحصل عليه لو أنني سلوفيني.

- تعرف أنني لا أسأل إلى أين أنت ذاهب بلا مبرر. أقصد أنني لا أتجسَّس، اذهب كما تحب، المسألة هي هل ستذهب نحو الشمال أم الجنوب؟

- ماذا تعني؟

- حسنًا، إذا كنت ستذهب نحو الشمال، فالطرق واسعة، ولا تُوجد مطبَّات، فانطلق براحتك، واذهب. أما إذا كنت متجهًا نحو الجنوب فأنت تعلم ماذا هناك.

ليس لديَّ أدنى فكرة، فلم أتجه في الجنوب إلى أبعد من نهر "كلوبا" على ما أتذكَّر.

- سأذهب إلى الجنوب.

- تعالَ يا ابن عمي وضَبِّط هذه السيارة، لا أريد فيها أي عيب، فهذا واحد مِنَّا، من البوسنة.

فأجاب:

- أليس كلهم واحد؟

- لا تكن غبيًّا.

أخذ ابن عم "إنيس" المفاتيح بيد مُلطَّخة بالسواد، وركب السيارة. في هذه المرَّة دارت السيارة المُتهالكة القديمة من ثالث تكَّة بالمفتاح.

فتساءل "إنيس":

- ماذا يُضحكك يا وغد؟ في يوغوسلافيا سابقًا، كُنَّا – نحن البوسنيين - نقوم بالمضاجعة، في حين كل الآخرين هم كانوا يتولون تربية أطفال تلك المضاجعات. إنكما أنتما الاثنين صغيران ولا تدركان أن نصف هؤلاء المُغَفَّلين السلوفينيين، والكُرواتِ، والصرب الذين يجوبون منطقة البلقان هم في الحقيقة آباؤهم بوسنيون.

كان "إنيس" رجلًا سعيدًا، فلديه جمهور أسير له، لا يعترض على أي شيء يقوله، وهذا ما يريده.

- فيما مضى، كان البوسنيون ينامون مع مَن يشاؤون، لكن النساء لم يرغبن في الزواج مِنَّا. النساء اليوغوسلافيات لا يُرِدن أسماء مسلمة لأبنائهن. حتى لو "إنيس". هناك إخوة وأقارب لكم. لا عجب أنها انتهت هكذا.



عندما غادرت ورشة "دينو" الميكانيكية متجهًا نحو وسط "ليوبليانا" المُتَحَضِّر، شعرت بأن هدوئي يُعاني إلى حد كبير، لدرجة أنني لم أشعر

بما هو أسوأ من ذلك من سائقي التاكسي السلوفينيين. استقللت "أوبل فكترا" زرقاء، واتخذت قرارًا واعيًا بأن أُبرز أُجرة عالية من فئة عشرة يوروهات بدلًا من مراقبة السائق وهو يضبط عداد التاكسي، والتحديق فيه كلما تحوَّل بسرعة ثلاثة يوروهات كل دقيقة، وهو يعرج بي في طرق مطولة. لم أشعر برغبة في الكلام. ليس لديَّ القدرة على مجادلة السائقين، فاكتفيت بالتحديق من خلال النافذة، بينما تتهادى "الأوبل" إلى وسط البلد في هدوء وسلام.

- هل هنا مناسب؟

توقَّف أمام محطَّة باص، واندهشت مسرورًا من أن العدَّاد سجَّل ستة يوروهات وخمسين سنتًا. خرجت من التاكسي، وعبرت الشارع، وجدت نفسي أمام المدخل الرئيسي لمستشفى عام، لم أدرِ بالضبط ماذا أريد أن أفعل هناك. لم ترُق لي على وجه أكمل فكرة بقائي هناك لبعض الوقت أراقب الجماعات المختلطة من الناس شبه الموتى المصابين بكسر في العظام، وبالوسوسة، ولكن انتابني الشعور بأنني جلست بالفعل في عيادة طبيب الأسنان منتظرًا لمدة ثلاثة أيام، فما الفرق؟ ومع ذلك لم أكن مُستعدًّا ذهنيًّا لدخول المبنى واتخاذ الخطوة الأولى في هذه المعركة الانتخابية.

العدوانية الصامتة أكثر ما يناسب حالتي الذهنية. اتَّكأت على عمود وأعددت نفسي لقضاء وقت غير محدد في تفحُّص المرضى وهم يمرون أمامي، دون أن أعطيهم انطباعًا بأنني أتفحَّصهم، متذكرًا قول أُمِّي إن التحديق سلوك غير مُهذَّب. عرفت "دوشا"، بعد سنوات من العمل في المستشفى، الكثير عن هذه الأمور.



- لا أريد أي شيء، سوى أن أدخن.

تهادت نحوي سيدة عجوز بمشَّاية، يتبعها شاب أصلع، تقريبًا ابنها، تبدو عليه الحيرة، غير متأكد من إذا كان عليه أن يحضر لها السويتر الصوف، أم يسحب السيدة إلى الداخل، أم يدخن هو نفسه. يبدو أنه من نوعية الناس الذين لديهم خبرة واسعة في مواجهة الأسئلة التافهة، ولكن لا يجد لها إجابة. بعد تَرَوٍّ عميق، قرَّر أن يتَّجه نحو السُّلَّم. لكن السيدة الكبيرة أخرجت من جيبها سيجارة وأشعلتها.

- تريد واحدة؟

أومأت بالإيجاب، فأعطتني واحدة، وأعطتني الولَّاعة أيضًا. لم أكن مدخنًا، ولكنني بين الحين والآخر تتملَّكني رغبة في أن أمتص بعض السموم في عروقي.

- مريض أم سليم؟

- سليم.

- إذًا أصبحنا اثنين. أولاد هذا الوقت وأحفاده لا يفهمون أن الناس يكبرون عندما يبلغون الثمانين، لذا فهم يحضرونني إلى هنا للفحوصات، لعل هؤلاء الأغبياء يجدون شيئًا يعملون عليه في كل وقت. كوليسترول، أوردة، ومن هذا القبيل. وهؤلاء المُهَرِّجون يريدونني أن أُمارس التمارين الرياضية المائية، وأقلع عن التدخين، وآكل لحم الخنزير المشوي، ومَن يدري ماذا بعد ذلك. هَيَّا، لا تقل شيئًا يزعجني. ألا أستطيع أن أموت في سلام، دون أن يسقوني بالماء كنباتات الزينة؟

حاولت أن أُومئ في اللحظات المناسبة لكي أبدو مُهتمًّا بقصَّتها، ولكنني في الحقيقة كنت مشغولًا لأنني لم أرَ "دوشا" تمر، وها لمحتها على بعد عشرة أمتار عَنِّي. رميت بعُقب السيجارة شبه المشتعلة بين الشجيرات، وانطلقت خلفها.

- "دوشا"! "دوشا"!

كانت في مفترق الطرق عندما استدارت أخيرًا ورأتني. لم تكن من النوع الذي يندهش بسهولة، وإن حدث فلا تُظهر ذلك. لم أرها منذ شهور، وكنت أقف أترقَّبها خارج المستشفى، لكنها قابلتني دون أي تعبير، كأنني شخصية عابرة في مسلسل مكسيكي. نظرتها كانت ستجعلني أكرهها، إن لم أكن قد كرهتها بالفعل لأسباب عديدة. المرَّة الوحيدة التي كرهتها بشدَّةٍ منذ فترة حينما قرَّرت أن تحدِّثني بالسلوفينية، وأنا أصررت على التحدث بالصربية الكُرواتية، سعدت يومها سعادة كبيرة.

- ماذا تفعل هنا؟

- أين هو؟

- مَن؟

- أريد رقم التليفون، العنوان، أي شيء، أريد أن أعرف أين هو.

- عمَّن تتحدَّث؟

- أنتِ تعلمين.

بدت أُمِّي، التي وضعت حدًّا لكل ما حدث، في حالة صدمة للحظة، حدث نادر، لكنها استدارت بعد ذلك وبدأت في عبور الطريق، كما لو أن خطتها هي الهروب من ابنها. تمنَّيت لو أنها على الأقل توقَّفت على

الرصـيف المقابـل، إنمـا "دوشـا" العجـوز التـي بـلا روح اسـتمرَّت نحـو سـيارتها، المركونة في شارع "إليريسكا"، كما تفعل يوميًّا لسنوات. لقد حصـل لهـا زوجهـا، "دراجـان"، عـلى تصريـح مـن خـلال علاقاتـه مـع حُثـالات الجنـوب المتنـوعين والعديدين، فما كانت السيدة "تشيريتش" تـدفع أي رسـوم انتظـار. أعلـم أنهـا قادرة على أن تركب سيارتها الـ"كليو" الصفراء اللعينة وتـذهب إلى البيـت دون رد، دون أي كلمة. كما هي عادتها دائمًا، دخلت "دوشا" في حالة الانغلاق.

تعقَّبتها وأمسكتها من يدها، ولكنها لم تتوقَّف. كـان واضـحًا أنهـا تنـوي أن تنطلق بالسيارة، فلم يكن لي خيار سوى أن أسحبها بعيدًا عن السيارة، وأجعلها تتحدَّث معي.

- أعلم أنه على قيد الحياة. أريد أن أراه.

بدلًا من أن تجيبني، حاولـت الإفـلات مـن قبضـة يـدي. دفعتنـي أولًا، ثـم ركلتني، ومن الحظ أنها لم تعرف ماذا تفعل. أمسكت بهـا مـن وسـطها بشـدَّة، وتركتها حتـى تهـدأ، وتتوقَّـف عـن التَّلـوِّي كـالأحمق. كانـت "دوشـا" معروفـة بعنادها. في لحظة، غرزت أظافرها الحمراء الطويلة في يـدي. دفعتهـا لا إراديًّـا، وارتطم كلانا للخلف على سور مرتفع يُوازي الرصيف. بيـنما اسـتعادت توازنهـا، كنت قد أخذت موضعي بينها وبين السيارة الـ"كليو". مـن الطبيعـي أن تحـاول دفعي بعيدًا عنها لتمضي في طريقها، ولكن لم أتردد في دفعها لأمنعها.

كنت أشك في كثير من الأحيان في أنهـا عنـدما تغلـق عـلى نفسـها هكـذا لا تكون في حالتها الطبيعية؛ لكن في هذه المـرَّة تيقَّنـت، لمـا تراجعـت إلى الخلـف بضع خطـوات، لتهـرب مِنِّـي، مبتعـدة فجـأة، مندفعـة إلى الطريـق، لتصـل إلى

سـيارتها مـن الجانـب الآخـر. لم تتوقَّـف إلا عنـدما رميـت بـنفسي في طريقهـا. تراجعت إلى الرصيف، وهي تنفخ غضبًا. بعـد لحظـة، اسـتدارت "دوشـا" أخـيرًا نحوي.

- تعالَ غدًا في الاستراحة وسنتحدَّث في سلام.

لم تكن بطبيعتها.

- وعد؟

- وعد.



لا يعني وعدها الكثير بالنسبة لي، فأنا أعرف أُمِّي بالقدر الذي يجعلني أعرف أن هذا أقصى ما أستطيع استخلاصه منها. كان أملي أنها ستظهر في الغد لأنه هذه المرَّة تتَّسم بالجِدِّيَّة؛ كنت في احتياج إلى معلومة قد تخرجهـا مـن نطـاق راحتهـا. واعتمدت أيضًا على أنها تعرف أنني عنيد مثلهـا، وأننـي يمكننـي أن أنتظرهـا لأي فترة أمام المستشفى. غابت في تلك اللحظة سـيارتها الـ"كليـو" عـن الأنظـار، ومـا زلت غير متأكد من إذا كنت سأراها في اليوم التالي أم لا، وإذا كنـت سأسـتطيع أن أحصل منها على معلومة أم لا.

اسـتهوتني فكـرة أن أسـتقل أي بـاص مـن باصـات المدينـة، مثـل رقـم عشرة، وأتجـوَّل في المدينـة مـرَّة أو اثنتـين، مُحَـدِّقًا مـن النافـذة، جالسًـا في هدوء كأنني كوفية منسية مع مجموعـة مـن الشـباب المصـابين بالتَّوحُّـد في طريق عودتهم من المدرسة إلى البيت. ولكن الساعة الآن الثالثة تقريبًـا، وأعلـم أنـه لا يوجـد مقعـد خـالٍ. وحتـى لـو أننـي وجـدت مقعـدًا، فسـتركب

حتمًا سيدة مُسِنَّة تتدلَّى من يدها شنطة السوبر ماركت، وستخبرني بنظراتها الفصيحة أن أترك لها المقعد.

لذا سرت مُتَسَكِّعًا إلى البيت، بعد المركز الطبي، عازمًا بصدق على كيف سأشرح كل ذلك، أو جزءًا منه، لـ"نادية". أو ماذا سأفعل لو أنني في وسط الكلام أدركت أنني لا أستطيع أن أخبرها بشيء؟

فعلى الرغم من أنني أعرف "نادية" منذ ثلاث سنوات، فإنني لم أفلح في فهمها. لم أكن متأكدًا مما كانت تفعله معي، ولا كيف تنظر إلى علاقتنا. لقد جاءت من عالم آخر مختلف تمامًا؛ فهي طالبة مُتفوِّقة في علم الأحياء المجهري من أسرة ريفية محافظة. تنتمي إلى جيل هادئ لدرجة أنه لا يعبأ بالتوقُّعات اليومية للقدر المرتقب. منذ أن انتهى حب الشباب، ولم تعانِ "نادية" من أي مشكلة، أو على الأقل مما لاحظته (بلادتي الموروثة). كان اعتقادي أحيانًا أن "نادية" مرتبطة بي نظرًا لهذا الطول الذي يقارب المترين الذي أتمتَّع به ويُؤثِّر في حياتها، هذا الشيء الوحيد الذي تفتقده منذ طفولتها التي لم تنتهِ.

ربما كان شعوري تجاه "نادية" هو شعور بالامتنان. فأنا ممنون لأنها لم تزعجني مُطلَقًا، ولم تتدخَّل في حياتي الخاصة، ولم تُثر أي ضجة لأنني لم أُعرِّفها بأُمِّي. وجودها في حياتي مُمتع للغاية، وبصراحة أخاف أن أُحَطِّم هذا بحكايتي عن أبي، الذي كان حتى وقت قريب ميِّتًا.



لحُسن حظِّي أن مُعضلتي هذه تأجَّلت بسبب التزامات "نادية" الدراسية؛ إذ زار شقَّتنا الصغيرة التي نستأجرها زميلان لها من بلدتها،

مهتمان بعلم "الميكروبيولوجي"، "ماثيو" و"نينا"، اللذان يقضيان مع "نادية" على كل ما تمتلك من بيرة. هؤلاء الثلاثة الذين ربطوا الدراسة بالحرية المطلقة فازوا بتركهم مدينتهم، واعتبروا دراسة "الميكروبيولوجي" في جامعة "ليوبليانا" جنة الله في أرضه. عندما عبرت من الباب كانوا في مناقشة ساخنة، لذا لم يلحظوني فتسلَّلت إلى غرفة النوم، وأغلقت الباب وحاولت أن أحظى بقسط من النوم.

لم تكن عادتي في الدراسة مختلفة، فلم ألتحق بالجامعة إلا لكي أحصل على المراجع من مساعدة الطلاب، ولكي أساعد رئيسي السابق في تجنُّب الدفع للدولة. بعد سنوات استطعت أن أقنع نفسي بأن المذاكرة يوميًّا قد تكون وسيلة جيدة لإضفاء بعض مظاهر التنظيم والمعنى على نضالي في الحياة، ولذلك بدأت مع مجموعة من الزملاء المُتَحَمِّسين التَّردُّد على كلية الآداب. صدموني في أول يوم بنظريات "ناعوم تشومسكي" اللغوية، وبعدها مباشرة بعلم نفس نمو الطفل، ثم بالأساطير السلوفينية. درست الإثنولوجيا (علم الأجناس) في السنة الأولى، والأنثروبولوجيا (علم الإنسان) الثقافية في الثالثة، ولم أكن في عجلة من الأمر لكي أستمر. ما زلت أحب الاستماع للمحاضرات، والاستمتاع أحيانًا بتناول كوب أو كوبين من البيرة مع الزملاء بعد ذلك، وهكذا. لم أستطع الانغماس معهم في حفلات طلابية منتظمة.

كنت أسمع الثلاثة يتناقشون في أمور تافهة في الخارج، ولكن لم تقدر أي مناقاشات أن تخترق حائط غرفة نومي في ذلك المساء لتقلق نومي، ولم أكن في حاجة لكي أقنع نفسي بأن الثلاثة لم يتسبَّبوا في توتُّري. العالم كله

يزعجني، فلذلك لا يوجد سبب معقول لجعلهم استثناءً ملحوظًا. وقفت "نادية" على الباب وهي منسطلة وسألتني بابتسامة ماكرة:

- هل أنت على ما يُرام؟

ربما كانت ذاهبة إلى الحمَّام وتذكَّرت في طريقها أن لها صديقًا.

- سنشرب بعض الخمر، هل تشاركنا؟

- أيجب أن أوقظك عند عودتي للشقة؟

ازدادت ابتسامة "نادية" مكرًا، ولطالما كانت تثيرني، ولكنني الليلة لست في حالة هيجان.

- لا أعتقد

- إذًا تصبحين على خير.

أخذت مجموعة "الميكروبيولوجي" تلك طريقها للخارج، في حالة سُكر وهمس يدوي، فالنوم لم يغالبني بعد. ظللتُ أُفَكِّر في لقائي غدًا مع "دوشا" عن والدي، وعمَّا ستقوله ولن تقوله.

كنت مُتيقِّظًا عندما تسلَّلت "نادية" من الباب برشاقة في الساعة الرابعة والنصف، وحاولت النوم، ولكن دون جدوى. اختلست نظرة خاطفة وهي تغير ملابسها، معتقدًا أن عُريها سيصرفني عمَّا فيه، ولكن حتى جسمها النضر لم يمتلك القوة التي تخرجني من حالة الانفعال المُشينة التي تتملَّكني. تمدَّدت بجواري وراحت في النوم بسرعة، في أمان. رائحة شعرها البني الطويل مُقزِّزة، ففكَّرت في تدخين سيجارة حشيش، ولكن لم أشعر بالرغبة في النهوض وتفتيش شنطة يدها، في هذه الساعة من الليل. سمعتها في الحال تغمغم، كما تفعل عندما تشرب كثيرًا من

البيرة. كنت مُتَيقِّنًا من أنني أستطيع الصراخ، ولـن تسـمعني، فتجـرَّأت أن أقـول لها:

- أبي ليس ميّتًا، ولكنه مجرم حرب.



"قابلني في الساعة الحادية عشرة في بار مبنـى الإسـعاف. مـع حبـى، دوشا".

لم تُلقِ "دوشا" إطلاقًا بالًا لحالة الجو، سـواء بالنسـبة لهـا، أو لي. ربمـا أيضًـا التقينا في عنبر الغلايات، أو غرفة العمليات. على الأقل هذه الرسالة التـي رنَّـت في الساعة السابعة والنصف وأيقظتني، أكدت لي أنني أخذت قسطًا من النـوم، على أي حال.

وصلت "دوشا" وهي شبه نائمة مثلي، والانتفاخات تحت عينيهـا تحـاول أن تخفيها بالمكياج. فكرة أن شيئًا ما أزعجها أخيرًا، فكرة سارَّة.

طلبت قهوة "إسبرسو" دوبل، وكوبًـا كبـيرًا مـن المـاء، ثـم دخَّـنـت سـيجارة. وقدَّمت لي سيجارة، وسألتني بأسلوب مُهَـذَّب، إذا كنـت أُدَخِّـن أم لا، تعاملـت معي كأننا غريبان نلتقـي للمـرَّة الأولى. جلسـنا إلى طاولـة عـلى رصـيف البـار، نُدَخِّن، ولاحظت أن كلينا يمسك السيجارة بالطريقة نفسها. ولاحظـت أيضًـا أن يدها ترتعش.

- ليس لديَّ وقت كافٍ، قل لي ماذا تريد.

- أريد أن أراه.

- أنت تعرف أنك لا تستطيع، إنه مختبئ، وهم يبحثون عنه.

- لا أهتم بذلك.

- لا أحد يعرف على وجه التحديد أين هو.

- ولا أنت؟

هزَّت "دوشا" رأسـها، وتجنَّبـت النظـر في عينـيَّ، ونظـرت في سـاعتها ثـلاث مرَّات، وفى مدخل البار ستَّ مرَّات، في غضون دقائق قليلة.

- آخر مرَّة قابلته منذ ثلاث سنوات، ولا أدري إذا كان على قيد الحياة أم لا.

قمت بعملية حساب سريعة في ذهني، كم سنة مرَّت منذ أن قرَّرت "دوشا" أن تُخبرني بذلك، متظاهرة بأن أبي مات في مكان مـا عـلى الجبهـة. والآن اتَّضـح أنها كانت على اتصال به على مدى اثنتي عشرة سنة، على اتصـال برجـل ميِّـت، ساقطة في خضم هجوم من الحس العام.

- من أين كان يتَّصل بكِ؟

- أعتقد أنه من الأفضل...

- من أين كان يتَّصل بكِ؟

- إنه مُختبئ من الكل، لماذا تعتقد...

- من أين كان يتَّصل بكِ؟

- من "برتشكو".

- العنوان؟

- لماذا تعتقد أنه...

- من المحتمل أنه كان ينتظر أن تزوريه، أو أزوره، أو أننا نكتب...

- انظر يا"فلادو"..

- العنوان؟

أحضر الجرسون القهوة الدوبل وكوب الماء الكبير لـ"دوشا"، وعصيرًا لي. دفعت "دوشا" الحساب بسرعة، وقالت إنها مستعجلة.

- العنوان؟

- قال إنه لم يستمر في هذا العنوان، فهو غير آمن، وسيذهب إلى مكان آخر. كان هذا منذ ثلاث سنوات. ولا أعرف له أي عنوان آخر.

في إمكاني أن أعيد كلمة "العنوان" باللهجة نفسها مئات المرَّات، كان يمكن أن أعيدها حتى الصباح، و"دوشا" تعرف ذلك. ابتلعت كوب الماء بسرعة، وبدأت ترتشف من فنجان القهوة الصغير.

- انظر، أعرف أنك لن تغفر لي أنني أخبرتك بأنه ميِّت. ولكن أريد أن أعرفك بأنه طوال هذه المدة لم يقل، ولو مرَّة واحدة، إنه بريء. لم يقل ذلك لي، ولم يقل حتى إنه آسف. أوَدُّ أن تعرف أن هناك احتمالًا قويًّا بأنه مذنب. أريدك أن تعرف هذا، فقط هذا.



- ها هي بالكاد انتهت.

ربما لا يعرف "إنيس" ما يحدث لسيارتي المُتهالكة في ورشته، التي تحت رحمة ابن عمِّه الشاب. بوصفه نجمًا بلا منازع بين أترابه، تناول "إنيس" بنفسه كوبًا صغيرًا من البيرة، وكأسًا من براندي شنابز، بينما

كان يمتع "شعبنا" بالنكات، في الكافتيريا التي يتردد إليها دائمًا، والتي يمتلكها ويشغلها "شعبنا".

- متى يمكنني أن أجيء؟
- متى ستغادر؟
- غدًا.
- إذًا تعالَ اليوم بعد الظهر.
- كم ستكلفني هذه العملية؟
- سنتفق على أي حال، يا صديقي "فلادان".



3



يبدو أن الشاب الـذي غسـل نوافـذ سـيارتي المُتهالكـة في محطَّـة بنـزين في وسط أرض بـور بـين "زغـرب" و"برتشـكو" تقريبًـا، شـبه "مـاكي" إلى حـد كبـير، ولدرجة أنه كان يمكنه أن يقنعني بأنه ابن "ماكي" الذي نسيه مـن زمـن بعيـد، وهو يحرك السيارة المُتهالكة من مكانها في المحل. هلَّ أربعة أطفال مـن مكـان قريب، وفي أيديهم جرادل ماء وقطع قماش قديمة. نظـروا إليَّ، وكـادوا يقفـزون عليَّ من أجل النقود المتبقية معي التي سأدفعها لقهوة دوبل وعصير في مطعـم "جافوري" القريب. فكَّرت في كيف كان أبي العجوز سيحب أن يتصـارع معهـم، لكنني لم أرث منه أي موهبة مفيدة، مثل المصارعة مع أطفـال ضـعاف البنيـة. عندما فتحت باب سيارتي، وجدت فجأة أيدي ممدودة فوقي؛ تلويحات بقماش مهترئ ومُتَّسخ، ونجحوا في أن يحركوا ضميري وأغير خطتي قلـيلًا لقهـوة عاديـة وكوب ماء. حاولت، وأنـا مغتـاظ قلـيلًا، أن أشـق طريقـي بيـنهم، وأتجـاهلهم، ولكـنهم راحـوا يتنـاورون كـأنهم في سـباق، فـدائمًا أجـد واحـدًا مـنهم أمـامي،

يعترض طريقي. واستمروا في أن يجعلوني أرى كيـف أن نوافـذ السـيارة نظيفـة، وهم يدفعون بأيديهم المُتَّسخة في وجهي.

- ليس لديَّ أي فكَّة!

ورحت أريهم جيوبي الخاوية.

- حسنًا، أعطنا نقدية مُجَمَّدة.

- ليس لديَّ إلا يورو.

- لا توجد مشكلة.

شاعرًا بالإحباط، أخرجت عملة قيمتها اثنـان يـورو ووضـعتها في يـد شـبيه "ماكي". لكن معركتي لم تنتهِ بعد، فقد تدافع الأربعة الآخرون من أجل نصيبهم.

- هَيَّا، ابتعد، لا تجعلني...

وقف جرسون مُسِنٌّ، في زيٍّ متروك من أيَّام الاشتراكية، أمام مدخل المطعم. لما سمع اثنان من الأطفال الغجر صوته الصارم، عادا على الفور، ولكن الجرسون الغاضب نجح في جذب واحـد مـنهما مـن ياقتـه المُهترئـة ودفعـه نحـو موقـف السيارات.

- هيَّا العب بعيدًا، يا لص يا صغير!

- يا للعنة!

- أحذرك، يا صغير، لا تجعلني أذهب إلى هناك!

- فتلذهب إلى الجحيم، يا مجنون!

من الواضـح أننـي وجـدت نـفسي مُحـاصرًا بـين جـيش نظـامي في المطعـم وعصابة من أطفال الغجر. يتصارعون من أجـل الهيمنـة عـلى الطريـق الموحـل الـرابط بـين موقــف السـيارات العشـوائي، والمطعــم الشـعبي. في تلــك

اللحظة، توقَّفت سيارة "جولف فلوكس واجن" بلوحات معدنية بلغارية. فـنسي الأطفال الغجر الجرسون التعـيس وركضـوا بجـرادلهم القـذرة. وعـاد الجرسـون لمكان خدمته عند الباب، وواصل استراحته للتدخين.

جلست إلى طاولة مغطاة بمفرش أبيض، بالإضافة إلى بقع قهوة قديمـة عـلى مفرش أحمر ناعم أكثر قذارة، وطفاية سجائر بلاسـتيك موضـوعة في المنتصـف، بجانــب مزهريــة فيهــا زهــور بلاســتيكية مــن الحقبــة التاريخيــة الوســطى بيوغوسلافيا. بالطبع اضطررت للانتظار، لـكي يصـبح لي الحـق في أن أدفـع ثمـن القهوة اللاذعة، المتقلبة بملعقة بلاستيك رقيقة، نتخلَّص منها بعد الاسـتعمال، في ظل هذه الأجـواء الخاصـة، هـذه المـرَّة الأولى لي في مثـل هـذا الموقـف. واصـل الجرسون المُبَجَّل التدخين بسيجارة ثانية، وتحدث مع زميل له واقف خلف بـار من الصلب غير قابل للصدأ، واسـتطاع أن يختفـي في طريقـه مـن هنـاك حتـى طاولتي.

يبدو أنني أمرٌ بتجربة لعادة أصيلة من ضيافة الجنوب التي سـمعت عنهـا كثيرًا. حاول آخرون أكثر مِنِّي حكمة تغيير هـذه العـادة مـن السـلوك، ولكـنهم فشلوا، لذلك من العبث أن أفعل شيئًا سوى استيعاب الأمر. حاولـت ذات مـرَّة التعامل مع هذه المخلوقات شبه الآدمية، فسألت سؤالًا بريئًا وهـو "كـم تبعـد المسافة عن "برتشكو"؟" فجاءتني الإجابـة مـن أحـد السـجناء المحكـوم علـيهم بالإعدام العاملين في ذلك اليوم هكذا: "لا أُلقي لذلك أي...".

بدا الشخص الـذي يرتـدي زيًّـا رسـميًّا ولـه شـنب، الـذي أخـذ مِنِّـي نقـود البنزين، يكره نفسه في ذلـك المسـاء، وتعـدَّى ذلـك ليكـره كـل العـالم. كـان رد فعلـه التلقـائي عـلى سـؤالي عـن "برتشـكو"، تلـك المدينـة التـي أثـار تاريخهـا

غضبه لأنها لم تقع في يد الكُرواث في نهاية الحرب، بأنه أعطى ابتسامة باهتة. من المحتمل أنه أراد أن يعطيني الإحساس الزائف بأنه يمزح بدلًا من أنه يرهب المسافرين على الطريق إلى المناطق الصربية.

شعرت بالضيق، ولكنني انطلقت.

بعد عشرين دقيقة كنت أشرب قهوتي غير الصالحة للشرب، في المطعم المجاور، متساءلًا لماذا هذا الاتهام غير المعلن والمتوقع لا يزال يجعلني أشعر بالاستياء. لقد صعدت بداخلي كراهيتي لصاحب الشنب، فتبلورت لقصة متخيلة أصبح فيها مهربًا لمواقد البوتاجاز والغسالات المسروقة من بيوت الصرب. أتخيَّل "السيد شنب" وهو يحمل الأجهزة من ماركة "جرونجي" من وإلى القرية، بعد انتهاء ورديته من محطَّة البنزين، ويقدمها للجيران، مُدَّعيًا أنها من صهره السويدي اللطيف، الذي اشترى أجهزة من ماركة "إليكترولوكس" لمنزله، ولم يعد في حاجة إليها. لكن بعدما تلاشى "السيد شنب" في الضباب السلوفاني المهلوس، والغسالات الكثيرة التي يحملها في مُخَيِّلتي، عاد المنطق مرَّة أخرى، وبدا لي أنه من الصعب أن أجد عامل بنزينة أكثر اعتدالًا في خضم هذا الفراغ البشع بين "زغرب" وبلجراد. كان من المؤكد بالنسبة للسكان المحليين أن قبضتهم على هذه المناطق المهجورة لن تمتد لتلك المنحدرات البائسة فيما وراء نهر "سافا"، التي جئت منها. ومن المحتمل أيضًا أن المهاجرين الصرب، الذين من المرجح أن أقاربهم في "برتشكو" يعيشون في منازل المسلمين المطرودين، أو الكُرواث، ولم يكن أحد محبوبًا ليبدأ معه. لذلك من الطبيعي أنه لم يظهر بأنه محترف، فقط لكي يرضي العابرين.

كان هذا المنطق الطبيعي غريبًا بالنسبة لي، ولكن لم يفسر ذلك لماذا ما زلت في حالة سيئة. لم أُفَكِّر في نفسي مُطلقًا بأنني حساس، ولو هناك وابل من الشتائم لن يحركني. ولكن أفترض أنني شعرت بأن كل هذا مرتبط بحالة أبي الشبيه بحالة "لعازر"، وتساءلت لو أن "السيد شنب" قرأ إحساسي بالذنب. ألم يسبب شعوري بالبراءة، الذي اعتقدته بكل مشاعري حتى وقت قريب، في تبديد اللحظة التي فكَّرت فيها أن أبحث عن اسم أبي المُتَوَفَّى في "جوجل" وبلا رجعة؟ هل هذا هو السبب في أنني لم أستطع النظر في عين "السيد شنب" وأقول له أن يذهب إلى الجحيم؟ هل هو السبب في إحساسي بأنني مثل رجل في قفص الاتهام، ويحاكم بصلاح النفس؟

أشعر بالذنب تجاه قرية "فيشنيتشي"، في شرق "سلافونيا"، على الرغم من أنني لم أعثر عليها في الخريطة. لا أعرف إلا القليل عمًّا حدث فيها ليلة 13 نوفمبر 1991، في الوقت الذي كُنَّا أنا و"دوشا" نعيش في "ليوبليانا". وعلى الرغم من ذلك أشعر بالذنب، وهذا الشعور أصبح أقوى عندما اقتربت منها.

- أي خدمة أخرى؟

- معذرة؟ آه... لا... أشكرك.

- 12 كونا.

يبدو أن وقتي في مطعم "دافوري" قد انتهى.



هذه هي المرَّة الأولى التي آتي فيها إلى مسقط رأسي، وهـذا أول تعامـل لي مـع المواطنين الكُروات، لو أنك نحَّيـت جانبًـا اللقـاءات الصـدفة في شـوارع "ليوبليانـا"، وضابط الجمارك في زِيِّه الأزرق الفاتح اللطيف في بوَّابة الحدود.

كنت أُفَكِّر في "نادية"، التي لم أفلـح في أن أخبرهـا بـرحيلي. عنـدما غـادرت كانت في أحلامها الوردية، ولم تطاوعني نـفسي في أن أوقظهـا. كنـت قـادرًا عـلى اختراع قصة أخفي بها بشياكة نيَّاتي الحقيقية ومقاصد سفري، وإن كانت مليئـة بالثغرات على نحو ما، وغير متوقعة في كل الأحوال، بما في ذلـك مـدتها الزمنيـة. لكن حينما رنَّ التليفون للمرَّة الثالثة خلال ثلاثين دقيقة، لم أستطع تجاهله:

- آلو!

- أين أنت؟

- "نادية"... حدث أمر ما.

- ماذا؟

- عمَّة أبي، "ميلوسافا"... ماتت.

- معقول؟ وأين أنت الآن؟

- سأحضر الجنازة... أنا أقود السيارة الآن.

- إلى أين؟

- البوسنة.

- البوسنة؟

- نعم، أنا هنا الآن... في كُرواتيا.

- لماذا لم تخبرني؟ ولماذا اتَّجهت إلى البوسنة؟ هل كل شيء على ما يُرام؟

- كل شيء على ما يُرام... ولكن لا أدري متى سأعود.

- حقًّا؟

- نعم... موضوع طويل.

- لم أفهم.

- آسف.

- على العموم عاود الاتصال بي.

أغلقت "نادية" الخط، وتملَّكني إلحاح قوي بأن أتصل بها وأستمر في الكلام معها، لم أستطع أن أضع تليفوني جانبًا، ولا أعرف ماذا سأقول لها. لا تستحق كذبي عليها من موقف سيارات أمام مطعم "جافوري" بشأن العمَّة "ميروسافا" وموتها المزعوم، قريبتي الوحيدة من ناحية أبي، التي ماتت فجأة، وهي في سن الثانية والتسعين، أثناء قطعها شجرة تفاح في دار الاستشفاء الوحيدة في شرق البوسنة. لقد ألفت قصة حياة العمَّة بهذه التفاصيل، دون أي تردد، كان يمكن أن أحكي حكايات عديدة عن الفلفل المحشي التي كانت تضعه "ميلوسافا" في كرتونة وتذهب به إلى محطَّة الباص، وتعطيها للسائق المتَّجه إلى "ليوبليانا" مع خطاب لأُمِّي وعشرين ماركًا ألمانيًّا لي. كان يمكن أيضًا أن أحكي عن زوج العمَّة، "سلافكو" الذي مات للأسف بسرطان المعدة، الذي أرجعته لطعام منزلها غير الصحي، فاتَّجهت نتيجة لذلك للطعام الأورجانيك في سن الخامسة والثمانين، الأمر الذي جعل جيرانها البوسنيين يعتقدون أنها أصيبت بالخرف، فوضعوها بناءً على ذلك في دار الاستشفاء، واستحوذوا على منزلها.

كان خيالي حيًّا، وكنت أحب أن أطلق له العنان عندما يتعلَّق الأمر بالنساء، ولكن هذه المرَّة وصلت إلى باب مسدود. فصوت "نادية" خدَّرني، وتوقفت في منتصف أول جملة اخترعتها. فشعرت كم يكفيني الحديث

الصادق والأمين معها الآن. كان يمكن أن تكون معي سندًا في هذه القصة المفاجئة والقاسية، التي وجدت فيها نفسي. أفتقد إنصاتها باهتمام، وربطها المُتعقِّل لكلماتي غير المترابطة، واستنتاجاتها الصائبة، التي لم أكن أتوصل إليها بنفسي بمنتهى البلادة. "نادية" أذكى مِنِّي بكثير، فهي أصغر، وأكثر سذاجة، ولكن أمهر مِنِّي. لقد فكَّرت لثانية واحدة أن أعود وأذهب إليها، ولكنني كنت عنيدًا. لست من النوع الذي يستسلم قبل النهاية.



كانت المعلومات التي تفيد بما حدث في "فيشنيتشي" متناثرة، وكذلك التي يمكن الحصول عليها من الإنترنت. هناك احتمال أن كثيرًا من التفاصيل في الصحف الكُرواتية التي تعود لفترة التسعينيات، وبالتأكيد هناك ناس يعرفون الكثير، ولكن ليس لديَّ أدنى فكرة عمَّن أسأل، وهل سيخبرونني بما يكفي. عرفت مما تمكَّنت من تجميعه أنه في يوم 13 نوفمبر 1991، قام الفيلق الثالث من الجيش الشعبي اليوغوسلافي، بقيادة الجنرال "بوروجيفيتش" بنهب وحرق قرية "فيشنيتشي" بالقُرب من "فوكوفار". قَتَلوا أثناء العملية أربعة وثلاثين فلاحًا من دون سلاح، بما فيهم نساء وأطفال وكبار السن. دفنوا الجُثَث في مقبرة جماعية تم اكتشافها في غابة على بُعد عدَّة كيلو مترات. كما علمت أيضًا أن المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة أصدرت قرار اتهام من لاهاي ضد "نيدلكو بوروجيفيتش" منذ سنوات، ولكنه ما زال طليقًا. اتهمته المحكمة بمسؤوليته كقائد لجرائم الحرب التي ارتُكبت في "فيشنيتشي". صادفت أثناء بحثي عديدًا من الافتراضات عن مخبأ الجنرال "بوروجيفيتش"

الهارب في المساحات الشاسعة من الأراضي الصربية، وكيف أنه، مثل الكثير من المُدَّعى عليهم في لاهاي، يتمتع بحماية المخابرات الصربية السرية. ادَّعى أحد المُعَلِّقين، في جزء "إضافة التعليق"، أن "بوروجيفيتش" كان يعيش في منزل محصن في مقاطعة "أوجيتسي"، جنوب صربيا، لعدة سنوات، وأيَّد بعض المُعَلِّقين مجهولي الاسم هذا الافتراض، وأضافوا أن حمايته تمت بأمر مباشر من النخبة السياسية في صربيا، وأن ذلك كان معروفًا جدًّا بين المخابرات الأجنبية؛ لكونها مسؤولية الجيش الصربي.

كانت آخر مرَّة رأيت فيها الجنرال "نيدلكو بوروجيفيتش" في مطعم فندق "بريستول" في بلجراد، في صيف 91، عندما كان لا يزال عقيدًا. بالنظر إلى الماضي، أعتقد أنني لم أعرف هذا الشخص الذي كان يلعب دور أبي، أثناء طفولتي في "باولا". ليس لديَّ شك في أنني أحببته مثلما يحب الطفل أباه، وحزنت لمَّا أخبرتني أُمِّي بأنه قد رحل. كنت أنهمك أحيانًا في فكرة أنني لم أتغلب بالفعل على شعوري بافتقاد أبي، وأنني لم أعطِ لنفسي مُطلقًا مساحة من راحة البال. لقد تلاشت ذكريات طفولتي عنه، وغُسلت كما يغسل الماء رسمًا بالألوان المائية، فصارت الألوان باهتة على مدار السنين. الشيء الأكثر أهمية بالنسبة لي هو أنني لم أعد قادرًا على تذكر وجهه. لم أعد أتذكر ملامحه إلا من خلال الصور الفوتوغرافية، ولكن صورته الحقيقية مُحِيَت من ذاكرتي. أتذكره الآن من خلال صور عديدة بالأبيض والأسود في حفلات أعياد ميلاد متنوعة، ومن رخصة قيادته التي يظهر فيها وجهه صبيانيًّا رقيقًا، في وقت كان بالكاد يشبهه في الحقيقة. لم يكن لديه في ذلك الوقت تلك الحواجب الكثيفة التي كانت تتجمع في المنتصف إذا أزعجه أمر ما. لم أستطع أن أتذكر عينيه

السوداوين وهو يجهدهما عندما يشاهد التليفزيـون مـن دون نظـارة. لم أتبـين شفتيه الغليظتين المتغيرتين باستمرار، وهما تـدفعان وتزغـدان الطعـام في فمـه، بينما تنشغل أُمِّي بأعمال البيت بطريقة غير منتظمة، مع كل غـداء. لم أسـتطع أن أتخيَّله وهو يتململ بنفاد صبر في السينما، منتظرًا أن يبـدأ الفـيلم الأسـبوعي الموالي للحزب، ومع ذلك، أعلم أنه كان يفعل ذلك في كل مرَّة.

رأيته من خلال ذاكرتي إنسانًا يهلُّ في الأفق من بعيد، مثل التمثال النحاسيِّ. رأيت زيَّ الضباط الأنيق الخاص به معلقًا في البيت أمام المرآة، قبل يوم الجيش الشعبي اليوغوسلافي مباشرة؛ رأيت جسمه في ملابس البحر مستلقيًا على فوطـة قصيرة جدًّا، وهو يخبرني بـأن أخـرج مـن الميـاه لأن شـفتيَّ بـدأتا تميـلان للـون الأزرق. رأيت قميصه الأبيض المنقوش، الذي اشتراه من "تريستي"...

كنت أعلم أنـه يمكننـي، عـلى الطريـق الـذي أخذتـه، أن أصـل إلى "فوكوفـار" و"فيشنيتشي" أيضًا في ساعات قليلـة. ولكننـي لم أعـرف إذا كنـت أريـد أن أرى أيًّـا منهما. نظرًا لأنني لم أذهب إلى "سلافونيا" مُطلَقًـا، رسـمت صـورة لــ"فيشـنيتشي" أحسبها صحيحة، متخيلًا أنني زُرتها بالفعل. رأيت بيوتًا متناثرة في سهول واسعة بلا أشجار، ودخانًا يتصاعد من المداخن، ودفئًا ينبعث مـن المواقـد المشـتعلة، والظـلام الذي لا يبدده سوى الأضواء التي تنساب خلال شـبابيك الغـرف التـي يعـيش فيهـا السكان بسلام والذين لم يروا مُطلقًا أن ليلـة نـوفمبر قادمـة. أخـذ كلـب في النبـاح كالجوقة الإغريقية ليستدعي كـلاب قريـة أخـرى، ثـم هـدأ مـرَّة ثانيـة. عـلى بعـد مـا، كـان يتسـكَّع شـخص بـبُطءٍ نحـو بيتـه بطـول ضـفة مـن الوحـل تصـل بـين

حقلين. وخرج شخص آخر من بيت، مُطلقًا حمامة ليخلصها من صوت الأطفـال. بعدها اختفت الحمامة مرَّة ثانية بعد أن أغلق الباب وساد صمت يتخلله دويّ الريح وصراصير الحقل وصرير من الغابة القريبـة. كـان مسـاءً في نـوفمبر مثـل آلاف المسـاءات التـي مـرَّت مـن قبـل في هـذا التـاريخ غـير الموجـود في قريـة "فيشنيتشي". ولكن في مكان ما، في ذلك الأفق الممتد، كـان الفيلـق الثالـث مـن الجيش الشعبي اليوغوسلافي بقيادة الجنرال "بوروجيفيتش" يقترب ببُطءٍ.

- بطاقتك الخضراء، من فضلك.

مـن حُسـن الحـظِّ أن "إنـيس" حـذَّرني مـن أن ضـباط الجـمارك البوسـنيين سيفتشون عن البطاقات الخضراء، ولذلك أخـذتها معـي. نظـر ضـابط الجـمارك "محـرم هـودجيتش" باطمئنـان في بطـاقتي وحـدَّق فيهـا لفـترة دون أن يقلـب الصفحة:

- إلى أين أنت ذاهب يا "فلادان"؟

- إلى "برتشكو".

فكرر قائلًا:

- إلى "برتشكو".

ما زال يُحَدِّق في صورتي الشخصية، متظاهرًا بأن حفظ تاريخ ميلادي ومحل إقامتي هو جزء من نظام التكنولوجيا الفائقة للقبض على مُهرِّبي الجبن القريش واللحوم المدخنة.

- جيــد.

أعاد "محرم" لي البطاقة. بعد لحظات، نزلت ووضـعت قـدميَّ للمـرَّة الأولى على مقاطعة معروفة باسم "البوسنة والهرسك".

4



اليوم الذي سمعتُ فيه كلمة "يُناصر" للمرَّة الأولى هـو اليـوم الـذي قـرَّرت فيه أُمِّي أن تستقل بذاتها للمرَّة الأولى. لست متأكدًا ماذا قال لهـا أبي عنـدما لم يجعلني أدخل البيت معه لما رجعنا من السـوق، بـل طلـب مِنِّـي أن ألعـب في الفناء حتى ناداني في وقت الغداء. كـان هـذا أول وآخـر أمـر رسـمي تلقيتـه في حياتي من العقيد "نيدلكو بوروجيفيتش"، ولكنه قيـل بطبيعتـه العسـكرية بـلا شك. أطعته بلا اعتراض. ظللتُ أتجول بلا هدف، بينما أعلـن أبي الخـبر المحـزن باضطرارنا للرحيل إلى بلجراد. لن أنسى أبدًا الصـمت الـذي خـيَّم عـلى الحجـرة حينما عدت إلى البيت. كُنَّا عادةً نترك التليفزيون أو الراديو مفتوحًا، فلا نسـمع طنين الثلاجة. أخرجت أُمِّي ملابسها من الدولاب الكبير وألقت بها على السريـر في غرفة النوم. الشيء الوحيد الذي كان على طاولة الطعام طبـق مـن المكرونـة باللحم المفروم وجـبن "البـارميزان"، كانـت تلـك إشـارة واضـحة لي بـأن أتنـاول الغـداء دون أن أطـرح أي سـؤال. قـال لي أبي، بشـكل عـابر، إننـا سـنذهب إلى بلجراد لفترة بسبب عمله، وأن أُمِّي ستجمع أغراضي. في المرَّة التالية التي مرَّ بها بجـواري، أخـبرني بـأنني يمكننـي أن أعـود للخـارج، أو أشـاهد التليفزيـون،

ولكن لا أنتظر في الشقة بعد الغداء؛ لأن كل الأمور يجب أن تكون في نصابها قبل أن نرحل.

رنَّ التليفون في المساء، أخبرنا أبي بصوت مثل صوت مذيع الأخبار بأن عربة الجيش سوف تكون أمام المحل خلال عشر دقائق، وعلينا أن نحمل الأغراض إلى الخارج. في اللحظة ذاتها، انفجرت أُمِّي بالبكاء. حاول أبي أن يحتضنها ويضع رأسها على كتفه مثلما فعل يوم أن أخبرها بأن ابن عمِّها "جريجور" لقي مصرعه في حادث سيارة. لكنها الآن دفعته بعيدًا، وأمسكت بأكبر شنطة حقيبة في الصالة، وبدأت تسحبها تجاه الباب، كل ذلك بنفسها. حاول أبي أن ينزعها من يدها، قائلًا إنها ثقيلة جدًّا ويجب ألا تكون عنيدة، ولكن أُمِّي حملتها إلى أسفل، ثم إلى الخارج أمام المبنى حتى موقف السيارة أمام المحل. وضعتها أخيرًا على الأرض، وهي مُنهكة، لدرجة أنها ارتطمت بالأرض محدثة صوتًا مكتومًا. ثم جلست عليها، وراحت تبكي مرَّة أخرى، بينما حمل أبي، المرتبك قليلًا، باقي الأشياء بنفسه، وأخبرني بأن أظل مع أُمِّي لربما تحتاج إلى شيء ما.

لم يمضِ وقت طويل حتى ظهرت جارتنا "إنيسا" أمام المحل. مهما كانت الساعة، كانت دائمًا تراقب ما يحدث أمام بيتها. في هذه المرَّة، خرجت كي تُوَدِّعنا، وهي ترتدي روب الحمَّام فقط وحذاء زوجها. حاول أبي أن يخبرها بأننا سنعود قريبًا، ولكن "إنيسا" أومأت فقط وأخذت تردد:

- تصحبكم السلامة، والصحة والسعادة أينما كنتم.

ثم قبَّلتني على خدَّيَّ وجبيني، وأوصتني بأن أكون مهذبًا ومطيعًا لوالديَّ، وألا أضيف أي متاعب إلى متاعبهما. ما زلت لا أدري ما هي المتاعب، ولكن بدلًا من أن تفسر لي، ضمَّتني بشدَّة، وقالت:

- عزيزي، طفلي الجميل.

وراحت تبكي بشكل أحَرَّ من بكاء أُمِّي.

أخيرًا وصلت العربة، حيَّانا "شكليكم" السائق، وبدأ في حمل الحقائب والكراتين في الخلف. ابتعدت أُمِّي عن شنطتها وذهبت لتحتضن "إنيسا"، لدرجة أنهما ما عادتا لتريا "شكليكم" من خلال دموعهما، بينما كان أبي يناوله في هدوء الحقيبة بعد الأخرى. بعد أن تم تحميل آخر شنطة ظهر، وَلَفَّ "شكليكم" المشمَّع وربطه جيدًا، شعرت بوخزة في قلبي، وانخرطت في البكاء. فقد انتابني هاجس شؤم بأن صيفي سينتهي قبل أن يبدأ حتى. فلن يأخذني أبي إلى شاطئ "جولدن روكس" بعد الغداء مجددًا فأقفز في البحر من أعلى الصخور المرتفعة.

بعدما ابتعدنا عن شارعنا، قال "شكليكم" إننا لسنا في حاجة لليقظة بسببه، ويمكننا أن ننام، فالرحلة طويلة ومرهقة. كان سعيدًا لحد يثير الشك، يتكلَّم كثيرًا، ويضحك أكثر، بينما نحن نُحَدِّق في صمت في رحلتنا الأخيرة التي نمُرُّ فيها على المسرح، والـ"بوَّابة الذهبية" والساحة. بدأ مسقط رأسي يتلاشى شيئًا فشيئًا، مثل سرب الخنافس المضيئة التي تُحَلِّق في الأفق المظلم البعيد، تلك التي تحبها أُمِّي، ولكنها الآن أدارت لها ظهرها ولم تعد تحب أن تراها.



قبل عدَّة سنوات، وصلت أُمِّي إلى مدينة "باولا" قبل الساعة العاشرة مساء. كانت حينئذٍ طالبة صغيرة تدرس علم التربية من "ليوبليانا". أسندت رأسها إلى نافذة القطار الأخضر الصغير، أخذت تشاهد باهتمام

كبير آلاف الأضواء التي تلألأت في البداية على بُعد، ثم صارت أكبر وأقـرب حتـى تحوَّلت إلى أشكال. كانت تعرف أنه في مكان ما وسط هـذه الأضـواء في محطَّـة سكك حديد "باولا"، ينتظرها الملازم "بوروجيفيتش" في زِيِّه العسكري، وفي يـده وردة حمراء. نقلها بتوتُّر من يد إلى أخرى تاركة في كفيه آثار شوك صغير. كـان الأمر على هذا الوضع في كل مرَّة، وتمنَّت في قرارة نفسـها لـو أنـه لا يـحضر لهـا وردة، فالأمر على أي حال يكلفه ما فيـه الكفايـة كي يكسـب وُدَّهـا. فقـد كـان يحـاول أن يكسـب وقتًـا بعيـدًا عـن الخدمـة مقابـل زجاجـة شـنابز للنقيـب "موزيروفيتش"، حتى يمكنـه البقـاء معهـا حتـى السـاعة الرابعـة، حيـنما يعـود القطار إلى "ليوبليانا"، لكنـه كـان رجـلًا نبـيلًا، يـرى أنـه مـن اللائـق لضـابط في الجيش الشعبي اليوغوسلافي أن يستقبل فتاته السـلوفينية بـوردة، ثـم يأخـذها لكافتيريا مجرية ويقدم لها قطعة كيك وكوب ليمون. يمسك بها وهما يتمشيان في شـارع "أول مـايو" والميـدان العـام، ويُقبِّلهـا عـلى خَـدَّيها في السـاعة الثالثـة والنصف، ويتمنَّى لها عودة آمنة. مَن يدري كم مـن زجاجـات شـنابز حظـي بها النقيب "موزيروفيتش"، وكم مرَّة رأت الفتاة السلوفينية "دوشا بودلجـار" بالاهتمام نفسه المناظر نفسها من النافذة ذاتها في القطـار الأخضر، والأضـواء التي تتمدَّد ببُطءٍ، بينما آثار الشوك في كفي الضابط المُتَوَتِّر قبل أن يستجمع شـجاعته ويُقبِّلهـا عـلى شـفتيها للمـرَّة الأولى أثنـاء جلوسـهما عـلى دكَّـة في حديقـة. هـل فـكَّ حمَّالـة صـدرها بيـده المُرتعشـة، وراح يـتلمَّس حلماتهـا المُنتصـبة؟ مَـن يـدري! هـل اسـتقبلها المـلازم في يـوم مـا ببطانيـة صـوف تحـت ذراعـه بـدلًا مـن الـوردة الحمـراء، وأخـذها إلى مكـان مظلـم

ومنعزل بدلًا من الكافتيريا المجرية؟ ربما فات الرفيقة "دوشا" قطار العودة، لعدم قدرتها على أن تسحب نفسها من حضنه القوي المثير؟

بالطبع لم تتحدَّث أُمِّي عن هذا، ولكنها تحدثت عن كيف بدأت تشتري لزميلتها في العمل قطع الطوفي لكي لا تخبر مديرهما في العمل بأنها تأخذ غفوات في مخزن صغير تابع لمحل الأحذية في شارع "تيتو"؛ لأنها كانت مجهدة من أخذها القطار يوميًّا تقريبًا، ثم جريها مسرعة في الصباح من المحطة إلى العمل مباشرة. تحدثت أُمِّي أيضًا عن كيف اعتادت زميلتها أن تغيظها بقولها إنها قضت وقتًا طويلًا بما فيه الكفاية، ولربما تتوقع أن يقدم لها الدبلة بدلًا من الوردة. وكانت ترد بأنها تجد المتعة في ذلك، ولا تستعجل. تضيف أيضًا أن أي فتاة تخاف أن تتزوج رجلًا وسيمًا مثله في زِيِّه هذا؛ لأن الفتاة حينئذٍ تكون غير متأكدة من أيهما تحبه أكثر؛ الزِّي أم الشخص الذي يرتديه.

قبل أن تتمكن "دوشا" من حل هذا اللغز، كانت زميلتها قد سئمت من عملها المتكرر، ومن الطوفي. لم يمضِ وقت طويل حتى وجد المدير موظفة المبيعات التي تعمل لديه مُتَكَوِّمة كالطفل على الأرض، بين كراتين الأحذية في المخزن، في يوم ما بعد الظهر.

ولكن لأن المصائب لا تأتي فُرادى، سمع الرفيق "بودلجار"، من البوليس السري سيئ السُّمعة من بلدة مجاورة، من القيل والقال أن ابنته المثالية التي تعمل في محل للأحذية بجِدِّيَّة لكي تكسب قوتها، لم تذهب إلى كلية التربية من فترة طويلة. كان والد "دوشا"، "دوشان"، من نوعية خاصة. غادر بيته المتواضع على مضض، بعد أن أُصيب بأزمة قلبية تسبَّبت في تقاعده الإجباري عن وظيفته العريقة كقائد شرطة مخلص في

مدينـة صـغيرة نظـرًا لظروفـه الصـحية. ولكـن عنـدما عَلَّقَـت الرفيقـة "ماريـا بودلجار" - السكرتيرة السابقة في مدرسـة ابتدائيـة التـي تمـارس هوايتهـا وهـي مراقبة سلوك جيرانها الأخلاقي - في أحد الأيام بأنه لا يصح ألا يعـرف الآبـاء مـا يحدث لأولادهم، شعر "دوشان" أنه مُرغم على اتخاذ خطـوة. لم يكـن اختيـاره، ولكنه اندفع نحو هذه الخطوة بشكل احترافي.

لذلك لم تفقد "دوشا" عملها في أول مارس 1978 فحسب، ولكن "بودلجـار" رئيس الشرطة السابق تأكد، بطريقته الخاصة، من أن أسـاليبها المتمـردة يجـب أن تُعاقب. فانتهت بأنها فقدت شقَّتها المُؤَجَّرة بسرعـة فائقـة. في حـين أنـه مـا زالت "دوشا" من الناحية النظريـة طالبـة مجتهـدة، تقبَّـل أبوهـا المُهـان مـرارة قرارها بترك البيت. ولما كـان الجـيران يسـألونه، كـان يتظـاهر بأنـه فخـور بهـا ويساندها. كان يقول الرئيس "بودلجار"، واضعًا ثقته في حياة الطالب الخاصـة، التي هي مجهولة بالنسبة له:

- يحتاج الطالب إلى سلام تام، ويجب أن يكون قريبًا من كليته.

كان هؤلاء الذين تحـدث معهـم يعرفـون أقـل مـما يعـرف. ولـكي يتجنَّـب الاعتراف بأن "دوشا" فلتت مـن قبضـته كـأب، أقنـع "دوشـان بودلجـار" نفسـه والجيران بأن رحيل "دوشا" هو جزء من خطته الرئيسية.

لكن بيته غير الآمن بـدأ ينهـار مـن الليلـة التـي اسـتجمع فيهـا المـلازم "بوروجيفيتش" شجاعته، بعد استعداده طول المساء، وطلب من الفرقـة في بلكون الفنـدق أن يغنـوا "مهـلًا، مهـلًا، مهـلًا، لـن نـذهب إلى البيـت الآن" (الأغنية السـلوفينية الوحيـدة في عروضـهم) فيمكنـه بـذلك أن يـرقص مـع السـائحة السـلوفينية الجميلـة. لم يمـضِ وقـت طويـل حتـى فقـد الـرئيس

"بودلجار" إيمانه في كذبته. فآخر قشَّة تمسك بها هي أن يحاول أن يغـري ابنتـه بالعودة إلى البيـت بـأسرع مـا يمكـن، ويغويهـا بحلـم العمـل في مصنـع محـلي للجلود، والذي كان بالتأكيد نوعًا من العقاب لا تتصوَّره.

لكن مكيدة خطة الإصلاح التـي أعـدَّها بعنايـة أثبتـت بوضـوح أن الرفيـق "بودلجار" لم يعرف ابنته المعرفة الحقيقية، على الرغم من إيمانه طـوال السـنين بأنهـا المُفَضَّـلة لديـه. إن هـذا الجاسـوس سـيئ السُّـمعة، الـذي كانـت تخافـه البلطجية، لم يأخذ بجِدِّيَّة العناد الموروث الذي ورثه لـ"دوشا"، عـلى الـرغم مـن أن هذا كان يتداوله الناس من حوله. كانت خطة "بودلجـار" أن يجـبر صـاحب العقار الذي تسكن فيه "دوشا" في "ليولبيانا" بأن يقدم ضده تقريرًا مـا دام هـو وأمثاله لا يسجلون أنهم يؤجرون من الباطن. وهكذا يطرد "دوشا"، فتفكر أنهـا ستتشرد في الشوارع قبل أن تعود لأبيهـا ذليلـة، لكنهـا بـدلًا مـن ذلـك اتَّجهـت مبـاشرة إلى المحطـة وانتظـرت القطـار الأخضر للمـرَّة الأخـيرة. كانـت تحمـل حقيبتين، رسم عنادها بـاقي القصـة، فقـد أصرت ألا تعـود إلى بلـدة أبيهـا مـرَّة أخرى، ولا حتى في يوم "غداء الأحد". انطلقت نحـو الأضـواء في "بـاولا" مؤمنـة بأن الملازم سوف يكون في انتظارها بالوردة في يده التي بهـا آثـار الشـوك، عـلى الرصيف رقم 2، وللمرَّة الأخيرة.

لكن كما شاء الحظ، نسي الملازم "نيدلكو" أنه يـوم الخمـيس، تلـك الليلـة التي يفترض أن تكون أهم ليلة في شبابه. شهدت أيَّام الخميس طقوسًا خاصـة في ثكنات "كارل روجك". في حوالي الساعة السابعة، بعـد أخـذ العقيـد "نيفـين بـراك" دُشًّـا ورشَّ الكولونيـا الإيطاليـة المهربـة، ذهـب لتنـاول العشـاء في مطعـم "فيشرمـان شريـد" مـع عشـيقته "زانـا". كـل الجنـود في "بـاولا" عـلى

علم رسميًّا بأن ذلـك العقيـد الجيـد في حالـة اسـتعداد دائـم في الثكنـات في أيَّـام الخميس، وأنه أيضًا يخون زوجته "إيفانا" بشـكل غـير رسـمي، في الغرفـة 132 في فندق "بريوني"، حيث تتم مناوراته الجنسية على مَعِدَة مملوءة بالحبـار المشـوي، والسَّلطة الخضراء، وزجاجة "براندي" أحمر، بينما الجنود يحرسون هـذا السر كـما لو أن إفشاءه خيانة عظمى. إذا اتصلـت "إيفانـا"، ونـادرًا مـا تفعـل ذلـك، فـإنهم يخدمون وطنهم باهتمام بأن يشرحوا للزوجة، دون أي شعور بالذنب، أن "العقيد براك لا يمكنه التحدث في التليفون الآن"، باستثناء مرَّة واحدة أخبر مجنـد جديـد، من أصل ألباني، "إيفانا" بأن "العقيد في الثكنات، لكن ليس في الثكنـات بالضـبط". غير أن "براك" نجح في تفسير ذلك بقوله إن الرجـل يسـتطيع التحـدث بالصربيـة، لكنه لا يفهم ماذا يقول بالضبط، وبالتالي ظل السر سرًّا.

كانت هناك مكافآت لهؤلاء الذين حافظوا على سر أيَّام الخميس، لـيس فقـط للذين كانوا يـردون عـلى مكالمـات الزوجـة المخدوعـة، بـل وهـؤلاء الـذين كـانوا "يراقبون النقيب "موزيروفيتش" ولا يجعلونـه يغـادر الثكنـات ولـو مقابـل شـاي الصين كلـه". كـما تـرى، كانـت "زانـا" عشـيقة "نيفـين بـراك" مـع النقيـب "إمـير مـوزيروفيتش" سـابقًا قبـل أن يكتشـف، مـن هولـه، أن في حياتهـا العديـد مـن الضباط. فكان رد فعله أنه "لا يضيع وقته وجهده الجـنسي مـع العـاهرات". إنمـا، بالطبع، لم يستطع التغلب على شعوره نحوها، ولا أن يظهر الشجاعة حيـنما علـم أنها على علاقة مع صديقه المتزوج "نيفـين". عـلى عكـس "مـوزيروفيتش" متوقـد العاطفة، كان "نيفين" يضيع وقته وطاقته الجنسية مع "زانا"، ولا يهتم بمـا تفعلـه ما دامت لا تفعله يوم الخميس، لكن أيَّام الخميس كانت تقتل "موزيروفيتش".

أخيرًا، انهار حينما رأى صديقه يستعد لإحدى ليـالي الخمـيس، وهـو يُصـفِّر أغنيـة "هـذه ليلتنـا". في البدايـة، شرب زجاجـة براندي شـنابز خاصـة بـالملازم "بوروجيفيتش"، وفي محاولة أبعد من ذلك، تأرجح بين رغبته في الاعتذار لـ"زانا" وهو راكع على ركبتيه عن كلماته القبيحة، ثم يطلب يدها أمام "براك"، وعُـمَّال المطعم، ومَن تصادف وجوده من السَّيَّاح الألمان، وبين الاختيـار الثـاني، وهـو أن يقذف بـ"براك" من نافذة مطعم "فيشرمان شريد" إلى البحر مباشرة. لكن بـدلًا من تنفيذ أي من الخيارين بمساعدة الجنود الـذين في الخدمـة، نـام في مكتبـه، وأرجأ القرار الصعب لتنفيذه أو عدم تنفيذه إلى الخميس التـالي. للأسـف، جـاء الخميس التـالي الـذي تركـت فيـه "دوشـا" "ليوبليانـا"، وكـان الجنـود الـذين في الخدمـة متنـاثرين لأن "فيلبفوسـكي" حامـل الرايـة - والمفـترض أنـه في حالـة الاستعداد - نسي أن يخبر كل واحد كيف تكـون الخدمـة يـوم الخمـيس. لـذلك كان "نيدلكو بوروجيفيتش" خارجًا من الثكنات، ولم يسمع أي شخير قـادم مـن مكتــب النقيــب "مــوزيروفيتش". بعــد دقيقــة، أعلــن "فيلبفوســكي" أن "موزيروفيتش" غادر الثكنات وهو مخمور ويصرخ قائلًا: "سأذهب لأضاجع كل القـوَّادين في المطعـم والعـاهرات الـلاتي معهـم"، أو بمـا يعنـي ذلـك، وكـان "فيلبفوسـكي" يعلـم مـا سـيحدث. بـدلًا مـن الـذهاب إلى المحطـة، اضـطر "بوروجيفيتش" أن يسرع إلى مطعم "فيشرمان شريد" ليمنـع مصـيبة اجتماعيـة مجلجلة. وهذا يعني أن "دوشا بودلجار" ستبقى وحيدة عـلى الرصـيف رقـم 2 من دون الوردة، أو يد مخربشـة تسـتقبلها، للمـرَّة الأولى، كبنـت تائهـة تحمـل الحقيبتين.

لا أحد يدري هل بسبب أنها لا تعرف مكانًا تذهب إليـه أم لأن شخصـيتها هكذا، توجهت فتاة "بوروجيفيتش" السلوفينية إلى الثكنات.

اندفعت متجاوزة الحرس، كأنها موكـب عسـكري صـارم، وكـادت تصـطدم بـالملازم "بـوروجيفيتش" والعقيـد "بـراك" وهـما يسـندان معًـا النقيـب "موزيروفيتش" السكران للغاية، وهو يُشَخِّر بشدة. عندما رأى "دوشـا"، أسـقط "بـوروجيفيتش" النقيـب عـلى الأرض، وهـو منـدهش، لدرجـة أن وقوعـه عـلى الأرض أفاقه قليلًا. اعتقد "براك" أن "دوشـا" سـائحة تائهـة فهـمَّ أن يـدلها عـلى أقرب فندق، إلا أنها قالت:

- "نيدلكو"، تزوجني، بالله عليك.

في تلك اللحظة، بدأ النقيب "موزيروفيتش" في الصياح بشدَّةٍ بأنه يجـب ألا يذكر أحد كلمة الرَّب في الثكنـات، وأنـه أمـام هـذا "العـالم المثـالي"، سـيتزوجها الجميع لو أرادت، وأنه يأمر "نيدلكو بوروجيفيتش" بـأن يتـزوج هـذه الرفيقـة الشجاعة. ارتبك "بـوروجيفيتش" جـدًّا، ولكنـه أخـيرًا أومـأ بالموافقـة. أسـقطت "دوشا" الحقيبتين وارتمت بين ذراعي "بوروجيفيتش" المرتبك.

طلبت أُمِّي الزواج من أبي يوم 9 مارس 1978، وتم الزفاف بعدها بيومين، يـوم السبت 11 مارس، برغم تدخل صغير من الإشبين، النقيب "موزيروفيتش". فـما زال يعالج أسوأ صداع أصابه في حياته، بينما العـروس والعـريس راحـا يقـبلان بعضـهما بعضًا، أقسم لنفسه ألا يشتم الشنابز مرَّة أخـرى، مقـررًا أن يشرب برانـدي "بلـوم" فقط من اليوم فصاعدًا.



في واحدة من أطول الليالي في حياتي، لاحظ سائقنا "شـكليكم الأدريسي" أننـي لم أنم، فبدأ يشرح لي في صوت هامس أن الأضواء التي على اليسار آتية من المجر، والتي على اليمين من البوسنة، وأن الصرب و"فيودوفينا" أمامنـا مبـاشرة، حيـث لا نرى أي أضـواء. وراح يخـبرني بأنـك إذا قـدت السـيارة مـن بلجـراد آخـذًا طريـق "نيس" و"يوتسيش"، ستصل "كوسوفو"، وقريته، حيث ولد والـد "فاضـل فكـري". خَيَّبت نظراتي غير المُعَبِّرة "شيكليكم" ـ لم أسمع إطلاقًا عن لاعبـي كُـرة قـدم كبـار من "كوسوفو".

أخيرًا ساعدني الراديو الخاص به في عربتنا على النـوم، ولمـا اسـتيقظت، كـان الفجر قد شقشق، وتوقَّفت عربتنا أمام فندق "بريستول" ببلجراد.



5



الآن أقف أمام العمارة التي - بناء على كلام "دوشا" - آخر ما سكن فيها الجنرال "بورجيفيتش". كانت العمارة تتميز بالأسلوب الاشتراكي؛ مبنى ضخم على شكل مكعب، ذلك النوع الذي كان شائعًا في يوغوسلافيا السابقة. وعلى الرغم من افتقارها إلى التناسق والمواد البنائية الرخيصة المستخدمة فيها، أثارت في داخلي الشعور بالفخر لسبب ما؛ بسبب غموض طرازها المعماري والحياة المتعلقة بها. عندما دخلت، استقبلتني رائحة مألوفة. انتابني انطباع بأنني كنت في مكان مشابه، ولكن لم أستطع أن أتذكر أين ومتى، ولم يكن لديَّ في تلك اللحظة أي شعور بالحنين. فكَّرت في أن مجرم الحرب لن يعيش باسمه الحقيقي، لذلك بحثت عن أثر آخر للبحث عنه.

كانت العمارة عبارة عن شقَّتين في الدور. تمكَّنت من سماع صوت الأطفال من شقَّة أسرة "كوراتش" في الدور الثاني وبطول المدخل. على دوَّاسة باب شقَّة "ميتروفيتش"، يوجد حذاء من جلد لامع، ولكنه أصغر من أن يكون لـ"نيدلكو". أما في الدور الثالث كان الجو أكثر هدوءًا. على أحد البابين لافتة "فوكموريفيتش وكيبو"، بينما على الباب الثاني "دكتور محمد ديزدار". وبلا شك يمكنني أن أصرف النظر عن هاتين الشقتين؛ فأنا متأكد أن "نيدلكو" يعيش هنا، وأود لو يزال يعيش هنا، وحيدًا في "برتشكو"، ومتأكد أيضًا أنه لا يجيد لعب دور طبيب، حتى لو كان مارس هذا الدور في الأكاديمية العسكرية سنين طويلة. لذا واصلت صعودي على السُّلَّم، حيث أسرة "تشيبريلو" الصاخبة بالغة النشاط، بينما يبشر باب "فاسا دورديتش" المقابل بأمل. اقتربت من الباب، ولكن لم أسمع شيئًا مغايرًا عن هرج ومرج أسرة "تشيبريلو". صوت شخص ينادي "زوريكا"، و"زوريكا" ترد بصوت مرتفع بأنها ستأتي. في الطابق الأخير، مجموعة من أصص الزهور حول عتبة أسرة "بابيتش"، بينما هناك لفة من الصحف عند دوَّاسة أسرة "زدرافكوفيتش". راجعت التواريخ، كلها حديثة ترجع لأسبوع مضى.

تساءلت لو أن جنرالًا هاربًا يسكن في هذه العمارة، أين شقته؟ حصرت العدد في ثلاث شقق؛ "ميتروفيتش"، و"زدرافكوفيتش"، ويبدو أنهما مسكونتان، وشقة "دورديتش" التي يبدو أنها شاغرة. انتابتني حيرة باعتقادي أنني على بعد خطوات من أبي المُتَوَفَّى، الذي بُعث من جديد، وأدركت الآن فقط كم أنا متوتر وغير مستعد بشكل جيد للقائه. تملكني شعور، بصرف النظر عن الأمر، بأن أخرج من هذا المبنى المتهالك وأجلس

في سيارتي. أيقنت أن "نيـدلكو" لم يعـد يسـكن هنـا، فأسـندت رأسي إلى البـاب الذي لا تصدر منه أصوات. وفجأة، انفتح الباب المزخرف وطل منـه شـخص مـا ناظرًا إلى الممر.

- عمَّن تبحث؟

- مساء الخير، أبحث عن رجل محترم، لا أعرف اسمه.

نظرت إلى السيدة "بـابتش" بارتيـاب، كـأنني أتعـاطى مخـدرًا عـلى دوَّاسـة بابها، أو أنني أقطف أوراق زهورها.

- الرجل نسي محفظته في البار المقابل للشـارع، ولـيس فيهـا أي مسـتندات تدلُّ عليه، فأردت أن أعيدها إليه.

- لم يعد "توميسلاف زدرافكوفيتش" يسكن هنا منذ ثلاث سنوات.

أومأت. ولكن السيدة "بابتش" لاحظت نظرتي الجانبية على الصحف الملقاة على الدواسة.

- اعتاد صبي أن يأتي بالجرائد هنـا، وحاولـت أن ألقـاه لأخـبره بـأن السـيد "زدرافكوفيتش" رحل منذ ثلاث سـنوات، ولكنـه يـأتي في مواعيـد غريبـة؛ لـذلك آخذها لأقرأها وأعيدها مكانها، وبالتالي لا تجمع غبارًا.

ابتسمتُ نصف ابتسامة. فهناك شيء جميل في الموضوع كلـه لـو كانـت تقـول الحقيقة. الصحف المجانية للسيدة "بابيتش"، التي كانت موجهة سرًّا لمجـرم حـرب، جعلتها مستفيدة من الحرب بشكل غير مباشر. هناك شيء مضـحك جعلنـي أكـتم ابتسامتي. والمضحك أكثر أن الجنرال "بوروجيفيتش" يتخذ اسمًا مُستعارًا من مطربه المُفَضَّل "توما زدرافكوفيتش". كانت هناك لمسة شعرية في الأمر؛ إذ إنه يندمج مـع أغنيـة "تومـا" الشـهيرة "عشـت معانـاة الحيـاة"، ولكننـي لم أسـتطع فهـم واحـد

بهذه العقلية. وفي "برتشكو" الحالية (أو على الأقل "برتشكو" التي قرأت عنها في بحثي) يتخذ اسمًا كُرواتيًّا، "توميسلاف". ربما اعتقد "نيدلكو" أن هذا يقلل الاشتباه فيه، فمَن يتخيل أن يطارد رجل اسمه "توميسلاف" بتهمة حرق قرية كُرواتية؟

- ألا تعرفين أين يقيم السيد "زدرافكوفيتش" الآن؟

- لماذا تريد أن تعرف؟

بدأت السيدة "بابتش" تشكُّ مرَّة أخرى، وتذكَّرت أن موضوعي الرئيسي ليس له علاقة بالسيد "زدرافكوفيتش"، لكن كان عن إعادة محفظته.

- لا يوجد سبب... فقط... أعرفه بالشكل.

نظرتها تقول إنني ما زلت في رأيها مُدمنَ مخدرات أو سارقَ زهور.

تفحَّصتني بدقَّة، وبعينين مُرتابتين تجعلان البريء يشعر بالذنب، على الرغم من أنني لم أسرق زهورًا في حياتي. قرَّرت أنه من الأفضل الخروج من هنا بأسرع ما يمكن. أظن أنها فضولية بما يتعلَّق بمصير المحفظة الوهمية المفقودة.

- هل أنت "فلادان"؟ من سلوفينيا؟

ازدادت دقَّات قلبي.

- نعم، أنا "فلادان" من سلوفينيا.

- كلمني "توميسلاف" عنك.

- فعلًا؟

- نعم، قال إنك هربت إلى سلوفينيا بعد الحرب، ولم يستطع الاتصال بك.

كان هذا صحيحًا.

- وكلَّمني أيضًا عن حكاية أسرتك. يا له من أمر محزن!

أومأت، لا أدري ماذا أفعل. لقد باح وجه السيدة "بابتش" بما تفكر فيه عن تحولي السريع من "فلادان بوروجيفيتش" إلى "فلادان زدرافكوفيتش"، بطل لحكاية ذاتية مفبركة من شخصية أكثر فبركة "توميسلاف زدرافكوفيتش". لا سبيل لي لمعرفة إذا كانت القصص التي قصَّها عليها لها أساس من الحقيقة، أو أي شيء أتوقع أن تسألني عنه. أعتقد أنها كلها مفبركة، فقط لتمضية وقت في محادثة عابرة مع جار في الممر.

- تودُّ تناول بعض القهوة؟



- أتعلم؟ لقد عرفتك على الفور. فهذا الشبل من ذاك الأسد، وعلى الرغم من لهجتك السلوفينية فأنت تقف مثله، وحواجبك التي لا تستطيع أن تخفي تعبيراتها مهما فعلت.

وضعت "مديحة بابتش"، التي كانت تعمل في المجلس المحلي منذ أعوام، بعض القهوة والبسكوت وكوبًا من مشروب زهر البيلسان. هذه المأكولات والمشروبات كانت بمثابة آلة الزمن بالنسبة لأمثالي؛ لقد أعادتني لأيام الطفولة. جلست إلى الطاولة في شقَّة ضخمة من غرفتين، تسكنها هذه المسنة المتقاعدة. قديمة، ولكن منظمة. يمكنني رؤية مدينة "برتشكو" من نافذتها. مثلها مثل معظم المدن البوسنية، تبدو أكثر جمالًا من مكان مرتفع عمَّا هي عليه في المستوى الأرضي.

- لديكِ منظر جميل من هنا، تستطيعين أن تري المدينة كلها.

- نعم، أستطيع أن أراها كلها، يا "فلادان"، يا ولدي. ولكنني لم أعد أتعرف إليها كما اعتدت. يا له من عالم جديد! أسامحهم لكونهم صربيين.

كـان زوجـي مـن الصرب أيضًـا، ولكنـه عـلى الأقـل ارتقـى بإنسـانيته. هـؤلاء لا يشبهون أهلنا في "برتشكو"، أتفهمني يا "فلادان"؟

لم أفهمها، لكنني تذكَّرت أن اسم أبي في هذه المدينة هو "توميسـلاف"، وأن "مديحة" قد تكون مقتنعة بأنني مثلها لست راضيًا عن الصرب.

- هؤلاء الناس مختلفون. ماذا تظن؟ سوء الحظ جلبهم هنا من أمـاكن أخـرى، أعرف ذلك ولكن... أحيانًا سلوكهم يجعل الناس يتعجبون. يسامحني الرَّب، لا أحـد كان سيطاردهم لو أنهم كانوا أكثر احترامًا للآخرين.

- من الصعب أن يعيش المرء هاربًا، الناس لا يرتاحون لذلك.

- أعرف، صدِّقني، أنا وزوجي هربنا كثـيرًا في هـذه الحيـاة. أحيانًـا بسـببي، وأحيانًا بسببه، وأحيانًا بسبب... أيًّا كان. لم نشعر بالارتياح، لا مع الطريقة التـي كُنَّا عليها، ولا مع الأشخاص، أو المكان. انتهى بنـا الأمـر هنـا. فكَّرنـا بيننـا وبـين أنفسنا، ما دمت أنا من هنا، وهو من الصرب، نستطيع أن... ولكن كما تعلم يـا "فلادان" ما يقوله الناس. متى تركت مكانك، لم يعد مكانك بعدها.

- هذا صحيح، أعلم ذلك.

- في النهاية الناس يسألون أنفسهم إذا كان من الأفضل أن يذهبوا إلى مكان لا يعرفهم فيه أحد، بالضبط كما فعلتم. مَن يدري؟ إذا كان من الأفضل بالنسبة لنا نحن الاثنين لو أننا ذهبنا إلى الدنمارك؛ لكي نلحق بـ"فاهيرا"، و"زلاتان". الجـو بارد هناك. لا يحتمل.

- الأمر صعب في كل مكان.

- نعم. أنت تعرف أفضل مِنِّي. لا يمكـن أن تتـذاكى بعجرفـة عنـدما يتعلَّـق الأمـر بهـذه الأشـياء. بمعنـى... سـألت أبـاك مليـون مـرَّة أي شر أحـاط بـه "توميسلاف"، لكي ينتهي به الأمر في هذه المدينة دون غيرها؟

- بماذا أجابكِ؟

- ماذا سيقول هذا المسكين؟ لقد قال لي: "مديحة، عزيزتي، تعرفين كم أعاني، فأخبريني هل كنت سأصبح أيسر حالًا في أي مكان آخر في هذه الدنيا؟". قلت له: "نعم، بالتأكيد. بؤسك سيتبعك في أي مكان ستذهب إليه، وهذا المكان مثل أي مكان آخر لتعيش فيه تعيسًا". ولكن... عندما رحل، لم يُودِّعني.

- أليس لديكِ أي فكرة أين ذهب؟

- ليس لديَّ أي فكرة يا "فلادو"، وإلا كنت أخبرتك. قال لي إنه سيرحل ويلحق بك في سلوفينيا، ولكن ليس لديه الأوراق الصحيحة، وإنه منتظر حتى تصل إليه من "سراييفو". مَن يدري، ربما حصل عليها، ولذلك رحل؟ ولكن من المفروض أن يخبرني إذا سافر إلى سلوفينيا، فهو يعرف أن لي ابن عمٍّ هناك.

- هل تصادف وكلَّمكِ عن أُمِّي؟

- عن أُمِّه "آجنيس"، وعنك، وعن أخيك "زوران"، وأختك "ميلينا"، وعن أسرتكم التي تركتموها في الهرسك، و"سوبتيتسا". كان يأتيني كثيرًا بعد الظهر يشرب قهوة، ويظل مدة طويلة. كان يتكلَّم كثيرًا. أحسستُ بأنه يشعر بالراحة عندما يتكلم، فكنت أتركه ولا أقاطعه. حتى إنه أحيانًا كان يظل لوقت متأخر فكنت أعتقد... أنت تعلم، الناس يتخيلون أشياء. كان يحب أن يتكلَّم عنكم جميعًا، ولكن بالأخصِّ أنت. ربما لأنه يعرف أنك الوحيد الذي نجوت.

ذكَّرتني "مديحة" كيف ورثت خيالي الواسع. لقد حكى "توميسلاف زدرافكوفيتش" قصصه بخيال واسع وبدقَّة؛ لأنها لن تضره شيئًا لو صدقها. ألِّف كذبتك الكامنة في بالك، فستلف وتغلف الحقيقة التي لا يمكن

احتمالها، التي سوف تحميك فيما بعد من الإحساس بالـذنب أو أي شيء يعـذبك. وهذا مـن شـأنه أن يـفسر أشـياء كثـيرة عـن "توميسـلاف زدرافكـوفيتش"، وعـن "نيدلكو بروجيفيتش" أيضًا. على الرغم من أنني لا أعرف شيئًا عن تقنية الحفـاظ على الذات التي تُعلم في الجيش اليوغوسلافي. كنت أعلم جيِّدًا أنه لا وجود لقرية "فيستنجيتشي" في حياة "توميسلاف".

- سمعت كل القصـص التـي حكاهـا عنـك، كيـف أخـذك إلى "بـاولا"، وإلى شاطئ البحر، وكيف كان يشتري لك اللعب من البـائع الغجـري. يـا للمسـكين! لقد كان حزينًا جدًّا من أجلك يـا "فـلادان" يـا ولـدي. لسـت أدري أذلـك لأنـك الوحيد المتبقي؟ بل أحيانًا لا يذكر أحدًا مـن بـاقي الأسرة. فـدائمًا يفعـل ولـدي "فلادان" كذا، ويقوم بكذا... أعتقد أنه تألم كثيرًا لأنه تركك تغادر "سراييفو" مـن دونه، ولم يغادر بعدك. ولكن كما قال، آنذاك، مَن يـدري مـاذا سـيحدث؟ نعـم حقًّا. حتى لو سألني لقلت له ربما سـيحكم "ميلوسـفيتش" أطـول مـن "تيتـو"، ولكنه لن يحولنا ضد بعضنا بعضًا.

- كلنا اعتقدنا ذلك، ولكن ماذا بوسعنا أن نفعل؟

- على أي حال، أتريد أن ترى شقَّته؟



تشـبه شـقَّة "توميسـلاف زدرافكـوفيتش" - حـارس الحـدائق ذاك المتقاعد من "سراييفو"، وقد انتقل إلى هنا مع أسرته من "فوكوفار"، قبل الحرب مباشرة - شقَّة "مديحة بابتش". الاخـتلاف الـرئيسي هـو الشـعور بالمكان. جو لسجن ممل يسبح في الهواء، كغاز يـتسرب. ربمـا كـان ذلـك بسبب الموقد الصدئ المتروك على أرضية المطـبخ، وطبـق أحمـر بجـواره

موجود منذ ثلاث سنوات. وربما بسبب كومة الجرائد المصفرة في ركـن في غرفـة المعيشة؛ غرفة بلا تليفزيون، أو راديو، أو خزانة كتب خشـبية مملـوءة بـالأواني الخـزف أو الصـيني. وربمـا بسـبب عـدم وجـود سـتائر، أو مفـرش عـلى طاولـة السفرة، أو مزهريات في غرفة الجلوس، فقط علبتان فارغتان للسـجائر وطفايـة سجائر صـغيرة. بعـض القمصـان المُهترئـة في الـدولاب المفتـوح في غرفـة النـوم، وبنطلون جينـز ملقـى عـلى الأرض بجـواره. غرفـة المعيشـة مفروشـة بسـجادة خضراء مبقعة. وبالحمَّام ستارة دُشّ صفراء بالية. كانت من نوعية المكان الـذي يسكنه رجل عادي مضطر.

تساءلت ربمـا رأى "توميسـلاف" هـذا المكـان كزنزانـة سـجن فجعلـه هـذا لا يكترث بالاهتمام به. ربما اعتقدَ أنه بـالعيش في هـذا المكـان العفـن، الـذي يبـدو كسكن لموظف بلدية متقاعد، يدفع دينًا عليه للمجتمع، والإبقاء على هذا الوضع السيئ هو نوع من جلد الذات. أو أنه مجـرد ابـن عـاهرة بـائس لم يلحـظ هـذه الفوضى وهذا الصدأ الذي يعيش فيـه. أيًّـا كـان، لا نسـتطيع أن نَـدَّعِي أن قضـاء الوقت في شقَّة من غرفتين ونصف يعادل الحبس الانفرادي.

أفقت من سُباتي الغريب، وتحركت مأخوذًا في هذا المكان المفترض أن يكون شــقَّة، مــوغلًا في قصــة "توميســلاف زدرافكــوفيتش". منظــر مفــاجئ؛ ألغــاز "سودوكو"، مقطوعـة مـن ورقـة صـحيفة ومحلولـة بقلـم رصـاص ملقـاة عـلى الأرضية بجوار الكومودينـو. ذكَّرتنـي أسـتيكة ملقـاة عـلى الطاولـة أن "نيـدلكو بوروجيفيتش" كان يحل مسائل رياضية في صحيفة "صـوت إسـتريا"، مسـتخدمًا قلمًا من الرصاص وأستيكة. أحيانًا كان يسـتغرق كـل فـترة مـا بعـد الظهـر، ولا يسمع من شدة انهماكه صياح "دوشا" في المطبخ إذا أراد أن يأكل ما تبقـى مـن وجبة الغداء.

- لا أعتقد أنني جئت إلى هنا منذ رحيله، رأيت الناس يأتون مرَّات عدَّة ويأخذون أشياء، ولكن ماذا أفعل؟ الآن لا أتذكَّر حتى ماذا كان هنا، ولكنها كانت دائمًا هكذا... خالية. كان لديه بعض الكتب، وأهديته ذات مرَّة نباتًا في أصيص. علمت أن لديه لوحة رسم. أظن أنها كانت معلقة أعلى كرسي بذراعين. قال إنه اشتراها من كشك بجوار سوق الخضار، وإنه أحب الرسام الشاب، وكان يظن أنه يفاصل بشكل جيد، على حد قوله.

بينما كانت "مديحة" تبذل جهدًا لكي تتذكَّر بصوت عالٍ ذكرياتها مع الجار السابق، رحت أقلب بلا تركيز في ألغاز "السودوكو" القديمة. كلها محلولة، والأرقام دقيقة، وجميلة، كشفت عن رجل دقيق، يتناقض تمامًا مع حالة شقَّته. يبدو أنه كرَّس معظم وقته لحل "السودوكو" عن أي شيء آخر في حياته. لو حكمت من خلال عدد الألغاز لقلت إن "توميسلاف زدرافكوفيتش" لم يكن مؤهلًا لأي شيء آخر في فترته في "برتشكو".

- اعتاد والدك أن يقول إنه يحب "برتشكو" أكثر من خلال النافذة، من بعيد.

وقفت "مديحة" بجانب النافذة، وأخذت تتفحَّص الشارع في الأسفل، بشكل فضولي عنيد، لذلك لم تلحظ تأثير كلماتها المذهلة عليَّ. لم أدرِ أي وجه منها كان أكثر تأثيرًا. فقد أشارت إلى "توميسلاف زدرافكوفيتش" بأنه أبي، وأن "توميسلاف زدرافكوفيتش" نفسه لديه نظرية جمالية عن مدن البوسنة كما لديَّ. تفكير تافه بلا شك، فهذا يحدث لكل واحد، ولكن على الرغم من ذلك، كشفت عن رابط سرِّي بيننا آثرت أن يظل غامضًا.

كي أهدئ نفسي، نظرت مرَّة أخرى لألغاز "السودوكو"، الشيء غير المألوف بالنسبة لي من ألعاب التسلية، حيث لم نتفق أنا والرياضيات

إطلاقًا. عندما يتعلَّق الأمر بالأرقام، فأنا ابن "دوشا"، إنها تفشل في أبسط مسألة ضرب.

- ها هي "يلينا" ذاهبة إلى سوق الخضار، وكنت على وشك أن أذهب إليها لأطلب منها أن تحضر لي معها بعض الخيار... ماذا أردت غير ذلك... جزر... بقدونس، وبطاطس... لا أستطيع التذكر. يجب أن أتحقق، لقد توقَّف عقلي. أعتقد أن هذا كل ما يخص الشوربة. أما عن رقائق العجين، فسأطلبها منها غدًا. هذا صحيح، عندما أذهب كي أرى "ندى" الليلة، سأتوقف بجوار بيتها و...

أخذت "مديحة" المرأة العجوز الوحيدة تستطرد في حديثها مع نفسها، بينما واصلت تحديقي في ورقة وجدتها بالصدفة مطوية بين ألغاز "السودوكو". ربما كانت مخبأة عن عمد بعيدًا عن أعين الجواسيس.

كانت خطابًا موجهًا إلى "حبيبتي"، خط "توميسلاف زدرافكوفيتش" يشبه تمامًا خط "نيدلكو بوروجيفيتش"، وما أثار اشمئزازي أن أُفَكِّر في أن "حبيبتي" تعني "دوشا تشيرتش" الحالية، أو "مدام بوروجيفيتش" سابقًا، أو الآنسة "بودلجار" فيما قبل. فكرة أنّ "نيدلكو" يرى "دوشا" حبيبته بعد موته رسميًّا بهذه السنوات العديدة تبدو سخيفة بالنسبة لي، على الرغم من أنني لا أعرف لماذا.

ولكن ما يدعو إلى الغرابة أن الفكرة راقت لي أيضًا، تلك الفكرة المروعة عن نار المحبة الأبدية المشتعلة بين مجرم حرب هارب ومديرة الموارد البشرية في مجمع طبي في "ليوبليانا". الهدف الأفضل لهذا الخطاب من الأرجح أن يكون لحبيبة غير أُمِّي. بأسلوبي غير الطبيعي، شعرت بارتياح عندما بدأت في قراءة الخطاب، وقد جلست على سرير "توميسلاف

زدرافكوفيتش"، ممسكًا إياه بيد مرتعشة، الخطاب الذي كتبه إلى "دوشا" منذ ثلاث سنوات.

"حبيبتي. يجب على "ج" أن يغادر فورًا، لذلك فكَّرت أن أكتب إليكِ بعض الأشياء. الطريقة التي تجري بها الأمور، لن أبقى هنا بعد الآن. الأمور تستمر في التغيير، وأخبروني بأن أتحرك، نوع من الحذر فقط. حتى نرى كيف ستسير الأمور. قال "لوزا" إن هناك أطفالًا جددًا قادمون، ولا يدرون لِمَن ينتمون. لا أدري كيف ستكون الظروف في مكان آخر، ومتى سأكون قادرًا على التواصل مرَّة أخرى. ولكنني سأتصل، صدِّقيني. أتمنَّى أن تكونوا جميعًا بخير، أنتِ و"ف". غادرت المنزل الليلة الماضية وذهبت إلى سوق الخضار، ومتجر. أُصبت بنزلة برد لأيام عديدة، ولكنني تناولت أقراصًا لجهاز المناعة، وتحسنت الآن. فلا تقلقي. لم أعد أحس باحتقان في الحلق، أنا بخير. قرأت في الجرائد أن الأسعار ارتفعت عندكم منذ أن تم التعامل باليورو. سيكون الوضع هنا مشابهًا لو تعاملوا باليورو. الأسعار هنا مرتفعة حتى من دون يورو، ولكنني بخير حتى الآن. لقد قرأت أيضًا عن "بويان كريجاي". يقال إنه يعمل في اليابان".

إما أن "توميسلاف زدرافكوفيتش" وجد أن هناك أهمية للحديث عن "بويان كريجاي" واليابان لينهي الخطاب، أو الأرجح أنه لا يريد أن ينهيه. لم يكن "نيدلكو بوروجيفيتش" رجلًا مثقفًا بوجه خاص، والأسلوب الذي كتب به "توميسلاف زدرافكوفيتش" الخطابات كان كافيًا أن يؤثر فيَّ. ولكن في هذه اللحظة، لم أستطع أن أعيره أدنى اهتمام. لقد

كنت مشغولًا بشيء آخر في الخطاب. علاوة على اسم "كريجاي"، لاعب التزلج الشهير، واسمي، وأُمِّي "الحبيبة"، كان هناك اسم آخر مذكور في الخطاب، شخص يجب أن تعرفه أُمِّي. وقفت، وعيناي لا تزالان مركزتين على الخطاب الذي لم ينتهِ بعد، كما لو أن كلمات أخرى ستقفز إذا حدَّقت في الخطاب بقوة.

- هل وجدت شيئًا مثيرًا للاهتمام؟

- لا أدري.

- لم يتبقَ شيء يا عزيزي "فلادو"، لقد أزالوا كل شيء. الجشعون. إنه أمر غريب ما حدث هنا. إنه... كيف أقولها... معتوه.

- هل لديكِ دليل تليفون؟

ليس لدى "مديحة" دليل تليفون. وغير مفيد أن أسألها عن كمبيوتر متصل بالإنترنت. شكرتها على كل شيء، ووعدتها بمعاودة الاتصال لو أنني وجدت "توميسلاف". كتبت رقم تليفونها في قصاصة ورق ووضعتها في يدي. وقفت على الباب وهي تراقب نزولي على السُّلَّم.

عندما مررت بشقَّة "فاسا دوردتش" الذي لم يزل يثير فضولي، نظرت خلفي إلى "مديحة"، التي ابتسمت ولوحت بلطف كالخالات والعمَّات اللاتي يشعرن بالامتنان لزيارة أبناء وبنات أخواتهن وإخوتها، في زيارة عابرة. رددت بابتسامة ابن الأخ أو الأخت الذي يعرف جيِّدًا أنه لن يرى عمَّته أو خالته مرَّة أخرى.



لو أنك ألقيت نظرة إلى مدينة مثل "برتشكو"، من المستحيل أن تعرف إذا كان فيها "إنترنت كافيه" أم لا. لكنني لو أوقفت رجلًا من المارة بشكل عشوائي فسينتهي أمري من المؤكد عاجلًا أم آجلًا في قسم الشرطة. لذلك يجب أن أتحرَّى هدفي، وأبحث عن شباب في أزياء حديثة، لا يبدو عليهم أنهم خرجوا للتَّوِّ من فيلم أبيض وأسود.

مَن سألتهم في البداية هزوا أكتافهم، ولكن بعضهم توقَّف وأشار إلى اتجاهات متنافرة، لدرجة أن شخصًا سألني:

- كيف فكَّرت في اختيار مدينة مثل "برتشكو" لتتصفح فيها الإنترنت؟

في النهاية، تذكَّرت فتاة لطيفة بشعر أحمر تعرف شخصًا افتتح محلًا لهذا الغرض. أرشدتني إلى رجل عابس الوجه، ووجدتني أمام محل مكتوب عليه باعتزاز "أول إنترنت كافيه في برتشكو".

- لأي غرض تريد الإنترنت؟

لم أفهم السؤال، ولكن لحُسن الحظِّ أدرك الرجل أنه يتعامل مع إنسان غريب فأردف:

- هذا الكمبيوتر مزود بكاميرا، ولكن مفاتيحه متعبة، فحروف الميم واللام والكاف ضائعة تمامًا، ولكن إذا كنت تريد أن تكتب إيميلًا فذلك الجهاز الذي هناك أفضل.

- أريد فقط أن أتصفَّح شيئًا على الإنترنت.

- إذًا اجلس حيث تحب، فكل "الماوس" الموجود بحالة جيدة لأنها جديدة.

جلست إلى الكمبيوتر الذي من دون كاميرا. نقرت على الأيقونة وكتبت على المتصفح اسم "لوزا".

6



قال أبي لأُمِّي بعد أن انتظرنا لمدة خمس عشرة دقيقة في مكتب الاستقبال بفندق "بريستول" ببلجراد:

- لا تقلقي، سوف يهتم "لوزا" بالأمر.

لأننا عندما وصلنا لم يعرف أحد مَن هو أبي، أو مَن نستدعي ليرتب إقامتنا. أخيرًا سمع موظفو الفندق الغافلون شيئًا ما من شخص؛ إنها التعليمات الخاصة بأسر الضباط بأن يقيموا في الطابق الثالث، ولكن لم يفعل أحد شيئًا حيال ذلك. ولربما كانت حيرتهم بنية صافية؛ لم يكن أحد في عجلة لخدمة جيش دولة على وشك التفكك. لم نكن الأسرة الوحيدة هناك، بل هناك عائلات أخرى في انتظار حسن نية موظفي الاستقبال. ما جعل الموقف أسوأ هو الإدراك، من جميع الأطراف، بأن الموقف الحالي استثنائي من الأوجه كافة، ونداء الواجب هذا يختلف عن كل النداءات السابقة.

- عادة لا تحدث مثل هذه الأشياء بين يوم وليلة.

هكذا تمتمت سيدة ذات شعر مموج وأنيق، زوجة عقيد من "زادار"، من المؤكد طوله يبلغ مترين. أثناء ذلك، أضافت ابنة عقيد من "كارلوفاتش" نحيفة ذات وجه شاحب كم هو غريب أن تؤمر أسرة أيضًا للتحرك على الفور. وأضافت السيدة ذات الشعر المموج:

- عادة ما تكون هناك شقق في شارع عريض تكتنفه الأشجار في انتظارنا.

ورفعت صوتها قائلة:

- عادة ما يعاملنا عُمَّال الفندق باحترام أكثر.

آملة أن يسمعها أحد من السادة الحاليين الذين في يدهم مصيرنا. لكن يبدو أنهم أعضاء من هذا الجيل الغريب، فتصرفوا بناء على ذلك.

أخذ أبي - والذي كان توتره واضحًا والمنعزل عن الآخرين - يمشي ذهابًا وإيابًا، وأحيانًا يوسع الخطوة أمام أُمِّي وأمامي ويعيد رد الفعل نفسه للموقف بقوله:

- لا تقلقي، سيهتم "لوزا" بكل شيء.

كان ذلك لقب والديَّ على "أمير"، الكابتن "موزيروفيتش"، الذي ترقى في غضون ذلك إلى رتبة عقيد. كان يُطلق عليه "لوزا"؛ بسبب هذا الكم الذي يشربه من شنابز العنب ماركة "لوزافاتش" بسبب قلبه المحطم. لم يكن متزوجًا، وليس لديه أطفال، وحياته موهوبة للجيش الشعبي اليوغوسلافي، والسبب الوحيد لعدم ترقيته لرتبة جنرال هو أن رؤساءه كانوا يخافونه.

كان العم "أمير" أطول من أبي بنصف شبر تقريبًا، له أعرض كتفين في البلقان. عندما كان يتمشى في "باولا"، وهو مكتئب، كان الناس يتجهون إلى الجهة الأخرى من الشارع ليصبحوا في مأمن. وإذا جاء لزيارتنا، كان الأطفال

الذين يتسكَّعون أمام العمارة يلتزمون الصمت وينتظرون حتى يدخل. أما في شقَّتنا فكان يجلس دائمًا على الكرسي ذاته، الرابع حول طاولة السفرة، لـذلك كـان يُـدعى "العم الطيب". بعد شرب بعض من كاسات "براندي بلوم"، كان يقنع والدي ليغني معه أغنية "هذه أغنيته". لا أسـتطيع تـذكر أي الزيـارات لم تتَّسـم بـالأداء المشـترك للعقيد "بوروجيفيتش" والعقيـد "مـوزيروفيتش"؛ وهـما يغنيـان وأذرعـتهما حـول أكتاف بعضهما بعضًا.

كان "أمير" الوحيد الـذي يعـرف الحقيقـة. بعـد هـذه السـنين، لم يـبُح لأي شخص، ظل منطويًا وغامضًا، حتـى مـع أبي. تغاضـت "دوشـا"، التـي لا تتحمـل المنطويين، عن هذه الصفة فقط له لأنه يحـب زوجهـا جـدًّا. وكـان في لحظـات الإفراط في السُّكْر يحب أن يقول إن "نيدلكو بـوروجيفيتش"، وزوجتـه الجميلـة "دوشا"، وابنه العزيز "فلادان" هـم فعـلًا أسرتـه الحقيقيـة، وعـلى اسـتعداد أن يفعل من أجلها ما لا يمكن أن يفعله لأخيـه، لـو كـان لا يـزال لـه أخ. لم نعـرف إطلاقًا أنا وأُمِّي ما الذي فعلـه أبي ليجعـل هـذا الرجـل الغـامض يحبنـا هكـذا، ويزورنا دائمًا، ويشرب شنابز، ويغني أغاني رومانسية حتى السـاعات الأولى مـن الصباح. كل ما عرفته أن أُمِّي في النهاية تعبت من زياراته.



- لا تقلقي، "لوزا" سيقوم بـ ...

بـــدأ أبي يردده‍ــا للمـــرَّة الثالثـــة، ولكـــن أُمِّـــي قاطعتـــه بنظـــرة يمكـــن أن تُسَـــمِّره مكانـــه، وتنـــذر بعواقـــب وخيمـــة. عندئـــذٍ صـــار الاحـــتمال الأرجـــح أن "لـــوزا" لـــن يهـــتم بـــأي شيء، كـــان الموقـــف أكـــبر مـــن سُـــلطته الهائلـــة، أشـــد

خطورة من الوقت الذي كان يتدخل فيه حتى أننا لا نستطيع التحـرك أيضًـا إلى "بيتولا". لم أعرف مُطلقًا إذا كان أبي يصدق كلماته، ويثق في مساعدة "لـوزا" أم لا، ولكنني لا أعتقد أن أبي بهذه السذاجة ليصدق دائمًا مـا يخـبره بـه رؤسـاؤه. يحب أن ينتظر الأوامر، ويتصرف بنـاءً عليهـا، دون تفكـير، لأن هـذا مـا أنشـأه النظام عليه، والعقيد "بوروجيفيتش" الممنون يحترم ذلك، ويسلم بكل ما يُـؤمر به. لم يكن هناك ما يدعو لتصديق "لوزا" في حد ذاته، ولكـن سـيكون كـل شيء على ما يُرام لأنه لا شيء يخالف ذلك في عالم الضبط والربط هـذا. لـو أنـه كـان قلقًا من شيء، فهو من وجودي ووجود أُمِّي الأقل انضباطًا، وخوفه الصامت من كيف نتعامل مع هذا التغيير السريع والمهم.

كنا لا نزال نجلس في بهو الفندق المُـزدحم، عنـدما وقفـت عربـة عسـكرية أمـام الفنـدق، وأعلـم جنـدي صـغير الضـباط "بـوروجيفيتش"، و"لوكوفـاك"، و"مـاركوفيتش"، و"جـرابيتش" أن توصـيلهم للثكنـات قـد حـان، فاشـتكى "ماركوفيتش" بأنه من الأنسب لضـباط الجـيش اليوغوسلافي أن ينتظـروا حتـى يتم تسكين أسرهم في الفندق، بينما توجه كل من "جـرابيتش"، و"لوكوفـاك" إلى العربة على الفور. وقف أبي وراح يشير إلى القدير "لوزا" مرَّة ثالثة، وحضن أُمِّي وهمس:

- كل شيء سيكون على ما يُرام.

ولكن كل ما أجابت به ببرود وابتسامة مصطنعة:

- عليكم اللعنة جميعًا.



لذا ظللنا أنا وأُمِّي في فندق "بريستول". عادت إلى عالمها الـداخلي المنعـزل، أما أنا فكنت مثارًا بسبب وجودي، في يونيو 1991، في فندق في بلجراد بدلًا من الشاطئ في "بـاولا". اعتـدت أن أقضي كـل عطـلاتي الصـيفية في شـقَّتنا القديمـة المُملَّـة، وكنـت أحسـد في كـل صـيف كـل السـائحين الـذين يملـؤون الفنـادق، ويسبحون في أحواض السباحة في الفندق بينما نحن أطفال البلدة لا يُسمح لنـا بذلك. بالنسبة لي، غرفة فندق بتليفزيون كبير جديد تشاهده وأنـت في السريـر كأنه حديقة ترفيهية. كنت معجبًا بالسجاد، والحمَّامـات الواسـعة دون أن تـرى سخانات، أو أكوام من الغسيل، ومواسير الـدُش بـدلًا مـن البـانيو، والبلكونـات، والكراسي المزخرفة، وطاولات القهوة. لقد فقدت لحظات طفولتي التـي تمنَّيـت فيها لنا نحن الثلاثة أن نذهب إلى فندق أكـثر مـن أي شيء آخـر، غرفـة فنـدق كبيرة ونظيفة، ونسبح في حمَّام سباحة مغلق في فندق "بريوني" طوال الأسـبوع، بدلًا من الإصرار على الذهاب إلى الشاطئ أسفل المنارة، نفرط في تنـاول الطعـام في بوفيه الصباح، كانت لعبة جميلة حقًا. لم يكـن في فنـدق "بريسـتول" حـمَّام سباحة مغلق، والغرفة التي سكناها أنا وأُمِّي أخيرًا لم تكن كما في الإعـلان الـذي جذب السائحين من كل أنحاء العـالم إلى "بـاولا". حتـى إن أكـثر شـقق الصـيف تواضعًا هناك، تلك التي أراهـا في طريقـي إلى الشـاطئ، أروع مـن غرفتنـا رقـم 211. تحتوي هذه الغرفة على سريرين ملصقين بالجدار، عليهما بطاطين صـوف رمادية، وتليفزيون صغير، وحمَّام صغير جـدًّا مهمـل، وبـاب شـهد أيامًـا أفضـل قديمًا يحك في الأرضية، وجدران كان مـن الممكـن أن تأخـذ طبقـة جديـدة مـن الدهان.

منطقي أن أُمِّي لم ترتاح ببقائها كثيراً في هذه الغرفة الخانقة، وأنا لم أشعر بالرغبة في التجوال في بلجراد. لذا تركتني في الغرفة وخرجت لتشم الهواء، فمكثت أطول ليلة في حياتي، جالسًا على حافة السرير، أقلب بين ثلاثة برامج، بحثًا عن الكرتون، ثم قرَّرت أن أشاهد الأخبار لتكون أفضل الخيارات المتاحة.



في صباح اليوم التالي، وافقت أن أخرج في جولة في المدينة مع أُمِّي من أثر الملل. تمشينا في صمت من شارع ممل إلى آخر يشبهه تمامًا، مارِّين بمنازل بلجراد الضبابية، ثم حديقة باهتة الخضرة، ثم تمشَّينا لوقت أطول في طريق جانبي لشارع كبير يسير فيه الترام. لم أسأل أين نحن، ولم أهتم بذلك. بعد أكثر من ساعة، توقَّفت أُمِّي أخيراً أمام عمارة شعبية بالطوب الأحمر، وصعدت درجات المدخل. نظرت في أسماء الصناديق البريدية، وفي النهاية وجدت "ملادونيفيتش"، ثم ابتعدت، وتراجعت إلى الخلف، وهي مترددة. ولكن لما رأت ولدًا وبنتًا يقتربان من المدخل، انتفضت كأنما سرى في جسدها تيار كهربائي، وأسرعت إلى الشارع وتجاوزتهما، دون أن تنظر حتى لترى إذا كنت أتبعها أم لا.

واصلنا سيرنا بلا هدف، وقالت لي في هدوء إن صديقتها "جوكا"، التي زارتها ذات مرَّة بعد المدرسة الثانوية، تسكن في هذه العمارة بجوار شارع عريض يُسَمَّى "البوليفارد". كانت "جوكا ملادونيفيتش" زميلتها في المدرسة الثانوية في "ليوبليانا"، وانتقلت مع والديها إلى بلجراد. والآن تخمن بأن أم "جوكا" - التي كانت تعرفها باسم العمَّة "زدينكا"، والتي

كانت تُعرف في "ليوبليانا" بأنها السيدة المشهورة من بلجراد - تسكن هناك. فربما تزوجت "جوكا" وغيرت اسم العائلة. كانت أُمِّي تستطرد دون أي محاولة جادة لتجعلني أفهم.

عندئذ اعترفت بأنني تعبت، فعدنا إلى الفندق. بعد الغداء، خرجت للتمشية مرَّة ثانية، وظللتُ وحدي في الغرفة حتى المساء، ثم عادت، وأخذت دُشًّا، وتمدَّدت على السرير في صمت. أخيرًا، نامت. حتى في ذلك الوقت فكَّرت أنها تتعمد أن تستنزف نفسها. برغم أن مظهرها الخارجي ينم عن امرأة قوية، وحاسمة، وتتَّسم بعناد "بودلجار"، فهي في الحقيقة حساسة وسريعة التأثر. فكلمة واحدة غير مناسبة من أبي تجعلها لا تنام طوال الليل.



استمرت على عُزلتها لأيام عديدة، وبعد وقت قصير، لم تعد توقظني عندما تترك الغرفة. أحيانًا تعود على الغداء، وأحيانًا تظل حتى يفوتها العشاء، ولكن من الواضح أن "دوشا" لم تستطع، بل لا ترغب في أن تعيش في فندق "بريستول" في بلجراد. ظل أبي يتَّصل بنا كل يوم في الأيام القليلة الأولى. كان يشبه مذيع الراديو، يلقي بأسئلته ماذا نأكل، وهل أُمِّي تأخذني للحدائق، وقلعة "كالمجدان"، وجبال "أفالان" وأسماء الشوارع التي أعرفها من لعبة بنك الحظ، لا من الواقع. أصبحت أسئلته تزداد غباء كل يوم. كنت أخشى في النهاية أن يتحدث معي كرضيع صغير. لم يكن هذا الأمر ببعيد؛ فقد سألني: "هل سألت عن بابا؟". كان يتحدث مع أُمِّي لمدة أطول، لم أستطع أن أعرف ما يتحدثان فيه بالاستماع فقط إلى أُمِّي،

غير أنه لم يكن بهذا الغباء معها. تجلس أُمِّي أحيانًا لمدة خمس عشرة دقيقة، على حافة السرير، ممسكة بالسماعة على أذنها، منصتة للصوت في الطرف الآخر، تهمس أحيانًا بـ"نعم" أو "لا"، ولكن في الغالب تهز رأسها فقط. تغلق عينيها، تتنهَّد، صار هذا رد فعلها عندما لا يعجبها ما يقوله أبي. مع كل ما يحدث، لم يكن أمامي خيار سوى أن أدمج قدرة أُمِّي على عزل نفسها وخيال أبي الواسع، مبتكرًا عالمًا خياليًّا في رأسي الموحش، والمرتبك بسجن الفندق؛ عالم من كُرة القدم، في مُخيِّلتي. اخترعت بطولة كُرة قدم مفصلة، بالنوادي واللاعبين، والحكام، ولعبت مباراة بعد أخرى بكُرة مطاطية وجدتها، وجعلت من باب غرفة الفندق المرمى. مررت الكُرة لنفسي، وتغلبت على المدافعين غير المرئيين، وعلقت على اللعب بنفسي، بأسلوب المُعَلِّق الذي أُفضِّله. حتى إنني قلَّدت هتاف الجمهور، وقمت بتقديم الإعادة البطيئة، وأعطيت بيانات ما بعد المباراة لوسائل الإعلام غير الموجودة من الأساس. للترفيه عن نفسي واستنزاف طاقتي المكبوتة، نظمت، من أصغر التفاصيل، مسار نادي "باولا" الذي اخترعته وسميته "باتيناجيو"، حتى قمة الاتحاد اليوغوسلافي. ألفت السير الذاتية للاعبي النوادي النجوم، بجانب صفاتهم الشخصية. من بين أفضل اللاعبين، على سبيل المثال "ألين دينو"، في الثانية والعشرين، من "روفينج"، أمل يوغوسلافيا، بل والعالم كله في كُرة القدم. سريع لا يمكن إيقافه إذا انفرد، له قدم يُسرى قاتلة، عندما أعلم المُعَلِّق مشاهدي تليفزيون "فلادان" بأن الكُرة المطاطية وصلت إلى "دينو"، تحولتُ إليه، ورقَّصْتُ لاعبًا، واثنين، وثلاثة وسددتُ الركلات في باب غرفة الفندق. لو أنني سددت في حافة الباب السفلي لجن جنون المُعَلِّق، وهبَّ الجمهور واقفًا على قدميه. أخذت

أجري حول الغرفة 211، رافعًا يدي إلى أعلى، محتفيًا بهدفه الثالث عشر في عشر مباريات. لعبت ثلاث أو أربع مباريات يوميًّا، ثم استلقيت على ظهري على السرير، ألهث وأتصبَّب عرقًا، عابرًا بسرعة على تعليقات وتحليلات النتائج، معلنًا عن المباريات القادمة، تحدثت عن اللاعبين الجُدد، واخترت المنتخب اليوغوسلافي، وحلَّلت الانتقالات المحتملة.

عشنا أنا وأُمِّي في تلك الفترة في بلجراد في عالمين موازيين. أنا في عالم كُرة القدم، وهي في عالم السياحة. كان لها عالمها خارج نافذتها، وأنا لي عالمي من داخل نافذتي، لم أعد أسألها أين تذهب كل صباح أو بِمَن تلتقي، ولا هي تسألني عمَّا أفعله طوال اليوم بين جدران الغرفة. أعرف أنها لم تردني أن أركل الكُرة في الغرفة، فربما أكسر مصباح الطاولة. لم تدعني على الإطلاق أن ألعب في شقَّتنا في "باولا"، ومتى ازداد صخبي، أخرجتني إلى الحديقة الخلفية، وهذا هو علاجها لنشاطي المفرط. ولكن في يوم، عادت أُمِّي من جولتها في المدينة بعد الظهر مباشرة، عندما كان "مارتيني"، شريك "دينو" في الهجوم، وجد نفسه في فرصة ذهبية لتسجيل هدف فاصل في مباراة مثيرة ضد "فوتشكو" من "سراييفو". في ذروة المباراة، رميت بنفسي وراء الكُرة المطاطية، في محاولة إنقاذ يائسة بصفتي حارس مرمى مُعارضًا، منقذًا الفريق البوسني الزائر من هزيمة منكرة. لذلك عندما انفتح باب الغرفة 211، كنت مستلقيًا، ألهث، ووجهي محمر، على الأرض بجوار السرير. شعري ملتصق بجبيني، تتساقط حبَّات العرق على حواجبي، وتنتشر بقع العرق حول إبطيَّ. لم تكن هناك لحظة أسوأ من ذلك لتدخل عليَّ فيها. لكنها اختارت ألا تنتبه. تحوَّل خوفي من أن

تفقد أعصابها بسبب الضجة التي أقوم بها إلى خوف بأنني لم يعد لـديَّ وجـود وأنني أصبحت الآن غير مرئي بالنسبة لها.

شعرت فجأة، وأنا مستلقٍ على أرض الغرفة 211، بأنني ليس لي أب، ولا أم، ولا أصدقاء، ولا أحد ينتبه لي في الفندق، ولم يعد أحد في العـالم يهـتم بي. لـذلك ظللتُ مستلقيًا، منتظرًا حتى تخرج من الحمَّام، شعرت بـأنني غـير مرغـوب فيَّ، وحيدًا، فوعدت نفسي أن يكون فندق "بريستول" آخر فندق أحط فيه قدمي.



7



عندما أيقظني التليفون في الصباح، لم أستطع في البداية أن أتـذكَّر أيـن أنـا. تفحَّصت المكان من حولي، فلما رأيت التليفزيون على الطاولـة، عرفـت أننـي في غرفة فندق، وأنني في الليلة الماضية كسرت عهدًا لنفسي عمره سـتة عشر عامًـا. تناولت التليفون.

- أين أنت؟

إنها مكالمة من العالم الآخر؛ فالمسافة بيننا لا تقاس بالكيلو مترات فقـط. في صباح أحد الأيام، تركتُ "نادية" النائمة في عالم أحسستُ أنني لم أعد أنتمـي لـه. في مكان ما على الطريق، عبرت حدودًا غير مرئية، ودخلت حياة قديمة منسـية، ولم أعد متأكدًا إذا كنت "فلادان" الذي تريد "نادية" أن تسمع منه.

- في "غورازدة".

- أين؟

لم تكن مستعدة لتنطق بالسؤال المُعَلَّق بيننا عـمَّا أفعلـه بحـق الجحـيم في تلك المدينة التي لم تسمع عنها مُطلقًـا، ولا مسـتعدة لتسـمع الإجابـة. الإجابـة

التي لم أستطع النطق بها. بالأمس أدركت أنني لم أستطع أن أحمل نفسي على إخبارها بالقصص الملفقة، وكان واضحًا تمامًا أنني لا أمتلك شيئًا آخر أقدمه. القصة الوحيدة التي ليست مُلفَّقة، حياة وسنين "فلادان بوروجيفيتش"، فقد سُحقت وتناثرت، ولم يستطع المستمعون أن ينتبهوا لها. ليس في وسعي سوى الصمت.

بعد لحظات صمت مؤلمة، أغلقت "نادية" الخط. أدركت أنني حجبت نفسي عنها، بالطريقة المثيرة للشفقة نفسها التي حجبت بها "دوشا" نفسها عنِّي ذات مرَّة. تذكَّرت إحساسي بالسجادة المُتَّسخة تحت ظهري العرقان على أرضية الغرفة 211، وأنا أنتظر أُمِّي تخرج من الحمَّام لكي تراني، وأنا أبكي لآخر مرَّة أتذكَّرها في حياتي. في الغرفة الباردة في فندق "بحار" في "غورازدة"، شعرت بذعر صبي صغير وحيد، مطعون في ظهره بفكرة أن أُمَّه لم تعد تهتم به، وأنه وحيد في خضم مقاطعة شاسعة. أحسستُ أن "نادية" تبكي بالطريقة نفسها التي بكيت بها حينئذٍ، ألهث ووجهي محمر، والعرق على حواجبي، وشعري الملبَّد ملتصق بصدغيَّ.

وعندما خرجت أخيرًا "دوشا" من الحمَّام، لم تعانقني أو تهدهدني؛ لأنني كنت قد مسحت دموعي وأخفيتها عنها، كما أفعل دائمًا. لم أعاود الاتصال بـ"نادية" لنستأنف حديثنا، آملًا أن تكون في الجانب الآخر من خط التليفون الذى انقطع الاتصال به، تمسح دموعها وتخفيها عَنِّي.



فتحت التليفزيون، أثناء تصفُّحي للقنوات، توقَّفت عند قناة "بيه لينا"، مستمتعًا بحقيقة أن "بيه لينا" لها تليفزيون خاص بها، أو ربما

لأنني كنت شغوفًا بالبرامج المتاحة للمقيمين في هذه البلدة الصغيرة في الأراضي الصربية، أو ربما لأنها القناة الوحيدة غير المشغولة في ذلك الوقت بمجموعات الفولكلور أو مقاطع الموسيقى التي تحتوي على تسجيلات لصوت الشلالات. بفضل الأقدار الساخرة، تشرفت بأن أرى شيئًا ما كنت سأصدق أنه موجود، لولا أنني رأيته بعيني.

في قرية قريبة من "بيه لينا"، تجمع الأقارب، والأصدقاء، حتى القس لاستقبال بطل من أهل البلد، عائد بعد ثمانية أعوام مباشرة من المحكمة الدولية في "لاهاي"، حيث كان مقبوضًا عليه بتهمة ارتكاب جرائم حرب، أثبتها عليه المجتمع الدولي الشرير الفاسد، على الرغم من أن أقاربه أقسموا برحمة أمهاتهم على أنه لا يمكن أن يؤذي ذبابة، وأن حبيبهم "ميلان" معروف بأنه فاعل خير.

كان هذا - أو هكذا بدا الأمر - بداية تقليد جديد، يمكن إضافته لمناسبات الزواج والجنائز في القرية. ملأ القرويون الطاولات بأشهى المأكولات وزيَّنوها بالزهور من أجل "ميلان"، الذي كان صامتًا بما يلائم هذه المناسبة الخاصة. كان هناك صحفي متعاطف لم يوجه له أي أسئلة مزعجة، ولكنه تركه يستمتع بدفء وحفاوة الوطن الذي اشتاق إليه لمدة ثمانية أعوام في سجن هولندي بارد.

كان من الغريب مشاهدة هؤلاء الناس الذين لم يشكوا للحظة واحدة طوال هذه السنين في عزيزهم "ميلان"، وكانوا مقتنعين تمامًا بمؤامرة المحكمة الأجنبية، وقضاتها الهولنديين بباروكاتهم البيضاء ضده. لو أنهم عرفوا "ميلان" كما عرفه أصدقاؤه وجيرانه، وهو صبي صغير، لأيقنوا أنه لا يمكن أن يسرق تروسيكل، ناهيك عن ارتكاب جرائم حرب، مهما كان

يعني ذلك. لذلك أعاد كل قروي صياغة هذه العاطفة، كل بكلماتـه. في الوقـت نفسه قدموا أنفسهم متطوعين كضحايا، شـاركوا ذلـك بكـل إخـلاص معـي، أنـا المشاهد العابر لقناة "بيه لينا"، الألم الذي أصابهم ظلمًا وعدوانًا. حسدتهم فورًا على إيمانهم ببراءته، وثقتهم في هذا الرجل الـذي يجلـس بتواضـع وغمـوض، في ركن من أركان الغرفة، لا يتحرك إلا ببُطٍء ومن وقت لآخر، مختلسًا النظـرات في أرجاء الحجرة برعب. ما زال يتوقع انتهاء هذه الأجـواء الرسـمية ويكتشـف أن كل ذلك كان مجرد حلم. بدا هذا الشاب للوهلة الأولى مختلفًا تمامًا عن مجـرم الحرب، ولكنني في غرفة فندق في "غورازدة"، أثق في المدعين العموم الذين مـن "لاهاي" أكثر بكثير من الاحتجاجات المبهجة التي أطلقها العم "ييلا".

أصبحت حقيقة المكـان الـذي أبحـث فيـه عـن والـدي تتضـح بـبُطءٍ. فهـو محكوم بقوانين مختلفة، ومدروس بعقلية مختلفة. كان مـن الممكـن أن أتفهـم هنا "نيدلكو بوروجيفيتش"، و"توميسلاف زدرافكـوفيتش"، ولكـن لسـوء الحـظ أنتمي لعالم آخر غير الذي أشـاهده في التلفزيـون بشـك. عـالم أجـبرني أن أقنـع نفسي، أكثر وأكثر، أن ما أراه حقيقة، وليس مسرحية كوميدية سريالية.

في هذه اللحظة، وللمرَّة الأولى، شككت أنني قد أفهم ما حدث هنا، ولمـاذا. فالناس هنا يحتفلون بلا حياء بعودة مـتهم بجـرائم حـرب إلى قريتـه الأصـلية، أمرهم غريب ومفقود منهم الأمل. فبمشاركتهم لهذه اللحظات معي، كمشاهد لقناة "بيه لينا"، يثير خوفي مما قد ينم عنهم أكثر من ذلك، ما دامـوا يتفـاخرون بهذه اللحظات أمام العالم.

أغلقت التليفزيون قبل أن ينتهي البرنامج؛ لأنني لم أرغب في سماع موجز الأحداث الذي سيدلي به الصحفي للمشاهدين، فقد تجرَّعت من السم ما فيه الكفاية، وأمامي يوم مكتظ بالعمل.



قال موظف الاستقبال في فندق "بحار" ببساطة وطيبة:

- ما الذي تبحث عنه يا فتى؟

ثم سألني إذا كان ديسكو "توريست" ما زال موجودًا في "ليوبليانا" أم لا. فجأة تحوَّل الكرم الإنساني إلى حنين متدفق، فقال:

- لقد أديت خدمتي العسكرية في "ليوبليانا".

واستطرد ليخبرني بكل الأماكن التي كان يحب أن يزورها. وعندما قال بصوت منخفض إن سينما الكبار "سلوجا" سيطرت عليهم من مدة طويلة، غمز لي. كنت متأكدًا تمامًا أنه يمكنني أن أنام في فندق "بحار" مجانًا لو تركته فقط يحن قليلًا لتلك الذكريات البسيطة ذات أثر كبير.

بعد وقت طويل جدًّا، لفت انتباهي إبحاره السخيف في الماضي فسألته، بصفتي الآن صديقه، أين يمكن أن أجد "أمير موزيروفيتش". ولكن بمجرد أن ذكرت الاسم، تغير الموظف فجأة لشخصية جادة. وما زاد دهشتي أنه تحوَّل إلى الشخصية التي كنت أهابها في البداية؛ الشخصية القذرة ما قبل الحرب، والتي ازدادت قذارة في الحرب. فقلت:

- هل سمعت سؤالي؟

اتخذ الموظف الآن مظهر البلطجي الفاشل المثار من شخص نحيف مثلي لا يمكن علاجه. وعلى الرغم من كل هذا الحنين للأيام القديمة،

وسينما "سلوجا"، كان رشيقًا أنيقًا مـن البلقـان، في الخامسـة والأربعـين تقريبًـا. وجوده يثير الشفقة. أخذ يمارس سُلطته المخولة إليه على شاب سلوفيني نحيـل متعب عابر سبيل.

- لقد كان صديقًا لوالدي.

واحتجـت إلى وقـت كي أسـتعد قبـل أن أنطـق "نيـدلكو بـوروجيفيتش" أو "توميسلاف زدرافكوفيتش"، ولكن لما تقمَّص الموظف شخصية "ستيفن سـيجل" خلف المكتب، شعرت بأن تلك اللحظة مناسبة، على الأقل لفترة مؤقتـة، لنقـول إن "نيدلكو" هو أبي.

- مَن أبوك؟

فهمت السؤال. وفجأة تحوَّل "سيجل" المرتعب الآن إلى قلق لأن أبي "شخصية مخيفة"، والذي لو سمع بموقفه "لقذف بـه وراء الشـمس"، أو حتـى لـو كـان أبي أستاذًا لاتينيًّا عجوزًا متهالكًا لأخبر "سيجل" بأن يذهب إلى الجحيم.

- الجنرال "بوروجيفيتش".

ليس لديَّ صبر على هؤلاء الذين ينفخون أنفسـهم بـالكلام الفـارغ ويفرغـون أسرع من انفجار البالونة. أعلم أن كلمة جـنرال سـتجعله يعـود إلى حالتـه الأولى، ونتحدث معًا مرَّة أخرى كصديقين يمارسان العادة السرية في البلكونة الخلفية من سينما "سلوجا". اتَّضح أنني كنت على حق.

- لمـاذا لم تقـل ذلـك؟! كلهـم يـأتون إلى هنـا، ولكـن أعلـم أن الجـنرال "مـوزيروفيتش" لا يحـب أي شـخص أن يطـرق بابـه، ويكـره بصـفة خاصـة الصحفيين، لذلك أحب أن أتحقق من أجله. ليس عاديًّا أن يـذهب كـل شـخص إلى ما يريد. أليس كذلك يا "فلادان"؟

لحُسن الحظِّ أن الإنسان "النياندرتال" البدائي البلقاني لم يكـن يتبنـى فكـرة الوطنية، فيفشل بالتالي في أن يعلم الجانب العدائي في الجنرال "بـوروجيفيتش"، ولن يراه ضابطًا في الجيش الشعبي اليوغوسلافي، الذي كان ترسًا رئيسيًّا في الآلـة التي حاولت أن تنسف بلده. كان موظف الاستقبال مثالًا حيًّا عـلى الشـوفينية؛ يقسم العالم ليس على أساس عرقي، أو ديني، أو قـومي، بـل عـلى أسـاس قـوي وضعيف. القوي يُعامَل باحترام ومهابة، بيـنما الضـعيف تُمـارَس عليـه البلطجـة والسخرية والاحتقار. كان هذا كل شيء. والجنرال "بوروجيفيتش" - أو أيًّا كان - أرستقراطي قوي، لذلك كان يُعَدُّ واحدًا من حاشية هذا الرجل بالنسبة له. كـان يحاول أن ينضم إلى فريق الأقوياء طوال حياته، فكان ملتصقًا بالطبقـة المُتنمِّـرة مثل العرق الذي يمسك بثوب الراقصة، منذ أن كان في الصف الثالث الابتدائي.

خرج من خلف المكتب وأخذني إلى خـارج الفنـدق. عنـد البـاب الخـارجي، وضع يده على كتفي وأشار إلى منزل "موزيروفيتش"، وربـت عـلى ظهـري بـود وهو يقول:

- لن تخطئه، إنه ذو الواجهة البنفسجي.

وأردف:

- بلغ تحياتي للجنرال وقل له إن "سالكو" من فندق "بحـار" يرسـل تحياتـه، هو سيعرف.



فعـــلًا، لا يمكـــن أن تخطـــئ منـــزل "أمـــير مـــوزيروفيتش" البنفســـجي؛ فـألوان الـذكريات المريـرة - التـي تشـبه المضـاد الحيـوي - متنـاثرة تمامًـا عـلى

جدران ذلك المبنى الغريب. من المحتمل أن الأمر يتطلب معماريين عباقرة عدَّة لإصلاح هذا المبنى؛ إصلاح هذه السيمفونية النشاز المنتشرة في الجدران البنفسجية. سيارتان ليموزين سوداوان مركونتان في الممر الموحل تدلان على عقلية هذه القرية. كنت سعيدًا بأن أقود سيارتي المُتهالكة بجوارهما.

فتح لي الباب مخلوق لم يخيب توقعاتي. له تكشيرة مثل الظفر الغارز في اللحم، حليق الرأس، يرتدي جاكت أسودَ بدلًا من الزِّي العسكري.

- ماذا؟

- مساء الخير، أبحث عن السيد "موزيروفيتش".

- لماذا؟

- أنا ابن "نيدلكو بوروجيفيتش" صديقه من "باولا".

استغرقت هذه الشخصية لحظة لينظر في إجابتي، أيقبلها أم لا، وأدركت أنه أخذ وقتًا كافيًا.

- "بوروجيفيتش"؟

أومأت بالإيجاب. لسبب ما، كان هذا سبب له ليقفل الباب بعنف في وجهي. لم أكن متأكدًا هل أرن الجرس مرَّة أخرى أم أرحل عن هذا الجحيم وقد كنت قادرًا على ذلك.

لم يكن لديَّ أدنى فكرة عمَّا يمكنني أن أفعله في فترة وجودي في "غورازدة" سوى الانتظار بجانب المبنى البنفسجي. بدأت أنظر حولي وحددت بسرعة أن هناك نوعين من البيوت في البوسنة؛ مباني كأن أصحابها طلبوها من كتالوجات معمارية صينية مخفضة، وبيوت البوسنة القديمة الجميلة، بأشكالها المنتظمة وألوانها المتناسقة. ولكن هذه

النوعية الثانية تتداعى، وبالكاد تتماسك جدرانها وواجهاتها. كانت البوسنة منقسمة بشكل لا رجعة فيه؛ الفقراء في البيوت الجميلة، والأغنياء في البيوت الشاذة القبيحة. حس الجمال لدى هذه النخبة الحاكمة تنم عن الاتجاه الذي ستدير به هذا البلد سيئ الحظ.

انفتح الباب مرَّة أخرى.

- اخلع حذاءك.

كانت هذه هي الدعوة للدخول، وأن أعتبر نفسي من أهل البيت. فعلت كما طلب، ودفع الشخص ذو الجاكت الجلد بحذائي بجوار الحائط، بجانب أحذية أخرى أنيقة. كان يبدو منظمًا بالنسبة لرجل مُتجهِّم الوجه.

كان المنزل مزخرفًا في الداخل بشكل لائق، في تناقض صارخ مع المظهر الخارجي المبتذل. تغطي السجاجيد الشرقية الأرضيات، والجدرات تزينها اللوحات المبروزة، والرائحة الطيبة لنار الحطب تفوح في الهواء. كان للسلم صوت مألوف تحت أقدامنا. يبدو البيت البنفسجي مألوفًا على الرغم من غرابته. صورة لمكة معلقة على الحائط، ما جعلني أعتقد أن "أمير" أقلع عن الشرب، وليس شنابز الخوخ فقط.

حينئذٍ فقط، فتح شاب آخر يرتدي جاكت أسودَ الباب أعلى السُّلَّم. دخلنا غرفة واسعة بها كنبة ضخمة نبيذية اللون، وموقد صغير لإشعال الحطب في أحد الأركان. كان "أمير موزيروفيتش" يجلس مقرفصًا بجانب الموقد، يبدو عليه عدم الراحة، متكوم كطائر ضخم يجلس على مقعد مُختبئ تحته من حجمه. يلف بطانية صوف حول كتفيه العريضتين. يدخن وينفض رماد السيجارة في النار.

حاول أن يقول شيئًا، ولكن كُحَّة حادَّة منعته من الكلام.



- معظمكم يريد أن يعرف لماذا، أليس كذلك؟

لقد سبقني "أمير" بهذا السؤال، فمن دون الأسئلة التي طرحتها على نفسي في الأيام الماضية، لم يخطر على بالي هذا السؤال. لم تزل أفكاري مُشَوَّشة، تمر كبطاقات الفهرسة الصغيرة التي سقطت وتاهت في متاهة الوعي. لقد فاجأني "أمير"، فلم أستطع تجنب الاستماع لشرحه، حتى قبل أن أجهز تفسيري. ولكن ما أفزعني هو تفكيري في أنني لم أرد أن أسمع ما أوشك "أمير" أن يقوله. كان يحدث كل ذلك بسرعة، خطر على بالي أن الأمور صارت خارج السيطرة. لقد انطلقت في هذه الرحلة باندفاع، دون أن أعرف بالضبط ما أبحث عنه، بصرف النظر عن "نيدلكو بوروجيفيتش" غير الموجود.

- لقد شرحت ذلك لنفسي بشكل ما، لكنني لست متأكدًا كم سأفلح في شرحه لك. لست متأكدًا من أنك ستفهمه. ناهيك عن قبوله...

واضطر "أمير" أن يُسَلِّك حلقه بكُحَّةٍ خفيفة، وأعطاني ذلك الفرصة للتفكير في أن إيجاد مجرم حرب مُختبئ قد يكون أقل الجوانب المطلوبة في الرحلة. لن يبدأ البحث الفعلي إلا إذا جلست وجهًا لوجه مع "توميسلاف زدرافكوفيتش"، وبدأت أبحث في داخل هذا الغريب عن بقايا أبي المُتَوَفَّى.

- إنك لا تشبهه كثيرًا، ولكن هناك شيئًا منه فيك؛ ربما الحواجب والعينان. لديك عيناه.

منذ أن كنت طفلًا، وأنا لم أشعر بارتياح من جانب "أمير"، فما بال الآن ونظراته أشد صرامة، وعصبيته توحي لمَن حوله بالقلق.

- آه، يا "فلادان"، يا ولدي... كلهم اعتادوا أن يكونوا يوغوسلافيين، وكلهم كانوا شيوعيين، السفلة، أولاد الزواني الوطنيين. لعلمك، لم تكن هذه هي الحرب التي أردناها... لكن ما كانت ستختلف، لو أننا الذين دافعنا عن يوغوسلافيا وقفنا جنبًا إلى جنب، بالزِّيِّ نفسه، مع هؤلاء الذين دمروها. لقد غنَّينا النشيد نفسه ورفعنا شعارات النبل نفسها. لكن ما كنت أمتلكه بالنسبة لي لم يمتلكونه بالنسبة لهم. لذا من هنا... أستطيع أن أقول هذا الآن... ليس هناك سلة لزبالة الوطنية أكبر من الحزب الشيوعي. ما انهارت الشيوعية إلا لأن المتخلفين المتهورين أداروا نهايتها، الذين لم يروا فيها إلا كنيسة جديدة، تديرها سلالة جديدة من القساوسة. لقد دُمِّرت البلاد لأنها لم تكن تعني لهم أي شيء، التي مات من أجلها في النهاية كل شعب يوغوسلافيا العظيم. في نهاية الأمر، كل من الموالين، و"التيشنك"، و"الأوستاشاس"، والمجاهدين؛ الدينيين، وغير الدينيين، توحَّدوا جميعًا وانطلقوا كي يدمرونا جميعًا. اختفى اليوغوسلاف في لمح البصر، كأنهم لم يوجدوا. كانوا بالطبع مرعوبين حتى الموت من "ميلوشيفيتش"، لذلك انتشروا في أنحاء الدول، أو عادوا إلى دولة غبية، بينما كُنَّا نحاول إنقاذ هذا البلد من الفاشلين. لقد أعددت نفسي لمدة ثلاثين عامًا لكي أنقذه من أعداء الداخل والخارج. ثم فجأة، لم يكن أحد ملعون ليدافع عنه. كلهم سفلة! وكلنا الذين آمنا به...

قاطعته الكُحَّة مرَّة أخرى، بشدَّةٍ وبلا رحمة حتى ظننت أنه لن يقدر على الاستمرار. كان هادئًا لفترة طويلة، يستجمع أفكاره، أو يهدئ رئته الممزقة.

- بعد كل هذا، أنا حزين على الرجل الكبير، الذي بنى هذا البلد بيديه، أنا سعيد لأنه مات قبل أن يرى هؤلاء الحثالة الذين بنى كل هذه الكباري،

والمستشفيات، والمدارس من أجلهم. الحثالة الذين فعل كل هذا لهم. عاشوا كل هذه السنين بيننا، يبتسمون لنا وهم يرتدون زي "تيتو" الفخم، ويلوحون بالأعلام، في النهاية لم ينتظروا حتى النهاية، فاشتبكوا مع بعضهم بعضًا. عليهم اللعنة، السفلة...

أمسك بصدره، ولكنه لم يكُح. يبدو أنه يريد أن يحكي قصته من البداية حتى النهاية. لم يعد الوقت يلعب دورًا في حياته. يحل الظلام، يبزغ الفجر، تمر الساعات، وهو جالس هناك، ملفوف ببطانيته، بجواره الموقد، ويدخن. على الأقل هذا ما تخيَّلته على الفور، عن الخمس أو العشر سنين الأخيرة من حياة هذا الرجل.

- وذلك لأن كل واحد منهم له قصَّته عن الماضي المفقود من زمن، عن الموت الذي لم يفق منه. عن الأجداد، والجدات، والمقابر الجماعية في الكهوف، ومعسكرات الاعتقال في الحرب العالمية الثانية. قصة كانت تقلقهم طوال هذه السنين، يتهامسون عنها بينهم في السر، وينتظرون أوقاتًا أخرى قادمة؛ كي يحكوا هذه القصص مرَّة أخرى، بصوت عالٍ أمامنا، هؤلاء الذين قاتلوا على مسؤوليتهم. لقد ولدوا بصمت وخفية غضبهم، وإثمهم، وأعدوا اعتذارهم الرسمي عن ذبح الأبرياء، وحرق القرى، واغتصاب النساء. لقد سمحت لهم قصصهم بهذا، وبررت كل شيء. أراحوا ضمائرهم، وهدهدوا أرواحهم القلقة كي يناموا كل ليلة. لأنهم - أولئك الذين عاهدوا أمواتهم، وكذلك نحن الأحياء - تافهون وغير مهمين. لم يكونوا هم القتلة، ولكنهم أشباح كل المقتولين من آبائهم، وأمهاتهم، وإخوتهم، وأخواتهم، بأسمائهم ارتكبوا كل هذه المجازر.

الاغتصاب، والذبح، والحرق. كل شيء كان مقدسًا بسبب هؤلاء الضحايا. كل شيء كان ضروريًّا.

فتحت فمي لأنني اعتقدت أن "أمير" يتوقع إجابتي على كلامه، لكنني رأيت في الوقت المناسب أنه يعرف أنه لا يوجد لديَّ ما أقوله له. بينما رمى عُقب السيجارة في يده، أخرج بيده الأخرى من جيبه علبة لونها أحمر وأبيض، ولكنها كانت فارغة.

- هل يمكنك أن تناولني علبة؟ هناك، من الدولاب على السُّلَّم.

نهضت وفتحت الباب الذي أغلقه خلفي الشاب ذو الجاكت الجلد، الذي كان يقف على بسطة السُّلَّم وهو يراقبني جيِّدًا وأنا أُخرِج علبة "مارلبورو" من الدولاب. عدت إلى الغرفة. أشعل "أمير" سيجارة فورًا، وأخذ نفسًا كأنها أول سيجارة بعد سنوات من الامتناع. تساءلت إذا كان يتعمد أن يسمم نفسه. راح يدخن في منتهى الاستعجال.

لاحظت كومة من الجرائد تشبه تلك التي وجدتها عند عتبة "توميسلاف زدرافكوفيتش"، على الأرض بجوار رِجْل "أمير"، فخطر لي أن الصديقين القديمين يقرآن الصحف نفسها، أو ربما يتواصلان من خلال الرسائل السرية المشفرة في إعلانات الشقق غير الموجودة في "بانيا لوكا"، و"درفنتا". بدت كلمات "أمير" غامضة للغاية، وحجرته الدافئة برائحة احتراق الحطب الزكية تشبه المكتب البيضاوي لجماعة سرية من الضباط المتقاعدين.

نظر إليَّ مرَّة أخرى. كانت نظرته هذه المرَّة حادة بشكل أكبر.

- "نيدلكو" له أيضًا قصة، قصة عن أبيه "ميلوتن" ربما تعرف هذه القصة.

هززتُ رأسي بالنفي.

- إيبيه، حسنًا، كيف يمكنني أن...

حدَّقت فيه، متوقعًا قصة "ميلوتن" و"آجنيس"، القصة التي لم يخبرني بها "نيدلكو" مُطلَقًا. كان يقول "لا داعي"، وإذا كانت "دوشا" قد ذكرت شيئًا عن جَدِّي وجَدَّتي، فلا أعرف عنهما الكثير سوى أنهما ماتا ولم يزل "نيدلكو" طفلًا.

- أنا آسف، لقد قطعت على نفسي عهدًا ألا أخبر أحدًا بهذه القصص أبدًا. لا لك، ولا لأي شخص. إذا لم أحكِ قصتي من الأساس فكيف أحكي قصص الآخرين؟ اللعنة على كل القصص. يجب ألا تقال. يجب أن يطلق النار على هؤلاء الذين يحكونها؛ لأنهم يسممون أطفالهم وأحفادهم بها. إذا كنت تريدها فاسمعها من شخص آخر، شخص لا يهمه أمرك، وبالتالي سيكون سعيدًا ليحكي عن جَدِّك "ميلوتن". أعرف ذلك، ولكن على الأقل لن تسمعها مِنِّي.

أصبح هادئًا، كما لو أنه أراد أن يؤكد كلماته بالصمت. ربما تكشَّفت قصة جَدِّي أمام عينيه، على الفور، وراح يتأملها في صمت، أمامي. أغلق عينيه وانتظر حتى تمر، بينما أحاول أنا ألا أُفَكِّر فيما تنطوي عليه.

- لعلمك، كنت سأقتلهما الاثنين في تلك الليلة، العقيد "براك" و"زهانا". في مطعم "فيشرمان شيد". لولا أبوك، لقتلتهما. جن جنوني، كنت مخمورًا ومجنونًا. كل شيء اسْوَدَّ من حولي. لولا أنه أنقذ حياتهما، وحياتي أيضًا، لكنت قتلتهما يا "فلادان" يا ولدي. أعلم أين هو، ولكنني لا أستطيع أن أخبرك بذلك. أعلم أنك جئت من أجل هذا السؤال، ولكنني لن أكون الشخص الذي سيخبرك. لقد قطعت عهدًا. لو أردت أن تستمع لي سأقول لك ارجع وانسَ كل شيء عن هذا فهو أفضل لكما. ولكنني أعرف

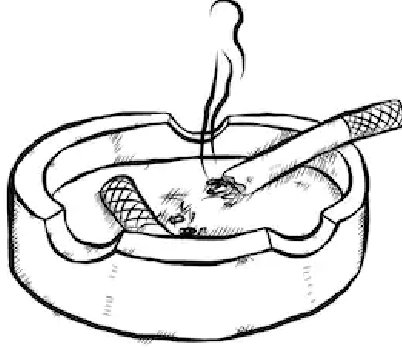
أنك لن تفعل هذا، لذلك عندما تقابله قل له، عنـدما يأخـذك شـخص مـا إليـه، إنني ما زلت حافظًا لرغبته الأخيرة، ويكون كل شيء جاهز له، بالأسلوب نفسـه الذي أراده. هذا...

عادت الكُحَّة، مرَّة أخرى. منعني شيء ما في صوته مـن الاعـتراض. أعلـم أن أسئلتي لا جدوى منها. لقد تعهد بالصمت من أجل صديقه القـديم. راح وهـو شارد ينفض رماد السيجارة في الموقد وأخذ نفسًا، كأنما يغرق ويريد أن يتشـبَّث بالهواء. شيء ما أخبرني بأن حديثنا انتهى. فكَّرت في أن أجلس بجـواره، وأتوسـل إليه مستعطفًا رحمته، ولكنني أعرف هـذا الرجـل، هـذا المسـتوطن القـاسي في حساباته، الذي لا يمتلك ذرة رحمة.

لم يكن أمامي غير الخيار الآخر؛ العم "دانيلو".



8



المرَّة الأولى التي سمعت فيها عن العم "دانيلو" كانت آخر مرَّة أرى فيها أبي. في المساء السابق لهذا، بعد حوار من طرف واحد في التليفون مع أُمِّي، قالت إنه سينضم إلينا في الإفطار في الصباح المقبل صاحب السمو الملكي، الكولونيل "بوروجيفيتش". وأضافت أنه قيل إن هذا الكولونيل لم يعد زوجها، ولا أبي، ولكن مجرد ضابط في الجيش الشعبي اليوغوسلافي.

تكوَّنت لديَّ فكرة أنه لا شيء جيد سيكون في الإفطار، سوى شرائح رقيقة من الجبن والسلامي. وهذا ما تأكد من سير أُمِّي في منتصف الليل، حيث بدأ وانتهى في مطعم الفندق. دخَّنت علبة سجائر كاملة وشربت أول شنابز لها. ثم استدعتني لأنزل وألحق بها لنشرب كوكا. الساعة الواحدة والنصف صباحًا، كنت جالسًا مع أُمِّي أشرب مشروبي المفضل، وأراقب تدخين أُمِّي المتواصل. طلبت شنابز آخر في الساعة الثانية، دون أن تسألني إذا كنت أريد أن أشرب شيئًا آخر، حتى الجرسون النعسان الذى

أحضر لها الكأس تجاهل أيضًا أن يسألني. في الثانية والنصـف، اقترحـت أُمِّـي أن نذهب لننام عندما انتهت من السجائر، أخيرًا ذهبنـا في الثالثـة إلا عشر دقـائق إلى الغرفة وخلدنا للنوم، أو على الأقل أنا.

انتهينا مـن إفطارنـا بالفعـل في الصبـاح التـالي في الوقـت الـذي ملَّـس فيـه "نيدلكو" على رأسي وجلس إلى طاولتنا. سـألته أُمِّـي إذا كـان جائعًـا فهـزَّ رأسـه بالنفي. اتَّضح أن الذي زارنا هو الصـوت الـذي يحـدثنا في التليفـون، مركـب في جسد أبي فقط، بدلًا من أبي نفسه. يطرح أسئلة غبيـة أجبـت عنهـا عـلى الأقـل عشرين مرَّة خلال مكالماتنا. لما فرغ من الأسئلة، التـزم الصـمت، وجلـس فقـط معنا. رد على سؤالي الوحيد "متى سنذهب إلى البيـت؟" بهـزِّ كتفيـه فقـط. ثـم طلبت مِنِّي أُمِّي أن أصعد إلى الغرفة لتناقش مع أبي أشياء مهمة؛ الجملـة التـي لم أسمعها منذ سنين. عندما كنـت صـغيرًا، كانـا لا يريـدان أن يتشـاجرا أمـامي، فكانا يرسلانني إلى غرفتي، ولكن من مدة طويلة تجاهلا وجودي وبدآ يصيحان لبعضهما بعضًا في أي مكان يقفان فيه، وبلا شك بدآ يفكران أنني كبير بمـا فيـه الكفاية لأفهم كيف تسير الدنيا. لذلك كنت مـدركًا أن الأشـياء المهمـة أصـبحت أكثر أهمية من المُعتاد، وأنهما سيتكلمان بهدوء، تقريبًا همسًا، أكثر هدوءًا مـما تكلما به عن العمَّة "إنيسا" في المستشفى. نهضت في صمت واتجهت إلى الغرفة دون أن أقول وداعًا لأبي. لمدة ساعة، جلست بفارغ الصبر عـلى السريـر، أقلـب في قنـوات التليفزيـون، وأخـيرًا رجعـت أُمِّـي إلى الغرفـة. توجهـت مبـاشرة إلى الحمَّام، وخرجت بعد دقائق قليلة، لتقول:

- آه بالمناسبة...

تبحث عن شيء في حقيبتها، قالت إننا سنذهب إلى "نوفي ساد" في اليوم التالي؛ لكي نرى العم "دانيلو". أومأت ولم أسأل مَن يكون العم "دانيلو" لأنني أعلم أن الوقت غير مناسب لطرح الأسئلة، ناهيك عن الإجابات.



عندما تركنا الغرفة 211، كانت أُمِّي في أشد الحاجة إلى شخص ما يعارضها، لتلقي في وجهه ضيقها وتقنع نفسها أن العم "دانيلو" الذي في "نوفي ساد"، ابن عمِّ أبي المقرب، هو أقصر وأفضل اختيار لنا. احتاجت لهذا لأنها لم تؤمن بقرارها بما فيه الكفاية، وكانت غضبانة من أبي، ومن نفسها؛ لأنها سمحت لنفسها أن تكون في هذا الموقف، تفقد السيطرة، وتعتمد كلية على الغرباء. كنت ساكتًا وخائفًا؛ لأنني لم أعتد على زيارة ناس لا أعرفهم، وقلقت لأنه لن تكون لي غرفة خاصة مهما كان المكان الذي سنذهب إليه. كنت خائفًا أكثر من أن الأطفال في "نوفي ساد" يراقبونني ويقدرون تحركاتي، ويتصيدون أي شيء أفعله يمكن أن يستخدموه ضدي فيما بعد. هناك قلة من المخلوقات مخيفة ووضيعة كأطفال ما قبل البلوغ. فهل عليَّ أن أثبت نفسي، أتشاجر من أجلهم ليتقبلوني؟ لا وقت لدى أُمِّي لمخاوفي، فلديها ما يشغلها. فلن تريحني، أعلم ذلك؛ لأنها مشغولة بتهدئة روعها، تكرر أن "دانيلو" عائلة، وهذا يعني شيئًا بالنسبة لهؤلاء الناس، ليس مثل عائلة "بودلجار". سيكونون طيبين، وعلينا أن نكون مُمتنِّين، وليس أمامنا خيار آخر، غير أن ننتظر حتى يمُرُّ هذا الموقف الاستثنائي، ويعود أبي، ونعود إلى "باولا".

ولكن عندما اتصل أبي في المساء ليقول إنه ذاهب إلى الميدان، وإنه لن يستطيع الحضور إلى بلجراد ليودعنا قبل الرحيل إلى "نوفي ساد"، كما وعدنا هذا الصباح، انهارت أُمِّي. جلست على أرضية الغرفة 211 وأخذت تبكي. أردت أن أحتضنها، وأخفف عنها بعض الألم، الألم الذي لم أفهمه ولكنني كنت أتمنى أن أتألم كي ترتاح هي، ولكنها واصلت الابتعاد عنِّي، كما لو أنها تخاف أن تعديني بيأسها. أعتقد أن شجاعتها تخلَّت عنها تمامًا في ذلك اليوم في فندق "بريستول". فلم تكن امرأة مهزومة فحسب، ولكن وحيدة في قصتها. لا أدري إذا كانت أدركت، في ذلك الوقت، أن الموقف الاستثنائي سينتهي. آمنت أن حاستها السادسة تخدَّرت تمامًا من أثر الرُّعب الجارف أمامها. جلست بين الحقائب والصناديق، فهي الآن امرأة في حالة فرار، شخص سيظل هاربًا سنين وسنين، من كل الذي أسقطها على أرضية الغرفة 211.



أصبحت أُمِّي مستعدة لتقبل كل ما ينتظرها عندما دخلت شقَّة "دانيلو رادوفيتش"، في الطابق الخامس في عمارة بجوار سوق السمك في "نوفي ساد". كنت بجوارها يملؤني الرُّعب تحسبًا للتواصل المرتقب مع الأقارب من بعيد. وعندما وصلنا أخيرًا إلى المبنى، كدت أن أُبلِّل نفسي. ارتجف قلبي تحت قميصي، وارتعدت مفاصلي، وابتلت يداي من العرق حتى إنني أسقطت الصندوق الذي كنت أحمله. لم يكن هناك شيء أَوَدُّ أن أفعله أكثر من الجلوس على الأرض في "نوفي ساد"، مثلما فعلت أُمِّي منذ أيَّام عديدة، وأبكي. ربما كنت على وشك أن أفعل ذلك، ولكن جاء "دانيلو"

مسرعًا ورحب بنا بالأحضان والقبلات، وبدأ يصيح، عادة ملازمة له حتـى عنـدما وصلنا إلى محطَّة الباص وتحركنـا إلى "ليوبليانـا". في تلـك اللحظـة، نجـوت مـن الإغماء إثر ابتهاجه المريب، إذ رفعني بيديه القويتين، فدفعني ذلك إلى مـدخل عمارته، ثم على درجات السُّلَّم لخمسة طوابق، حتى باب شقته. لم يتوقَّف عـن الكلام إطلاقًا؛ كيف يتوجب عليَّ أن أترك أشيائي، فسوف يحضرونهـا لي، ويجـب ألا أقلق، فكل ما يهم أنني ووالدتي ما زلنا على قيد الحياة، وأننا بخير وفي أمـان معهم. وبالطبع أنني "مثل نيدلكو عندما كان في سن الثانية عشرة"، عندما كان الاثنان يعيشان معًا كالأخين.

وهكذا أصبحنا أنا وأُمِّي عضوين مؤقتًا في أسرة "رادوفيـتش"، أول أقـارب قـابلتهم عـلى الإطـلاق. كـان هنـاك بالإضـافة إلى "دانيلـو" زوجتـه، "سـافا"، وابنتهما "جوفانا"، سبع سنوات، وابنهما "ميشو"، عشر سنوات. وقف الجميع صفًّا ليرحبوا بنا في منزلهم. ولإضـافة البهجـة عـلى الجـو العـام، كـان جـارهم "كوسا"، وزوجته، "ريستو"، وابنـتهما "ناتاشـا"، أكـبر مِنِّـي بقليـل، موجـودين أيضًا. اتَّضح حالًا أن "كوسا"، و"ريستو"، و"ناتاشـا" يقضـون وقـتهم هنـا أكـثر من شقتهم التي تقابلهم عبر الممر، وبالتالي انضـم الثـامن والتاسـع ليقـيما في شـقَّة مسـاحتها خمسـون مـترًا مربعًـا. قطـع وصـولنا الجـو البهـيج للجـيران للحظات، قبل أن يقبلني الجميع ثـلاث مـرَّات، ويسـألوننا مـرَّات ومـرَّات إذا كُنَّا جائعين، أو نريد بعـض القهـوة أو العصـير، أو أننـا نشـعر بالتعـب. رأينـا زوجًا من المراتب على أرضية غرفة النوم، وفهمونـا أننـا سـننام في غرفـة نـوم "ميشو" و"جوفانا"، وأنهم سينحشرون جميعًا في غرفة "دانيلو" و"سـافا" ذات السرير المزدوج. حدث كل هذا وسط وابل من الصـيحات والأسـئلة السريعـة

المتتالية، ثم الأسئلة عالية الصوت، الكل يتكلَّم في آنٍ واحد، ويتساءلون عن "باولا"، وبلجراد وأبي، ثم عن بلجراد، وأبي، وعن أبي مرَّة أخرى.



بعد مراسم الاستقبال، والكميات الكبيرة من المأكولات والوجبات الخفيفة التي لا يمكن تجنُّبها، جاءت نشرة أخبار المساء، تجمع الحشد المُرحِّب بنا أمام تليفزيون صاخب للغاية، كما لو كان هناك أمر بذلك. التزم الجميع بصمت غريب، على الأقل لفترة قصيرة. تمكَّنت من معرفة أن الجيش الشعبي اليوغوسلافي يبذل محاولات للتوفيق بين مختلف الأطراف المتورطة في صراع سلوفينيا، حيث أُرسل أبي في الميدان. لم أعلم أي الأطراف تلك المتورطة، ولا حقيقة نوع الصراع؛ لأن "دانيلو" و"ريستو" راحا يصيحان في السياسيين الموجودين على الشاشة، ثم في بعضهما بعضًا، ثم صاحا بعنف في المذيع، كما لو أنه يقول شيئًا مهمًّا. لم تتحلَّ "سافا" أو "كوسا" بالخجل، فكانا يشاركان في مناقشة متساوية في الضجيج. كل ما استطعت فهمه من المبارزة الكلامية أن "سافا" و"دانيلو" كانا مقتنعين بأن تحضر "ريستو"، و"كوسا" والدي "ريستو" إلى "نوفي ساد"، بينما ترفض "ريستو" وتقول إن عائلة "جويكوفيتش" يجب أن تستمر حياتهم في المكان الذي ولدوا فيه. في الحقيقة لم أتابع الكثير من هذه المناقشة؛ إذ كانت حول السياسة، والصرب، والكُروات، والسلوفان، كما لو أنها تغطية رياضية لمسابقة بين الجمهوريات. كلما زادت حدة الصياح، قلَّ فهمي، وإن كنت تعلمت أن علو النبرة من أجل الاستماع بوضوح. جلست على الكنبة مُتكوِّرًا بجوار

أُمِّي في خوف، بينما كانت تجهد نفسها كي تسمع التليفزيون، لم تعبأ حتى بالتفاعل عندما ضرب بيديه "دانيلو" على الطاولة مقاطعًا رأيًا يُقال. جلست "جوفانا" الصغيرة بجواري، وهي تأكل ساندويتشات جبن، وتبعثر فتات الخبز في أرجاء الغرفة. مثلها مثل أُمِّي تتصرف كما لو أن لا شيء يحدث حولها. إلا عندما دلقت ضربات "دانيلو" كوب اللبن الخاص بها، هنا فقط تحركت وطلبت من أبيها أن يزيل اللخبطة التي تسبب فيها، مما جعل الجميع يضحك. احتضن "دانيلو" ابنته وقبلها باعتزاز. جلس "ميشو" في الجانب الآخر من الغرفة، مراقبًا والديه باهتمام، قبل أن يلقي بنظرات سريعة إلى أُمِّي وإليَّ.

كانت شاشة التليفزيون في ذلك اليوم مكتظة برجال الشرطة والجنود والسياسيين. وبحلول المساء، كانت قد تكوَّنت لديَّ فكرة بأن الموقف خطير حقًّا. في الوقت ذاته، كان كل من "دانيلو"، و"ريستو" يدلي بتعليقات بذيئة أولًا بأول، يخبر كل منهما الآخر أن يقوم ليفعل ذاك أو ذاك، يصفان زوجتيهما بكذا وكذا، وهما يصبان شنابز ويشربان النُّخَب. استمر هذا لآخر الليل والساعات الأولى من الصباح، وهم على الحالة نفسها من النقاش، يعيدون الكلام نفسه. كررت "ريستو" كلامها عن موطن عائلة "جويكوفيتش":

- ستواصل أسرة "جويكوفيتش" الحياة في المكان الذي ولدوا فيه.

بينما يتساءل "دانيلو" مرَّات عديدة بشكل متكلف:

- لماذا يستطيع السلوفينيون أن يتصرفوا كما شاؤوا، بينما لا يستطيع الصرب ذلك؟

في لحظة ما، ظهر "سلوبودان ميلوشيفيتش" على الشاشة، اتَّضح لي على الفور أنه لا أحد في شقَّة "رادوفيتش" يمكن أن يعلو صوته على كلماته أو يعارضها. لقد تبنَّيا أفكاره، كما لو كانت أفكارهما، وردداها، ويبدو أن "سلوبو" يقول بالضبط أفكار "دانيلو" أو "ريستو"، ولكن بطريقة أدق، وأكثر حكمة مما ينشدانه. فقط كشرت "سافا"، وهزت رأسها كأنها تعتذر، موضحة أنها لا تستطيع أن تمنع نفسها، فهي ترى أن فيه شيئًا بشعًا وأنها خافت عندما رأته في المرَّة الأولى؛ ربما لأنها دائمًا تخاف من الناس الأكثر مهارة. بينما حذرنا "دانيلو" جميعًا لنلزم الهدوء؛ كي يسمع كل كلمة يقولها "سلوبو". بحلقت "ناتاشا" بعينيها غير مصدقة.

وجود "سلوبو" يعني أن الأطفال يُطردون إلى المطبخ، ليتناولوا العشاء هناك أيضًا. وهناك تحدثنا أنا و"ميشو" للمرَّة الأولى معًا. سألني إذا كنت ذهبت للبحر هذا الصيف، فأجبته أنني ذهبت مرَّة واحدة، وقال لو أنه يسكن بجانب البحر، لذهب في مايو كله، ومرَّتين في اليوم، وما ترك الشاطئ أبدًا. أخبرته "ناتاشا" ألا يهذي؛ لأنه لا يعرف كيف تكون الحياة بجوار البحر، ثم تشاجرا قليلًا حول مَن يعرف أكثر عن الحياة بجوار البحر. اعترفت "جوفانا"، وهي تأكل ساندويتشات الجبن مرَّة أخرى، بأنها لم تذهب مُطلقًا إلى البحر، ولكنها ستذهب العام القادم بنفسها، إذا لم يأخذها والداها. ضحك الجميع، ونالت قبلة من "كوسا"، التي كانت تقوم على خدمتنا في مطبخ جيرانها كأنه مطبخها. عدنا لاحقًا إلى حجرة المعيشة، حيث كان "دانيلو"، و"ريستو" يتجادلان بعنف، وتزداد سخونة الجدل بالشنابز، التي تجعل كلًّا منهما أكثر اقتناعًا بما يقوله، وإن كان لا

معنى له. وبنهاية المساء، كان واضحًا جدًّا لي أن "عائلة جويكـوفيتش ستسـتمر في المكان الذي ولدوا فيه"، "قد يطرد السلوفان الصربيـين، ولكـن الكُـروات لـن يستطيعوا".

عند لحظة معينـة، بيـنما كنـت متكئًـا إلى أُمِّـي، غلبنـي النـوم فجـأة أمـام التليفزيـون. تقريبًا في اللحظـة التـي فهـم فيهـا كـل مـن "دانيلـو" و"ريسـتو" و"كوسا" و"سافا" معًا أن "تيتو" كان يكره الصرب، وصاح "دانيلو"، ناسيًا أن أُمِّي تجلس بجواره:

- اللعنة على السلوفينيين!



في الصباح التالي، استيقظت والحجرة خاوية. فحيث كان يُغالب أُمِّي النـوم بدت الآن خصلة شعر معقدة مـن شـعر "جوفانـا" المنكـوش تطـل مـن تحـت البطانية. أحسستُ بالهدوء لما تيقنت أن الغرفة خاوية ولا شيء آخر. وللدهشة أننـي وجـدت السـبعة الآخـرين في المطـبخ، يشربـون القهـوة في صـمت تـام، ويتهامسون بكلمة أو كلمتين هنا وهنـاك، ويمشـون عـلى أطـراف أصـابعهم إلى الحمَّام واحدًا بعد الآخر. الوحيدة التي أحدثت صوتًا هي "ناتاشا"، كانت تضـع سماعات أذن، تلك التي حجبت قليلًا صوت موسيقى الروك التـي انبعثـت مـن "الواكمان" الخاص بها.

سـألتني "سـافا" هامسـة إذا كنـت أرغـب في الإفطـار، فهنـاك بـيض مخلوط بلحم الخنزير المقدد وكوب من اللبن على الطاولة. كـان "دانيلـو" يقـرأ جريـدة مكتوبـة بحـروف "سـيريالية" لم أتعلـم منهـا حرفًـا إطلاقًـا. انتهيت من الإفطار قبل أن أتفهم العنوان في الصفحة الأولى. كان "دانيلو"

يشد دائمًا في كم "ريستو"، مشيرًا إلى مقالة هنا، أو هناك، فينحني "ريستو" على الجريدة لثانية، ثم يُومئ الاثنان إيماءة رضا، أو يهزان رأسيهما غضبًا. ثم يأخذان في تفاصيل أخبار اليوم معًا في صمت.

انحشر ثمانية أشخاص حول طاولة المطبخ في صمت. الساعة تقريبًا الحادية عشرة، يعني أنهم ظلوا هكذا لساعات عديدة، إذا كانوا قد استيقظوا في الساعة السابعة. ليس من المرجح أنهم ظلوا هكذا في هدوء فقط لتجنب إيقاظي أنا و"جوفانا"؛ فما حدث من هرج ومرج كالقرود أمام التليفزيون في الليلة السابقة لا يتفق مع ذلك السلوك. يبدو أن الذين تجمعوا في المطبخ هذا الصباح مجموعة مختلفة تمامًا؛ فهم يراعون مشاعر الآخرين، متسامحون، متفهمون، لا يريدون أن يفسدوا هدوء أطفالهم النائمين بشكل غير منطقي. لم يروا أنه من الصح أن يلقوا بأطفالهم في قسوة الحياة، لكنهم آمنوا بفكرة أن "ندعهم ينامون، الشباب الحلو حسن الحظ، ما دام يستطيعون"! في تلك الأوقات البائسة التي ولدنا فيها، كان النوم الهادئ المطمئن واحدًا من المزايا الوحيدة التي يمكن أن يقدمها كل من "دانيلو" و"سافا" و"كوسا" و"ريستو" لأطفالهم. ربما كان هذا هو السبب الذي جعلهم يمشون على أطراف أصابعهم لساعات، ويشربون الفناجين النحاس الممتلئة بالقهوة التركي، ويقرؤون الجرائد، ويومئون ويهزون رؤوسهم، كل ذلك دون صوت. لقد ابتكروا عالمهم الخاص بهم، حيث سكتت جميع التليفونات، وأجهزة الراديو، والغلايات، وأواني الطهي بالضغط، والإنتركوم، وماكينات الحلاقة، ومجففات الشعر، والتليفزيونات، وأجهزة طحن البن، وأجهزة إعداد الطعام، والغسالات لبضع ساعات في الصباح كي لا يوقظوا "جوفانا" أو

"ميشو" أو "فلادان" الحلوين من نومهم، على حد تعبير "سافا" همسًا وهي تنظر إليهم في غرفة النوم.

قضيت أيامي في "نوفي ساد" محاولًا أن أحل لغز حقيقة عائلتي "رادوفيتش" و"جويكوفيتش". أتساءل مرارًا وتكرارًا هل هم أولئك الأشخاص الملتزمون بالهدوء في الصباح الحنونون كالرهبان حتى تستيقظ "جوفانا" التي تنام طويلًا، أم أنهم أولئك الوطنيون في المساء الذين لديهم السمات نفسها لمصَّاصي الدماء، ويتجاهلون أطفالهم إذا حلت نشرة أخبار المساء، يسبون وهم يشربون الشنابز، ويعنِّفون السلوفينيين، ويلعنون المسلمين، والصرب الخونة، وأهل الجبل الأسود، والكُروات، والغجر، واليهود، والألبان. فهمت من "ميشو" و"ناتاشا" أن هذا هو العادي، وأنهما لا يريان شيئًا غريبًا في سلوك آبائهم. في الحقيقة أصابهما الذهول من أسئلتي حول الموضوع.



منذ أن وصلنا أنا وأُمِّي إلى "نوفي ساد"، قلَّت مكالمات أبي، وكان يتكلَّم مع أُمِّي فقط التي تلخص هذه المكالمات بانتظام، وتقول إنها لا تتمكن من الاستماع بشكل جيد، ولكنها تقول إنه يقول بأنه بخير، وسيحضر قريبًا. ولكن من الواضح بالنسبة لها أنه في مكان بعيد تمامًا عن كونه "بخير". ولربما أدركت أنه لن يحضر قريبًا، ولربما قال أبي شيئًا في التليفون مختلفًا تمامًا، ولكن لم تشأ أُمِّي أن تشركني في ذلك، ناهيك عن عائلتي "رادوفيتش"، و"جويكوفيتش".

من الواضح أنهم تجنَّبوا الحديث مع أُمِّي بشكل مباشر، حتـى لا يعـذبوها، وأيضًا لأن الحديث في السياسة مع سلوفينية من كُرواتيا قـد يمثـل خطًّـا أحمـرَ تلك الأيام. لقد افترضوا أن لديها رأيًا حول كـل شيء يجـادلون فيـه كـل ليلـة في غرفة المعيشـة، ويبـدو أن قبولها لكـل مـا يُخَمِّنـه هـؤلاء الصرب نظـرًا لرأيهـا السـلوفيني الكُـرواتي المخـتلط. لـذلك اسـتمروا في عـرض الأشـياء عـلى أُمِّـي، ويسألونها إذا كانت تشعر بالبرد في الليل، أم تفضل النوم عـلى الكنبـة في غرفـة المعيشة، هل تريد التليفون، أو تريـد شـيئًا مـا مـن المتجـر، أو تحـب أن تأخـذ جولة في القرية الجميلة، ومئـات مـن الأسـئلة التـي تهـدف إلى راحتهـا، وأيضًـا لجعلها بعيدًا عن الاسـتفزاز فتقـول شـيئًا وتعـبر عـن رأيهـا. يبـدو أنهـم كـانوا يتناسون وجودها أثناء نشرة أخبار المساء، ولكن لاحظت أنهم حريصون على ألا يثيروها دون قصد لتشارك في مناقشاتهم، ولم يسـألوها إطلاقًـا عـن رأيهـا. فـإذا ذُكـر السـلوفينيون أو الكُـروات، يتظـاهرون بأنهـا لا تنتمـي إلى أي مجموعـة، ويسألونها بدلًا من ذلك إذا كانت ترغب في مشاهدة المسلسل الأمريكي "تـوين بيكز" الذي يعرض على القناة الثانية.



قضيت أنا و"ميشـو" أمسـيات كثـيرة في المطـبخ. ولأن "جوفانـا" التزمـت غرفة النوم ولم ترغب في صُحبتنا، فكنا نلعب الكوتشـينة، أو لعبـة الحـظ، أو نكتفي بمجرد الكلام. وعلى الرغم من أن "ميشـو" أصـغر مِنِّـي بعـام ونصـف العام، فإنه مهتم إلى حـد كبـير بأشـياء غـير عاديـة، لا يمـت شيء منهـا بصـلة للأحداث الجارية في بلدنا الذي على شفا صراع مسلح، كـما ظلـوا يقولـون في

نشرة أخبار المساء. أراد أن يعرف كيف ننطق بعض الكلمات في "باولا"، وما الكلمات التي نستخدمها وهو لا يعرفها. لقد وجد أن جميع الكلمات الإيطالية التي يتلفَّظ بها الناس أثناء محادثاتهم مضحكة، وكان يجعلني أردد الكلمة العامية لـ"فوطة" šugaman في لغتنا؛ إذ إن وقع نطقها مضحك جدًا. كانوا يرسلوننا أنا و"ميشو" إلى المتجر، وسوق الخضار لنشتري الخضروات، وإلى جارنا من أجل العسل والمشروم، أو إلى "ميرزادا" مصفف الشعر. خلال الجولات المضنية التي يمكن أن تمتد إلى ساعات عديدة، أراني "ميشو" العجائب بمختلف أنواعها، كُنَّا غالبًا ما نلتصق بنافذة في متجر بيع كتب صغير في تلك المدينة الصغيرة. أراد "ميشو" أن يريني جميع المعاجم اللغوية التي يوَدُّ أن يشتريها. بقدر ما يعنيني "هيمان" اللعبة الكارتونية، تعنيه القواميس الفرنسية - الصرب كُرواتية. لقد حاول بكل الحيل أن يأخذ أباه "دانيلو" ليشتري له قواميس. المشكلة الوحيدة، بجانب أن "ميشو" أقل مِنِّي في الدهاء واتساع الحيلة، هي أن سعر لعبتي البلاستيك ثمانية دنانير صربية، بينما سعر القاموس أربعون دينارًا صربيًّا. لذلك احتفظ "ميشو" بقاموس جيب إنجليزي - صربي كُرواتي أهدته له جدته من البوسنة في عيد ميلاده التاسع.

من كل جولاتنا التي سرناها على أقدامنا، واحدة فقط حفرت نفسها في ذاكرتي. كان يوم أربعاء، أتذكره لأن أبي كلمنا فيه آخر مرَّة، حتى إننا بعدها صرنا نقول: "نيدلكو لم يتَّصل منذ يوم الأربعاء". الجو رطب بشكل فظيع، كُنَّا أنا و"ميشو" نجلس بجوار أحد الأكشاك في سوق السمك. هناك امرأة مجرية كانت تبيع الجينز، وكلما جاءها أحد من المجر الذين في "نوفي ساد" بكثرة، تكلمه بلغتها الأصلية. حاول "ميشو" أن

يقنعني بأن هذا هو الحال هنا، وأن اللغـة المجريـة أظـرف لغـة في العـالم، وأن التَّنصُّت على اللغة المجرية تجربة لا يمكن أن تفوتني.

لذلك تسكَّعنا في السوق، كقُنفذين منبوذين، في انتظار سيدة الچينـز حتـى تتكلم باللغة المجرية. ولكن، كما لو كانت تغيظنا، راحت تنادي الجميع كما لو أنها صربية تعتز بنفسها:

- هَيَّا، جرب هذا الچينز المضبوط، والعن الأزمة! هيَّا يا فتى ماذا وراءك؟ يا لعارك يا أخي! تعالَ هنا واصنع منك رجلًا، هيَّا يا جدو! ألا تحب أن تكون رجلًا على الموضة؟ يا مدام! عندي كل شيء لابنك أو زوجك أو حبيبـك أو أي شـخص آخر!

وهكذا، وهلُمَّ جرًّا، حتى كدنا نحترق من الحرارة، وحتى تعبت من نفسها، وهدأت لثانية.

في تلك اللحظة، تقدم رجل عجوز يرتـدي بذلـة مـن ثـلاث قطـع، وكرافتـة، يبدو كمقدم على الانتحار البطـيء بأناقـة. وقعـت عينـاه عـلى الچينـز. لكـزني "ميشو" بكوعه بشدَّة، ورأيت أنه كان على وشك أن يضحك، ولكنـه دارى ذلـك عن المرأة وزبونها الجديد، اعتقدت أنه سيضـحك عـلى صـدار الرجـل العجـوز، ولكنه همس:

- اسمع!

وللمرَّة الأولى أتنبه أن سـيدة الچينـز والرجـل الأنيـق يتحـدثان، ولكننـي لم أسمع شـيئًا، كـأنهما يتعمـدان ذلـك. ولأن "ميشـو" كـان أقـرب فكـان يضـحك بابتهاج، وافترضت أنه يسمعهما يتحدثان بالمجرية.

اقتربت منهم أكثر، لكن ما زلت أسمع فقط أصوات السـيارات، وشـابًا عـلى بُعـد أمتـار يبيـع العُملـة الأجنبيـة. في الوقـت نفسـه، اشـترى الرجـل ذو

الصدار الچينز وغادر، وكل ما حددته هـو اللغـة الغريبـة، المختلفـة تمامًـا عـن الصربية.

في طريـق العـودة، مـا زال يقهقـه، علمنـي "ميشـو" المفتـون أن كلمـة "في صـحتك" بـالمجري هــي "egeshegedre". وراح يقلــد المجــريين الســكارى، ويضحك، ما أضحكني هو "ميشو" وليس كلمة "egeshegedre". لقـد أُعجـب بأشياء لا يعجب بها أصدقائي في "باولا". بينما أخذ "ميشو" يردد الكلمة المجرية الوحيدة التي تعلمها أكثر من عشرين مرَّة، وجدت أن "باولا" أفضل مـن "نـوفي ساد". وجـدت أنـه أكـثر متعـة أن تـرى رجـلًا بـورم أحمـر في رأسـه في منطقـة السباحة في "فلكان" عن أن تسمع أناسًا عاديين يتحدثون لغة أجنبيـة. وفكـرت كم هو لطيف لو عدنا أنا وأُمِّي إلى هناك بأسرع ما يمكن.

أمام مدخل عمارتنا، كان هنـاك شـابان ينتظـران، تفحَّصـانا عنـدما اقتربنـا. يلبس أحدهما قُبَّعة البيسبول وهو يدخن، أما الآخر فكان له شارب خفيف من شوارب سن المراهقة، يخشى أن يحلقه مخافة ألا ينبت مرَّة أخرى. حـدَّق الأول فيَّ وحاول أن يظهر بأنه رهيب، كـما يفعـل الأشرار في الأفـلام الأمريكيـة، بيـنما أوقـف الآخـر "ميشـو" الـذي لم ينتبـه لوجـودهما لأنـه كـان مُنهمكًـا في اللغـة المجرية.

- "ميشو" يا فتى، هل هذا هو الكُرواتي المقيم عندكم؟

أعرف إلى أين تقود هـذه الأسـئلة، فتخـدَّرت لثانيـة، أعـرف أن مرشـدي في "نوفي ساد" ليس واسع الحيلة. ولكن إجابة "ميشو" أذهلتني كما لم تفعل إجابة لا من قبل ولا من بعد.

- ليس كُرواتيًّا. أبوه يقتل الكُروات!

اندفع "ميشو" تاركًا المعتوهين المدهوشين، وبينما كنت أتبعه، ظللـتُ أقنـع نفسي طوال الطريق بأنني لم أعرف عمَّا كان يتكلم.

9



بعـد سـتة عشر عامًـا، صـحبتني إجابـة "ميشـو" كالموسـيقى المزعجـة طـوال الطريق من "غورازدة" إلى "نوفي ساد"، على طـرق البوسـنة والصرب الـوعرة. كـان يعرف هذا الصبي ذو الـعشر سـنوات، والأصـغر مِنِّـي بسـنة ونصـف السـنة، مـا تحدث به حينئذٍ، ولكنني قرَّرت أن أتجاهل الأمر. كـل طفـل، مهـما كـان صـغيراً، كـان سيكتشـف عـاجلًا أم آجـلًا أن ضـابطًا في الجـيش الشـعبي اليوغوسـلافي، في الميدان في سلوفينيا، لا يمكن أن يكون هناك إلا لقتل الكُروات. على الرغم من أنـه في منزل "رادوفيتش"، لم يُشِر التليفزيون إلى ذلك إلا لما كان الصرب في خطر. الآن، عندما أُفَكِّـر في ذلـك، عـلى الأقـل توقعـت "دوشـا" كـل هـذا، أو ربمـا عرفـت أن عمليات القتل هذه وضعت نهاية لهؤلاء الذين قُتلـوا، ولكـن لـيس للـذين قَتلـوا. كنت متأكدًا، في أيَّام أغسـطس الرطبـة الحـارَّة، وأنـا محـاط بتلـك الأخبـار الأكـثر وحشية، أن "دوشا" بشكل غامض تودع زوجها، الليلة تلو الليلـة، وهـي محشـورة على الكنبة بـين عـائلتي "رادوفيـتش"، و"جويكـوفيتش"، تسـتجمع قواهـا لتشـق

حياة جديدة. تستجمع قواها كي تهرب من مستشفى المجانين، حيـث التليفزيـون يشجع هؤلاء المجانين، يومًا بعد يوم، على الاعتقاد بأنهم أصحَّاء.

قُدتُ سيارتي على الكوبري لِمَا بعد غابات "بيتروفاردان". غاصـت عينـاي في تيارات نهر "الدانوب" التي لا يمكن رؤيتها بوضوح. كانت "نوفي سـاد"، التـي في انتظاري في الجانب الآخر، لم تزل ساحرة، رغم بحثهـا الأبـدي عـن زمـن أفضـل. طفتُ شوارعها المُتربة، وحاولت استكشاف أماكن رأيتها آخر مرَّة منذ ستة عشر عامًـا. بهـذا الأسـلوب، تجنَّبـت عمـدًا الوصـول إلى وجهتـي؛ منـزل "دانيلـو رادوفيتش". بدلًا من ذلك، شاهدت أهل "نـوفي سـاد" يتجوَّلـون في مـدينتهم في يوم شتوي جميل، من مأواي الدافئ المتحرك. بخطوات سريعـة، معتـادين عـلى برد "بانونيا" القـارس، يتحركـون مـن محـلات تصـفيف الشـعر، إلى المخـابز، إلى السـوق والمحـلات الصـينية. لم أرَ هـؤلاء النـاس يلتفحـون بكوفيـات إطلاقًـا، لم أتعرف إليهم في هذا الجليد كما هم في ذاكرتي.

سرعان ما تحوَّلـت نظـراتي مـن الوجـوه إلى الجـدران، التـي كانـت ممتلئـة بالخربشات. صارت جدران "نوفي ساد" التـي كانـت جميلـة في يـوم مـن الأيـام تتوارى بشكل سيئ وراء حشود المواطنين المندفعين، تهـدد الجميـع؛ المجريـون، والألبان، والكُروات، والغجر، والشواذ، والمتعهدون... حوائط "نـوفي سـاد" تـؤمن بأن كوسوفو صربية، وأن الجنرال "ماديتش" بطل، وأن الشواذ مرضى، وفوق كل شيء أن "الوحدة فقط تنقذ الصرب". اشتعلت حرب جديـدة عـلى الجـدران، بـين رموز "شتنك" المرسومة، والصلبان المعقوفة النازية، بينما الناس المحليون كان مـن الواضح أنهم اعتادوا عليها، فيمرون دون أن يلاحظوها. ولربمـا اعتـادوا أن يقولـوا

"دعوهم والجرافيتي فهم مجرد أطفال"، ثم التزموا الصمت، وأشاحوا بوجوههم بعيدًا عن هذه الكتابات على جدرانهم العتيقة، خلفية مدينتهم. أقنعوا أنفسهم أن هذا لا يخصهم، ينظرون إلى الأرض ويقولون "سيغسل المطر كل هذا".



صعدت درجات السُّلَّم التي أخذني عليها "دانيلو" بكل حماس إلى شقَّته. لم يزل السُّلَّم مُزريًا كما كان قبل ذلك. ارتسمت أمام عينيَّ الذاكرة، كأنما لم يتغير شيء طوال هذه السنين. حتى خوفي الذي كان يزيد مع كل درجة سُلَّم، بدا كأنه صدى للخوف الذي انتابني في المرَّة الأولى.

لم يكن وصولي معلنًا هذه المرَّة. لم أعد ابن "نيدلكو بوروجيفيتش" الممدوح، ابن عم "دانيلو". انقطعت صلتي بعائلة "رادوفيتش" من مدة طويلة، اقتربت نحو الباب كشخص غريب. طبقًا للقواعد غير المكتوبة، والناس يلتزمون بالقواعد غير المكتوبة أكثر من المكتوبة، يجب ألا أظهر دون هدية في يدي. ولكن القواعد في هذا المكان لم تعد تنطبق عليَّ، أو هكذا أخبرت نفسي، ومن المرجح أن سلوكي غير المناسب كضيف يرجع إلى العالم الفاسد الذي جئت منه. ربما يقولون: "هكذا تجري الأمور في سلوفينيا"، في أحسن الأحوال، سيتساءلون عن أي ضرر متعذر إصلاحه دفعه هذا الصبي الصغير الجميل الذي عاش بينهم ذات مرَّة ليصبح "لاعب تزلج"، كما يقولون في سلوفينيا، مشيرين لحبهم لهذه الرياضة، وهو شيء غير متخيل لهؤلاء الذين يسكنون في سهول سلوفينيا.

أعتقد أن الشيء الذي سيكشفني هو تراجعي الغريزي بعد قُبلة التحية الثانية على الخدِّ، ناسيًا أن الصرب يعطون القُبلة الثالثة. وأعتقد أن ما سيكشفني هو أنني لن أستطيع أن أحضن بنت عمِّي "جوفانا"، كما هو معتاد في هذه الثقافة الحساسة، وسأمدُّ يدي بدلًا من ذلك، مثل الصَّرَّاف الذي زوَّد توًّا تصنيفي الائتماني. أعتقد أن ما سيكشفني هو أنني سأظل أخاطب "دانيلو" و"سافو" رسميًّا، حتى بعد أن قالا لي إنه يجب أن أتوقف عن هذه التفاهات السلوفينية؛ لأنني واحد منهم، ويجب ألا أستخدم غير صيغة التخاطب غير الرسمية. أعتقد أن ما سيكشفني هو آلاف التفاهات التي زادت على المرَّة الأولى، والتي ستفصلني عن هؤلاء الناس، وتجعلني مختلفًا وأجنبيًّا. حينما وقفت أمام باب شقَّة "دانيلو رادوفيتش"، أحسستُ بأنني سلوفيني أكثر من أي وقت مضى، أنني سلوفيني من "ساسي لراسي".



لم أستطع سماع أي شيء من وراء الباب. وهذا يؤكد أنه لا يوجد أحد في المنزل، وإلا لكنت سمعت حركة من أي فرد من هذه العائلة النشطة كالقرود، الأعلى ضوضاء في البلقان. أوشكت أن أستدير وأدق على باب الجيران وأسأل عنهم، حينما سمعت صوت خطوات قادمة نحوي، فتبعها مباشرة صوت قفل ينفتح. انفتح الباب قليلًا، ورأيت رجلًا نحيفًا جدًّا، يكاد يكون "دانيلو"، وإن كان لا يمت بشيء لصورة "دانيلو" التي في ذاكرتي.

- أي خدمة؟
- "دانيلو"؟

- نعم، أنا "دانيلو".

- أنا "فلادان"، "فلادان بوروجيفيتش"، ابن "نيدلكو".

لم يظهر على الرجل العجوز أي رد فعل لما قلت، ولا يوجد على وجهه المُجعَّد اليابس أي تعبير. أخذ يتفحَّصني وهو لم يزل ينظر من خلف الباب نصف المفتوح. وفجأة اقترب مِنِّي جدًّا لدرجة أنني تشممت أنفاسه الكريهة، وحدَّق فِيَّ. بدا أنه ينقب في ذاكرته، ولكن بلا جدوى. اعتقدت أنه ضحية لشيخوخة مبكرة، وأنني مُسحت من ماضيه بلا رجعة.

ولكن بعد ذلك أمال "دانيلو" رأسه بلطف على صدري، وطوقني بذراعيه، وحضنني بشدَّة، فحضنته.

- "فلادان"، أين كنت؟ لماذا لم تخبرني بأنك قادم؟ يا لها من مفاجأة!



توقَّفت الحياة تمامًا في شقَّة "دانيلو رادوفيتش"، كل قطعة من الأثاث كما هي، كأنما لم يمسها أحد طوال هذه السنين. ما زالت نتيجة تقويم مثبتة على باب الدولاب بشريط لاصق. والتليفون موضوع على مقعد صغير في الصالة، والمرآة لم تعلق، فما زالت مسنودة إلى الحائط. الشقة فوضوية الصمت، تذكِّرني لمَّا كانت "جوفانا" نائمة، والثمانية يتهامسون في المطبخ، أُلقي الضوء على الفراغ الرهيب، والهدوء القاتل كالحياة الساكنة.

تبعت "دانيلو" إلى المطبخ، حيث بقايا الطعام الموضوعة على الطاولة للعشاء، أو ما يشبه العشاء. رائحة الطعام توحي بأنه من أسبوع، والموقد ينم عن رجل لا يدخل المطبخ إلا لضرورة الحياة.

- اجلس يا "فلادان"، اجلس يا ولدي، لماذا لم تخبرني بأنك قادم؟

بسرعة نقل "دانيلو" الأطباق من الطاولة إلى الحوض الذي كان بالفعل مُكَدَّسًا، ولكنه استطاع أن يحشر طبقًا ومقلاة. لما دفس المقلاة، انتظر لحظة، ليعرف إذا كانت الأطباق ستستقر أم ستسقط بالماء على أرضية المطبخ. ثم رفع طفاية ملآنة من على الطاولة، وكنس بيده فتات الخبز إلى الأرض، وحاول أن يركلها تحت الطاولة دون أن ألاحظ.

- آه يا عزيزي، أتودُّ أن أحضر لك طعامًا؟

- شكرًا عمو "دانيلو"، لست جوعانًا، ما عليك إلا أن تجلس.

- تودُّ شرب فنجان قهوة؟

- حسنًا.

- قهوة أم كأس شنابز؟ أيهما تفضل؟

- اشرب أنت الكأس نيابة عنِّي، لا ينبغي عليَّ أن أشرب. ولنشرب القهوة معًا. حسنًا؟

تحرك في المطبخ، مرتبكًا، يفتح الأدراج ويقفلها، لا يعرف أين وضع كنكة القهوة، ولا أين ترك البن، ولا أين خبأ السكر. حاول أن يستخرج ملعقة القهوة من تحت كومة المواعين غير المغسولة، ولكن لم يفلح، فتوقف، وعاد يحاول مرَّة أخرى، ولم يفلح. كنت أراقبه وأتساءل ماذا حدث له طوال هذه السنين، لماذا لا يبدو كما أتذكره؟ كان نحيلًا للغاية لدرجة أنك لا تتعرف إليه، فقد تبدَّل وجهه المُدَوَّر، وسكن فيه الإنهاك والتجاعيد.

كان من المحزن أن تشاهده، فلقد بدا كأنما أُهمل عمدًا. يده ترتعش وهو يشغل البوتاجاز، وحينما وضع البن في الماء الساخن، ولما صب الشنابز في الكأس، اعتذر بأنه لا يمتلك شيئًا آخرَ يقدمه. بنطلونه واسع، دفس في وسطه قميصه الواسع جدًّا. لقد فقد كل همجيته السابقة، وابتلع

كرامته السابقة، كرجل كان ذات مرَّة طائشًا وفتى متهورًا، تحوَّل لهذا الكائن المتواضع، الذي لا يستطيع أن يخفي بؤسه عن زائر عابر.

- "فلادان"، يا ولدي، ماذا تفعل هنا؟

- أبحث عن "نيدلكو".

- ماذا؟ هنا؟

- في كل مكان.

- لكنه ليس في "نوفي ساد".

- اعتقدت أنك تعرف أين هو.

صبَّ "دانيلو" لنا بعض القهوة، وجذب كرسيًّا وجلس بجواري. الآن بدأت عيناه تتخبَّأ من رجل يبحث عن مجرم حرب، لقد انطبع لديَّ أنني أخفته.

- كان هنا ذات مرَّة، ولكن من مدة طويلة.

- هل هو على اتصال بك؟

- هل أنت جائع؟ يمكنني أن أذهب إلى السوبر ماركت و...

- لا داعي، أرجوك.

- هل القهوة مضبوطة؟

- مضبوطة.

- هل تريد بعض الحليب؟

- لا... شكرًا.

- يوجد هنا سُكَّر.

- لا... شكرًا... أحب القهوة سادة.

- بالضبط مثل "نيدلكو".

نظرت إلى ذلك الرجل، يبدو ككومة من الدخان الأسود القـاتم، وضـع يـده النحيلة على يدي. ضغط عليها قليلًا، وحاول أن يبتسم، كما لو أراد أن يظهـر لي أنه مسرور لوجودي معه.

- أقصد هل اتصل بك "نيدلكو" في الآونة الأخيرة؟

- أتمنَّى ألا تصدق كل هذا.

- كل ماذا؟

- هذه القذارة التي يتهمونه بها.

لم أمتلك إلا أن أهزَّ كتفيَّ. فكلـمات "دانيلـو" جعلتنـي أشـعر فجـأة بعـدم الارتياح. لقد غمرني شعور بالذنب، لكنني أدركت أنني لم يكن لديَّ خيار لأفعل هذا. فلم أدافع مرَّة من منطلق الغريزة عن أبي، لم أعتمد، ولو للحظة، عـلى مـا أعرفه عنه. ففكرة أن أبي مسؤول فعلًا عن قتـل نـاس أبريـاء أصـابتني بالـذعر، ولكن لم أُفَكِّر في أن أهرب من هذه الفكـرة، لم ألجـأ مُطلقًـا للإنكـار، لم أحـاول بتاتًا أن أقنع نفسي بأن هذا كذب.

على النقيض مِنِّي، كان "دانيلو" حليفًا لأبي.

- لا تصدق، يا عزيزي "فلادو"، أرجوك لا تصدق هذا، فهذا جزء من لعبتهم.

بطريقة غريبة إلى حد ما، شعرت أن كلـمات "دانيلـو" جيـدة، وشـجعت الآن رغبتي المتزايدة في الإيمان بها، لإخفاء شكوكي وما وراءها من مخاوف.

- تستطيع أن ترى أنهم يطاردون مَن يختـارون. وكـما تعلـم لا حـرب دون ضحايا. إلى جانب ذلـك، ربمـا كـان في جيشـه قلَّـة مـن جنـود حقيقيـين، ولكـن معظمهم كان من الناس العاديين، الذين قُتلت عائلاتهم، وحُرقت بيوتهم. كانوا يائسين، غلابة لا أحد معهـم، ولا مـأوى. والآن أخـبرني كيـف يُمنـع مثـل هـؤلاء الناس من الانتقام.

إنه يؤمن بكل كلمة، ويعطي انطباعًا بأنه متحدث يعيد صياغة أفكار متداولة بشكل جيد.

- لو أنهم يريدون أن يروجوا لهذه القصة، فعليهم أن يبدؤوا من أول السطر، ويسألوا أنفسهم مَن قتل عائلات وحرق بيوت هؤلاء الجنود الذين كانوا مع "نيدلكو". إنهم لا يريدون أن يفعلوا ذلك؛ لأنها ستنسف الأساس الذي بنوا عليه أكاذيبهم. لذلك فهم يحتاجون إلى "نيدلكو"، المزعوم بأنه قاتل جماعي ولديه خطة كبرى لمحو الفقراء والأبرياء. إنها مسرحية أخلاقية بشكل أنظف، وليست القصة كلها، من البداية حتى النهاية. إنهم يحتاجون إلى شرير كرتوني، جنرال صربي يخرج من العدم ويبدأ في قتل النساء والأطفال والكبار بلا سبب. لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن توجد بها روايتهم للواقع، فكرة أن الصرب فقط هم الذين يحاربون ويقتلون. هذا هو السبب الذي جعلهم يؤلفون محاكمة دولية في "لاهاي" منهم، حتى يمكنهم أن يسجنوا واحدًا تلو الآخر من الصرب. لأنهم بهذه القصة عن الصرب الشياطين، سيخدمون مصالحهم. لا أحد يريد أن يجمع ثلاث قصص كي يحصل على الصورة الحقيقية لما حدث. عندها سنرى مَن هم فعلًا. وماذا فعلوا. وعندها فقط ستُطرح الأسئلة الصحيحة.

للمرَّة الأولى منذ أن تحرك في شقَّته تظهر حيويته. لمعت عيناه. أعاد اكتشاف معنى وجوده مرَّة أخرى من خلال هذه القصة.

- في هذه الحرب لا تُسرد قصة حقيقية من البداية للنهاية. إنهم دائمًا يتحدثون عن "سربرنيتسا". ولكن لا يتحدثون عن قُرى الصرب التي بعد "سربرنيتسا"، وعن هؤلاء الذين ذبحوا وحرقوا هناك.

صبَّ "دانيلو" قدرًا من الشـنابز وشربـه مـرَّة واحـدة، كأنـه غـير مـدرك لمـا يفعل. لقد كان مُنهمكًا تمامًا في قصَّته، مقتنعًا بكل لفظة قالها.

- يجب أن تعرف ما هو هدفهم من البداية، منذ كوسوفو. إن هدفهم دائمًا هـو تفتيـت يوغوسـلافيا وبيعهـا بملالـيم. مـا كـان "تيتـو" ليفعـل هـذا، ولا "ميلوشيفيتش". وإذا لم يحدث هذا بالملاينة، فلا بُدَّ أن يتم بالقوة. لم يستطيعوا شراء يوغوسلافيا؛ لأننا كُنَّا دولة كبيرة وقوية، فلذلك بـدؤوا في تفتيتهـا إلى قطـع صغيرة. ما أسهل شراء هذه المستنقعات الصغيرة؛ شراء كوسوفو الصغيرة، وقبلها سلوفينيا، وغدًا الجبل الأسود، و"فويفودينا" والبوسنة والهرسك. فرِّق تسُد، هذا هو مخططهم على طـول الطريـق. إنمـا صربيـا الأكـبر والأقـوى تـرفض أن تبيـع نفسها، فادَّعوا أولًا أنها المعتدي، ثم وصفوها بالدولة الفاشية، واتهموها بمليون جريمة حرب، وخطف رئيسها، وفي النهاية، عنـدما ينهـار هـذا الكيـان المسـكين، يأخذونه مجَّانًا، ويـأتون بشـبه رئـيس وزراء، هـذا الــ"جينجيتـيش" الضـعيف، ويزعمون في الوقت نفسه أنهم ينقذون صربيا من نفسـها. كـل هـذا جـزء مـن مخططهم، يا "فلادان" يا ولدي. لقد اشترونا جميعًا. وكـما تـرى، إنهـم ينقـذوننا من أناس مثل "نيدلكو"، إنما أنت وأنا والرَّب والناس نعلم أنه لا أحـد في حاجـة لإنقاذه منه، فهو قاتل من أجل بلده مثلما يجب أن يفعل أي جندي. كما ترى، كل واحد مسموح له أن يحارب مـن أجـل بلـده، مـا عـدا نحـن الصرب، نحـن الذين حاربنا من أجل أنفسنا، صُنفنا بالمعتدين، والغزاة، والمجرمين.

بدأ صوت "دانيلو" يضعف مرَّة أخرى، ومعنوياتـه المتحطمـة تـومض سريعًـا. فقـد أعادتـه كلماتـه للحيـاة مجـددًا، وأرهقتـه في الوقـت نفسـه. مظهـره

الهزيل يتناقض تمامًا مع كلماته العدائية المتصاعدة. إنه الآن يشبه الرجل العجوز الذي يحكي مغامراته لأحفاده بصوت مُرتعش. مرَّت نسمة هادئة على تجاعيد وجهه لا علاقة لها بكلماته. في الوقت ذاته، شعرت بأن كلماته الغاضبة جلبت له قسطًا من الراحة، فكلما أطال في الكلام، ظهر بحالة أكثر سرورًا. في لحظة ما، لم أكن متأكدًا من أنه سيتوقف.

- ألم يتَّصل بك "نيدلكو" إطلاقًا؟

- آخر مرَّة كانت منذ عام. خاف أن تكون شقَّتي مراقبة. هل تعلم عندما تسمع صوتك في سماعة التليفون؟ هذا حدث عندما اتصل، وهذا يعني أن تليفونك مُراقب. فلم يتَّصل ثانية. اتصل فقط عندما ماتت "سافا". اعتذر عن عدم تمكُّنه من حضور الجنازة. كأنني لا أعرف مدى مصيبته.

- هل تعلم أين هو الآن؟

- كنت أتمنَّى أن تخبرني أنت بذلك.

- لماذا أنا؟

- حسنًا... إمممم...

- ماذا تقصد؟

- اعتقدت أنه ذهب إلى سلوفينيا.

- لماذا؟

- لا أعرف... مجرد أحسستُ بذلك... أو ربما قال شيئًا جعلني أعتقد... لم أعد أتذكَّر.

- هل أنت متأكد؟

- ماذا يتوجَّب عليَّ أن أعرفه؟ لقد قال لي إنه يريد الرحيل من هنا... أعلم هذا، وذكرك، فاعتقدت...؟

- كيف ذكرني؟

- أوه يا "فلادان"... لقد مرَّ على ذلك وقت طويل.

- أرجوك.

حاول أن يتذكَّر، حاول أن يتذكَّر كلمات "نيدلكو"، لكنه في النهاية هزَّ رأسه فقط. كان حزينًا من أجلي؛ لأنه خيَّب آمالي، وكان أكثر حزنًا على نفسه؛ لأنه يرى حياته تتلاشى في صمت، يلعن مصائب عمر الشيخوخة التي كبَّلته مبكرًا في صمت. تلاشى أملي بسرعة، وفي الحال أصبح كل ما أريد هو أن أساعد هذا الرجل الحزين ليسترد جزءًا من احترامه لذاته قبل أن أغادر.

- كيف حال "جوفانا" و"ميشو"؟

- "جوفانا" في أمريكا.

- حقًّا؟

- نعم.

- وكيف حالها؟

- بخير، على ما يُرام، أعتقد هذا.

- أين في أمريكا؟ في أي مدينة؟

- مَن يعرف؟ لقد انتقلت العام الماضي... "سياتل" على ما أظن.

كان "دانيلو" يزحف إلى الخلف في داخل نفسه ويغلق الباب. فتلك الحياة الصغيرة التي تراكمت فيه، تتقلص الآن، ولا حتى ذكر ابنته يمكن أن يوقظ شيئًا فيه. فكلما كانت القصة تخصُّه، كان أكثر إلهامًا، وكلما ابتعد عنها، تصبح بلا قيمة.

- وماذا عن "ميشو"؟

- في بلجراد. يدرس.

- وماذا يدرس؟

- أتعتقد أنني أعرف؟ غير مسموح لي بسؤاله عن أي شيء.

لم يستطع أن يُخبئ خيبة أمله هذه المرَّة. فها هي صورة عـن حياتـه آتيـة، صورة مرسومة على خطوط وجهه المُنهـك، الـذي دبَّ فيـه العجـز قبـل الأوان. بمرور السنين، صارت شقَّته، التي كانت في يوم من الأيام تضجُّ بالنشاط والحياة، مقبرة تتبعثر فيها عظام الأحلام غير المحققة لتتعفَّن كلهـا في الصـمت المشـؤوم. لقد توقَّف زمنه وثبت في مكانه، مُكبَّلًا بمخاوفـه مـن الغـد، لم يقـدر أن يجمـع القوة الكافية ليمضي إلى الأمام. أُفَكِّـر كيـف أن هـذا الرجـل، الـذي عـاش عـلى حافة آمنة من الحرب، لم يرَ فعلًا نهايتها. على عكس "جوفانـا"، كـان أكـبر سـنًّا من أن يهرب إلى الجانب الآخر من العـالم. مـن المسـتحيل الآن معرفـة إذا كـان مذنبًا بأي شيء. لا أعرفه بما فيه الكفاية لأعـرف إذا كـان يسـتحق هـذه الجثَّـة التي يعيش فيها، ولكن لأنه يجلس أمـامي بـلا روح، فهـو يبـدو مثلـه مثـل أي شخص آخر من الضحايا الأبرياء لهذا الجنون اللا نهائي.

- فلتبقَ معي قليلًا.

- لا أستطيع يا عمو "دانيلو"، أوَدُّ أن أذهب إلى "ليوبليانا". المسافة طويلة.

ابتسم "دانيلو" وأومأ. كان هذا مجرد شيء آخر مـن سلسـلة الهـزائم، كـان يمثل لي هذا الشيء الكثير والقليل في الوقت ذاته.

- سر على مهلك. فالشرطة على الطريق.

- سأفعل ذلك، شكرًا لك.

نهضت وتوجهت نحو الباب، بينما "دانيلو" لم يزل على الطاولـة. بـدا حتـى أنه لم يقدر أن يودعني ولو بنظراته. أمسكت بمقـبض البـاب، واسـتدرت نحـوه مرَّة أخرى:

- ألم يتصادف وعرفت قصة "ميلوتن" و"آجنيس"؟

نهض دون أن ينظر إليَّ، وبينما يقترب، لمحت التليفون الأخضر عـلى طاولـة صغيرة في الصالة، حيث وقفت "دوشا" وهي تتحدَّث إلى "نيدلكو". فجأة رأيتهـا تتوقَّف لحظة وهي في طريقها إلى المطبخ، تُحـدِّق في هـذا الشيء الـذي لم يـرنَّ لأيام عديدة، ورأيت تعبيراتها المُستاءة، التي تفحَّصت بها وعذرت هـذا الجهـاز الأخضر الصامت. وتذكَّرت - لما رأيتها في ذلك الوقت – عندما بـدا لي أن انتظـار رنينه سيمتد لفترة أطول.



10



لا أعرف بالضبط كم من الأيام مضت منذ ذلك الأربعاء حينما اتصل أبي لآخر مرَّة ووعدنا بأنه سيأتي لنا، أو أي شيء آخر وعد به أُمِّي. وقد وقفت في الصالة وأومأت، قبل أن تقرر أخيرًا بأننا لن ننتظر المكالمة القادمة. ربما أدركت أن اضطراب البلاد سيتصاعد حتمًا إلى صراعات وأن الميدان كان رمزًا لطيفًا للحرب التي كان يعدها الجيش الشعبي اليوغوسلافي طوال هذا الوقت، على الرغم من أن جنوده ظلوا لمدة طويلة مقتنعين بأنها لن تحدث. ليس من السهل أن تقر بكل ما تراكم في نفسها طوال الأيام التي مرَّت، أو تطلق ما في نفسها لصوت يتقطع ويطقطق في الطرف الآخر من خط التليفون. وخصوصًا في صالة شقَّة يسكنها تسعة أفراد، فعلى الأقل سيمُرُّ واحد بجوار التليفون كل دقيقة أثناء أحاديثهم.

حتى يومنا الأخير هناك، ظلت كل من عائلة "رادوفيتش"، و"جويكوفيتش" تسعى لتخفيف الآلام عن "دوشا"، ولو بقدر يسير، ولكن لم يفهم أحد منهم أن أي صراع عسكري سيكون قاتلًا بالنسبة لها، بصرف النظر عن مدته، أو المتورطين فيه، أو عدد ضحاياه، أو نتيجته

النهائية. وعلى النقيض منهم، كانت "دوشا" مدركة أنـه لا يمكـن لزوجـة ضـابط صربي أن تنتظر زوجها إلا في صربيـا. وهـذا يعنـي أنهـا تضـطر لقبـول الجانـب الصربي كجانبها، وصربيا كوطن لها. لطالما كانت صربيا المكـان الـذي تحـاول أن تبتعد عنه بقدر ما تستطيع. والآن أصبح شـبه مسـتحيل أن تختبـئ منـه. ذات مرَّة، حينما كُنَّا نحاول أن ننام، وعلى الرغم من الحرارة المتذبذبة، قالت:

- آه لو أقدر، أن أرحل، مجرد أرحل، حتى لو لـ"ليوبليانا"!

هذا دليل على كم كانت تشعر بأنها حبيسة ويائسة في "نوفي ساد".

أعتقد أن أُمِّي أرادت أن تنقـل كـل هـذا إلى أبي، في المحادثـات الطويلـة في فندق "بريستول"، وفي مكالمات التليفـون في صـالة "رادوفيـتش"، حيـثما كانـت تحاول مرارًا أن يسمعها. ولكن في ذلك الوقت كان قد تم استدعاؤه إلى الميدان، ولم يكن قادرًا على التخلص مـما وجـد نفسـه فيـه مهـما كـان. لم يجـرؤ أبي في أي لحظة على إخبار أُمِّي بأنه لن يتخلَّى عن زيِّه العسـكري، وأنـه سـيظل ضـابطًا في الجيش الشعبي اليوغوسلافي، حتى عندما لم تصبح بعد يوغوسـلافيا، ولم يعـد في خدمة الشعب كله. من المحتمل أنه لم يرد حتـى يسـمع مـا كانـت تخـبره بـه، مفضلًا أن يطوي نفسه تحت جناح الضباط الآخرين، الذين كان رأيهـم مفضـلًا على رأيها؛ لأنهم كانوا يقصون عليه القصة التي يحب أن يسمعها. قصة أن كـل شيء سينتهي حالًا، وأن الأمور ستعود لما كانت عليه من قبل.

مَـن يـدري أيـن كـان العقيـد "أمـير مـوزيروفيتش" عنـدما كـان لا يـزال بإمكانـه أن يقـول لـه: "اذهـب، اهـرب بقـدر مـا تسـتطيع، هـذه حـرب لا تناسـب الفـئران، ناهيـك عـن الـبشر!"؟ مَـن يعـرف، ربمـا بالفعـل أخـبره

"أمير" بذلك، ولكن "نيدلكو" لم يرد أن يسمع إلا أوامره، منتظـرًا الصـباح عنـدما يستيقظ ثانية من هذا الحلم القبيح، مُستلقيًا على سريره مرَّة أخرى في "بـاولا"، يطفئ المنبه الفضي، هدية جارتنا "إنيسا"، في عيد ميلاده الثلاثين. لسـوء الحـظ، كان أبي قلقًا من أن يُرى جبانًا. لم يدرك مُطلقًا أنـه في تلـك الأيـام الهـروب مـن الجيش هو الأشجع والأجرأ من أي فعل آخر.

لقد تركه خياله الواسع معلقًا، وقتما كان يمكنه إنقاذه. لو أنـه تخيَّـل فقـط حياة جديدة، حياة من دون الزِّي العسكري، ولو لمجرد ثانيـة واحـدة. لا يمكـن أن يتخيَّل "نيدلكو" نفسه، الضابط في ثالث أكـبر جـيش في أوروبـا، في شخصـية "نيـدلكو" سـائق الأجـرة في نيويـورك، أو "نيـدلكو" المـدير في محـل أحذيـة في "ستوكهولم"، أو "نيدلكو" ناقل الأثاث في "تورونتـو". كـان بإمكـان "نيـدلكو"، في حياته السابقة، أن يتخيَّل أي شيء، ولكن ليس من دون زيِّه العسكري.

لا أدري متى أدركت أُمِّي أخيرًا أن الجـنرال "بـوروجيفيتش" لـن يـتخلَّى عن جنون الزِّي العسكري. أعرف فقط أنها - في لحظـة معينـة - عرفـت أن الرجل الذي سيعود من الميدان في يوم ما، لن يكون زوجها بعـد ذلـك، وأن السؤال الأهم؛ هل سيعود إنسانًا؟ ربما كانـت أُمِّـي تبحـث أيضًـا عـن عـذر لكـل شيء قامـت بـه زوجـات الضـباط الأخريـات كواجـب للشـهيد برَّرنـه بحبهن، وتفانيهن، ورغبتهن في أن يجمعن أسرهن معًا. ألم تكن قـادرة عـلى الحصول على هذا العذر؟ في لحظات اليـأس الشـديدة، تتحـول "دوشـا" إلى إنســان عقــلاني، لا يُبــالي بــأي شيءٍ، وحــذر بشــكل رصــين، ومقاتلــة مــن

أجل البقاء. فقد قرَّرت ألا تكون شهيدة في قصة حياتها الشخصية لحظة هروبها من أبيها.

لذلك في النهاية كان قرار الانطلاق إلى سلوفينيا حكيمًا ومدروسًا جـدًّا. لقـد عرضته عليَّ أُمِّي في البداية مجرد فكرة، ولكنني أيقنت بعدما قالت لي ذلـك إن الصيف الذي نتوق إليه أنـا وأصـدقائي في "بـاولا" لـن يجـيء أبـدًا، عـلى الأقـل بالنسبة لي. ثم شرحت بعد ذلك نيتها لـ"دانيلـو" و"سـافا". أوجـزت في الكـلام، بعبارات واضحة، وبدت مصممة حتى إن المضيِّفين، الذين ظلوا محـافظين عـلى آداب الضيافة، لم يعترضوا.



في الصباح التالي، جاء "دانيلو" يلهـث وهـو ينـزل السُّـلَّم، وراح يصـيح مـن الصالة:

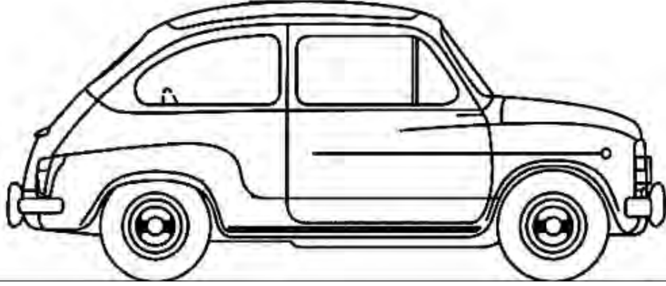
- سيغادر الباص في الخامسة!

كان ذلك بمثابة صفارة إنذار لغارة جوية للصـحبة المجتمعـة، الـذين كـانوا عاكفين على قهوتهم الصباحية لأكثر من ساعة. في الحال، هبُّوا على أقـدامهم في حالة ذُعر. اتَّضح أنني ووالدتي فقط كُنَّا جاهزين بالفعل للرحيل، بينما الآخرون إما غير مصدقين، أو لم يريدوا أن يصدقوا أننا سنمضي مع هذه الفكرة المجنونة. ما كان لليوم أن يمُرُّ دون هرع عام، ونُواح، ودموع، وأحضان، وقُبلات، وكلـمات وداع فخمة تبدو مُفتعلة مثل عويل السيدات في الجنائز الأرثوذكسية. ولكـن لا يزال هناك حزن حقيقي محسوس بين عائلتي "رادوفيتش"، و"جويكـوفيتش" لم يستطع أحد أن يخفيه من الجميع.

أثناء نزولنا على السُّلَّم وسط موكب طويل من التلويح وشهقات الجميع الذين ساروا خلفنا، شيء ما في كل احتفاء الوداع هذا جعلني، وأعتقد أُمِّي كذلك، أشعر بأن كل ما يحدث فظيع. لم يكن في حسباني أن أعتبر هؤلاء الناس عائلتي، ولكن في اللحظة التي رتَّب فيها "دانيلو" حقائبنا للمرَّة السادسة في حقيبة سيارته الـ"زاستافا 101"، واصطفَّ مع الباقي في مدخل العمارة، كالجيش الحزين، صرت أشعر بذلك. أصبحوا عائلتي التي لم تكن من قبل، وأصبحت حزينًا بالفعل لأنني سأتركهم.



11



وفقًا لـ"دانيلو"، كان جَدِّي في الثانية والثلاثين من عُمره عندما أُصيب بأزمة قلبية، ففقد السيطرة على سيارة الشركة "زاستافا 750" وانحرفت عـن الطريـق. مات على الفور، تاركًا وراءه ابنًا في العـاشرة، "نيـدلكو"، وزوجـة مجريـة شـابَّة، "آجنيس". أكَّـد أن أفضـل أصـدقائه دكتـور اسـمه "ميروسـلاف"، جـاء أبـواه إلى "فويفودينا" من الهرسك بعد الحرب، ليزرع - تمامًا مثل "ميلوتين" - الأرض التي تركها الألمان للأرملة الشابة، أنه من الغريب أن يصاب شاب مثلـه بأزمـة قلبيـة مفاجئة. ولكنه أضاف بعد ذلك "قـد يشـيخ القلـب بسـبب مـا رأتـه العينـان". راحت "آجنيس" تردد هذه العبارة لكل مَن يقدم لها العـزاء، ولكنهـا لم تعـرف حقيقتها؛ لأن المرحوم زوجهـا لم يخبرهـا بمـا رأت عينـاه. بعـد أكـثر مـن عـامين بقليل، ماتت جدَّتي بالسرطان، الشيء الثاني الذي لم يخبرني به "نيـدلكو" مُطلَقًـا، إذ اعتاد أن يحتفظ بسرية قصص الأمراض كأنهـا أسرار دولـة. ولم يخـبرني أيضًـا بأنـه - بعـد موتهـا مبـاشرة - دارت قصَّـتها في كـل القريـة، عـن الشـابة التـي تحطَّمـت مـن الحـزن. حتـى صـارت مقولـة "حـزين مثـل آجنـيس" موجـودة

في قريتهـا حتـى الآن، عـلى الـرغم مـن أنـه لا يتـذكَّر أحـد جـمال أرملـة "بوروجيفيتش" إطلاقًا.

وهكذا كان "نيدلكو" في الثانية عشرة عندما انتقل مع ابنة عمٍّ أبيه "فيـدا"، قريبته الوحيدة على قيد الحياة، إلى "نوفي ساد". بعد أعـوام، حكـت لـه "فيـدا" حقيقـة عائلـة "بـوروجيفيتش" منـذ أن جـاءت مـن "زيليكـا" القريبـة مـن "توميسلافجراد" التي أحرقها الفاشيون من "الأوستاشا الكُروات" في صباح أحـد الأيام في عام 1942. لقد ألقوا بجُثث المذبوحين وأطلقوا النار على إحـدى عشرة جثة من عائلة "بوروجيفيتش"، ألقوها عـلى كومـة مـن الجُثَـث يبلـغ ارتفاعهـا أمتار عديدة، مكومة أمام منازلهم المحترقة، ثم وقفوا عليها ليروا ما فعلوه لمدة طويلة، مستمتعين برائحة الرماد الصربي.

على الأقل، كانت هذه هي القصة التي لخصها "دانيلو" نقلًا عن أُمِّه. ومـن الواضح أنها كانت الوحيدة التـي وثـق فيهـا جَـدِّي لـيحكي لهـا القصـة، القصـة الحزينة عن كيف وجد كومة مـن المـوتى أمـام بيتـه، فـيهم جُثَّـة أُمِّـه، وأختـه، وخالاته، وأخواله، وأربع جُثث من أبناء عمومتـه. في ذلـك الوقـت، كـان جَـدِّي الأكبر، "ميلوتين"، في العاشرة فقط؛ طفلًا بشعر أحمر ونمش عـلى وجهـه، قادمًـا من المرعى. بعد عشرة أعوام فقط، وصف بإتقان مُحكم كيف تعرف إلى القتلـة في زيِّهم الأسود من حيث كان يختبئ. وبعد أن انتهوا ورحلوا، اقترب بحرص من الكومة، ووقف أمامها. أخذ يلمس بلطـف وجـه أُمِّـه الميتـة المُلطَّـخ بالـدم؛ كي يتأكد أنه لا يحلم. ظل يشاهد هذا المشهد السريالي لمدة طويلة، معتقدًا أن كل هذا مجرد لعبة. من المؤكد أنها ستنتهي حالًا وستعود الجُثَث أحياء مرَّة أخرى.



هذه هي القصة التي عرفها "نيدلكو" من "فيدا" بعد سنوات عديـدة، وهـا أنا الآن بدوري أعرفها من ابنها "دانيلو". كانت تلك قصة أسوأ مـرض في عالمنـا؛ قصة الذكريات التي ستتبعني إلى "ليوبليانا"، والتي أعلـم أنهـا سـتتبعني إلى أي مكان سأذهب إليه.

قال لي "دانيلو" إن "الناس يعتقدون أن هذه أسوأ لعنة حلَّت بهم"، تبعتني كلماته هذه وأنا أسـير في منحنيـات جبـل "فريشـكا جـورا" عـبر سـهول "رومـا" بصربيا، حتى قاطعني بشكل عنيـف ضـابط جـمارك كُـرواتي. رأى هـذا الرجـل، وشعار النبالة يزخرف صدره، أن وجوده يتمثل فقط في منعـي مـن إحضـار أي زجاجة خمر من صربيا إلى أراضيهم، ولكن في خضم مهمته الوطنيـة، اسـتوقفه ذكر "نوفي ساد":

- هل أنت قادم من "نوفي ساد"؟

- نعم.

- وكيف الحال هناك، في هذه الأيام؟

- بخير.

- كانت مدينة جميلة في يوم من الأيام. هل الناس مـا زالـوا يتمشُّـون عـلى ضفة نهر "الدانوب"؟

- أعتقد هذا.

- ما أقبحهم! لو تعرف كـم كانـت جميلـة. رائعـة! والبنـات! لا أعتقـد أنـه يوجد مثل هذه البنات الآن. لقد دُمِّرت هذه المدينة. ولكن حينئذٍ...! مـا زلـت أشعر رغبـة عارمـة في الانتقـام كلـما شـاهدت نهـر "الـدانوب" في التليفزيـون.

أتذكر كل شيء كان يسير عليه هناك... لو أنك تعرف يا "فلادان". لا يمكن أن ترى ذلك بعد الآن. ولا حتى في أمريكا.

أعاد لي جواز السفر، ولكنني لم أكن متأكدًا إذا كان من المعقول أن أتركه في عز لحظات الحنين تلك. أخيرًا، أشار لي بالتحرك. كنت سأسعد باستئناف رحلتي على الطريق، لو أن سيارتي المُتهالكة لم تقرر الإضراب في تلك اللحظة بالذات، التي قاطعت أحلام الضابط الجنسية عن "نوفي ساد"، وأرجعته إلى دوره مدافعًا عن عالمنا.

- وماذا بعد؟

من حُسن الحظِّ أن السيارة أدركت خطورة الموقف وأنقذتنا من أي عدوانية محتملة بعد حنين هذا الضابط المتحرش للضفة اليُسرى لنهر "الدانوب" وكأنه دلماسي. لا أعرف لماذا، ولكنني دائمًا أخاف من هؤلاء الناس الذين يصبحون عاطفيين بهذه الطريقة. لقد انتابني شعور بأن مثل هؤلاء الرجال قُساة المظهر من البلقان، أولئك الذين تجلب أغانيهم الرقيقة الدموع، أكثر خطرًا من الوحوش الذين تجدهم في تلك البيئة الموحشة. في مُخَيِّلتي، مطربو هذه الأغاني قادرون على الأعمال الوحشية، التي يمكن للناس الأقل عاطفة أن يتخيلوها. يمكن أن أتصور ضابط الجمارك يدندن برقة على خلفية أنغام "التامبوريكا" المتلألئة، بينما يغتصب فتاة في الثالثة عشرة من "نوفي ساد"، ويعتبرها مسؤولة عن عدم قدرته على التمشية بمحاذاة نهر "الدانوب"، مع رفيقة بالغة وهما متشابكا اليدين.

حاولت ذات مرَّة أن أصف لـ"نادية" هذه الحالة العاطفية القاتلة المحتملة. سميتها "متلازمة العاطفة البلقانية الطفولية"، وعرفتها بأنها

"توابل مهمة" في عمليات قتل الإخوة والأخـوات غـير المعقولـة، التـي مورسـت بشكل طقسي في هذه الأنحاء منذ خمسين عامًا تقريبًا. لربمـا تـم اعتبـار آخـر حلقة في سلسلة الإبادة الجماعية المحلية أنها عمدًا مع سبق الإصرار، كـما كـان ذلك واضحًا بطريقة وحشية. ولكن أثناء إنجازها، انتاب هؤلاء القتلة الهواة، بلا شك، حالة من الحنين. فحطموا الأكواب والرؤوس في الوقت ذاتـه، عـلى خلفيـة موسيقى الأكورديون الرقيقة.

هكذا كنت أتخيَّل دائمًا سفك الدماء في البلقان. بالنسبة لي، لم يكونـوا قتلـة مُعدمي الروحانية ينفذون أوامر من فـوق فحسـب. لا، بـل كنـت أتخـيَّلهم، في ظل مخاوفي، يتصبَّبون عرقًا، إخوة مخمورين، يطربون للأغاني نفسها التي اعتـاد ضحاياهم أن يستمعوا إليها في حالات الحب، الأغاني نفسها التي يرقصون عليها في زفافهم. كان هذا أيضًا تشبيهي للحـرب في البوسـنة؛ كابوسًـا ضـخمًا للحنـين، وعربدة دموية للألم النفسي. انتقام للواقعين في الحب، للصبيان غربـاء الأطـوار. ولربما عبارة "مَن يغني لا يـؤذي" دخلـت عقـول المـراهقين في زيِّهـم الرسـمي، حيث غنوا، وأطلقوا النار، ورموا الجُثَث في الخنـادق، وعـانقوا، وقبلـوا وكشـفوا أنفسهم البلقانية الحساسة لبعضهم بعضًا. كل هذا كان يمثل لي مجرد تعـذيب وحزن من أولئك الناس البدائيين شديدي الحساسية.



"تعلم أنه لم يعد له أحد، غيرك أنت ودوشا. عندما أخـذوكما منـه، تهـاوى عالمه كله".

لا أدري مَن الـذي أخـذنا بالضـبط، وإن كنـت أشـك أن هـذه تمثيليـة مـن تمثيليات "دانيلو" عن المؤامرات التي تخيَّلها ضـد صربيـا والصرب. ولكـن فكـرة أنه ينقل رسائل ما زالت تُوتِّرني. قد يبدو حقيقيًّا أن هناك اعترافًا بسـيطًا خفيًّـا بأنه من المحتمل أن يكون "نيدلكو" قد ارتكب بعضًـا مـن هـذه الجـرائم التـي يطاردونه بسببها. وأن هناك مبررًا ضمنيًّا لهذا.

مررت أثناء قيادتي السيارة، بالساحة التذكارية الخاصة بسقوط جبهة "سيرميا". فجأة خطر ببالي بأن "نيدلكو" قد يكون واحدًا من هؤلاء المُختلِّين اجتماعيًّـا، ومعـه كتيبة من المعتوهين تحت قيادته، وقد شهد مرتكبـي الجـرائم في كـل مكـان. ربمـا عقله كان مُشوَّشًا بألم الابتعاد عن أسرته، ولم يمتلك إلا أن يسير وراء ألمـه، ويخضـع له، ثم يُصعِّده إلى فورة قتل.

يبدو أنه لم يعد من المستحيل أن أبي قد سـوَّى بـالأرض قريـة كاملـة مكتظـة بالنسـاء والأطفـال. لقـد رأيتـه وهـو يشـاهد الجنـود الهـائجين بعينـين دامعتـين، يستمعون لصرخات بربرية صادرة من المساجين المحكوم عليهم بالإعـدام بجانـب دندنات كئيبة من مُغنٍّ شعبي محلي. تخيَّلت كيف تقع توسُّلات الرحمـة في أذن معتادة على أغاني حب قديمـة، وصرخـات هـذه التوسـلات لا تثـير سـوى سُـباتها العاطفي. لربما يعرف "نيدلكو" حقًّا كيف يحرق الأحياء، وكيف تشـاهد الأمهـات أطفالهن يموتون، وكيف يقتل الجنود الصبية - الـذين لم تـنمُ لحيـتهم - العـواجيز الحَدَبةُ، ولكنه لا يستطيع أن يجذب نفسه بعيدًا عن هذا الجنـون المؤقـت. كـان مُستغرقا في ألم الشعور بأنه تمت خيانتـه، وغشُّـه، والاحتيـال عليـه، فـزرع المـوت ليعاقب الحياة التي سلبته من أبسط شيء أحبه. كان محبًّا وزوجًا، وأبًـا مخـدوعًا، إذًا فليطارد قاتل سـعادته. ربمـا "نيـدلكو بـوروجيفيتش" في الليلـة السـلوفينية في

"فيتسينتش" أراد أن يقتل الحرب الملعونة نفسـها، ويفرمهـا، ويحرقهـا، ويعـذبها، ويهرسها، ويذبحها، ويقطع أوصالها، ويضعها على ركيزة أمامه. أراد أن يحطم كـل شيء أدَّى إليها، كل واحد شجَّعها، أو اشتاق إليها، أو حلـم بهـا. أراد أن يقتـل كـل مَن كره، وحرض ونادى بالموت. من المرجح أن "نيـدلكو" كـان يقتـل ويحـرق كـل هؤلاء في تلك الليلة.

مَن يدري، لو أن "نيدلكو بوروجيفيتش" استيقظ تمامًا من أوهامـه، ووجـد نفسه مُغطَّى بالدم المُجلَّط، واكتشف بدلًا مـن الحـرب أنـه فقـط ذبـح أربعـة وثلاثين شخصًا بريئًا، وأنه في الوقت الذي تحوَّلت فيه ناره إلى جمرات أكثر مـما سبق، أضرمت قرية نار الحرب، وانتشرت دون توقف عبر نهر "سافا".



توقَّفت على جانب الطريق في مكان بين مخـرج "أويسـيجك"، و"سولافونسـكي برد"، وخرجت من السيارة. بالكاد استطعت التنفس. بذلت ما في وسـعي كي أضـع نفسي مكان "نيدلكو"، في عالمه الداخلي المضطرب، الـذي ضـاق بـه صـدري. كنـت أرتعش، والدموع في عينيَّ، وأسناني تصطكُّ. صفعت الباب وركلت الدرابزين حتـى آلمني، ثم توقَّفت. صرخت في الفضاء تجاه المجر، حيث تظهر البيـوت مـن بُعـد في الظلام. كانت الطريق خالية إلا من عواء الرياح الـلا نهـائي وهـي تضرب في سـهول "بانونيا". اعتقدت أن ليلة الثالث عشر مـن نـوفمبر لا يمكـن أن تكـون مثـل هـذه الليلة. قليل من الأضواء تومض في الأفق الضبابي. قرى في انتظار نهايتها.

كنت غاضبًا جدًّا. غاضبًا من الشخص الذي كان يعني لي الكثير في يوم من الأيام، ولكن في يوم ما تحوَّل إلى وحش. رفضت في تفسيري الخاص بي أن أُؤمن بتحوِّله؛ لأنني ما زلت لا أريد أن أتفهَّمه. فالتفهُّم يعني التبرير، ولا أريد شيئًا في هذا العالم يبرر أفعاله؛ لأنه لا يوجد قَدَر شخصي بالفظاعة التي تبرر ما فعله.

أردت أن أتخيَّل "نيدلكو" جنديًّا مُتفانيًا رأى محو قرية من على وجه الأرض مجرد مناورة عسكرية أخرى، ضرورية لتحقيق هدف متوقع. التفكير في ضابط يتجوَّل بين المنازل المُدَمَّرة ليتحقَّق من أن جنوده نفَّذوا المهمة المُوكلة لهم بحذافيرها - ولم يتركوا حتى إهمالًا سيدة ملازمة الفراش على قيد الحياة - أمر غير مفهوم على الإطلاق، وهذا ما هدَّأني. فمثل هذه الشخصية لا يمكن تفهُّمها، ولربما هذه الحقيقة أراحتني. كان من السهل تقبُّل فكرة أن "نيدلكو بوروجيفيتش" تجرَّد من إنسانيته بين عشيَّة وضُحاها، وتحوَّل إلى آلة قتل ميكانيكية، ولذلك، لم يعد أبي. من السهل تخيُّل أن هناك شخصيتين مختلفتين تمامًا تحملان الاسم نفسه، وكانت ثانيتهما نتيجة مرض رهيب، أو صدمة، أو أيًّا كان. في تلك اللحظة، يصبح أي شيء أسهل من ذي قبل؛ فكرة أن الناس يموتون بينما هو يفكر في "دوشا" وفيَّ.

كنت على وعي تام بأنني يجب أن أجده؛ لأنه الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يرفض هذه الفكرة الساذجة الطفولية، ويشرح لي ماذا يدور في عقلية شخص عندما يجد نفسه في خضم قتل جماعي. هو الوحيد الذي يمكنه أن يحررني من التورُّط في هذا السيناريو المُرعب.

وفي النهاية، هو مُدان لي بذلك.

12



الشيء الوحيد الذي أتذكَّره من الرحلة الأولى إلى "ليوبليانا" هـو يقظـة زملائنـا المسافرين. لم يحاول أحد أن ينام. لم يتدلَّ رأس واحد من الإرهاق، ولا حتى للحظة. على ما أتذكَّر، كان كل مَن حولنا جالسًا معتدلًا، ويترقب نافد الصبر بشـكل واضـح. حدَّقوا في الظلام الذي شققنا فيه طريقنا إلى وجهتنا ببُطءٍ. كانت أُمِّـي بكـل تأكيـد مستيقظة تمامًا طول الليل، وتُلِحُّ عليَّ من وقـت لآخـر أن آخـذ قسـطًا مـن النـوم، مرددة أن الرحلة طويلة جدًّا، وقد أُصـاب بالإرهـاق إن لم أغلـق عينـيَّ ولـو قلـيلًا. ولكن فكرة أنني، في سن الحادية عشرة، سيكون لي أخيرًا أجداد، الذين هم بالفعـل في انتظارنـا، فكـرة مثـيرة. كـان المسـافرون الآخـرون ينظـرون إليَّ طـول الليـل،

كما لو أنهم يتعجبون، كيف لِمَن في سنِّي ولا يدرك الرُّعب الذي يشعرون بـه، لا يغالبه النوم.

لن تكون مدينة "ليوبليانا"، التي وصلنا إليها في أغسطس 1991، بعد ثـلاث عشرة ساعة سفرًا، مشرقة وحالمة أبدًا مثلما كانت في ذلك الصباح. الجو لم يـزل صيفًا، ولكن الهواء كان به قسوة الريح الشمالية. كنت غاضبًا من السائق، الذي كان يغفو على المقعد، أثنـاء انتظارنـا لنسـتقل البـاص إلى قريـة أجـدادي. لقـد جعلنا ننتظر خارج الباص حتى دقَّت الساعة السابعة والنصف بالضبط، موعـد المغادرة. وساعتها فقط تمطَّى، وأشعل سيجارة، وخرج مـن البـاص، ومـنَّ علينـا بفتح شنطة الباص. ثم أخذ يراقبنا بسرور خفي ونحـن نناضـل كي نرفـع الأربـع حقائب وصندوقين من الداخل. وبعد كـل هـذا، أخـذ مِنَّـا رسـومًا وهـو يشـعر بالسعادة نظير مجهودنا، بالإضافة إلى رسوم إضافية للأمتعة.

وهناك فقط، في محطَّة باصات "ليوبليانا"، أمام منـدوب مـزعج لهيئـة النقـل العام لسلوفينيا، سمعت أُمِّي تتحدَّث بلغة أجنبية. السـلوفينية، اللغـة التـي كـان ينبغي أن تكـون لغـة أُمِّـي الأصـلية، لـو لم تصر عـلى فرارهـا بعيـدًا عـن أسرتهـا، وتواصل حياتها باللغة الصربية الكُرواتية المُـكسَّرة، حتـى لمـا كانـت تتحـدَّث مـع طفلها. كانت "دوشا" تتعثر في الكلام وهي تحكي الحكايات الخرافية، وتنـتهج لغـة خاصة بها في أغاني الأطفال، حتى إن أبي كان يجد المتعة في مشاركتها الغناء المـليء بالأخطاء، حتى بعد سنوات عديـدة، بعـد أن تحسـنت لغتهـا الصربيـة الكُرواتيـة اقتربت من النغمة العسكرية. في ذلك الصباح المشرق، عندما سـألت أُمِّـي سـائق الباص المُزمجر بعـض الأسـئلة بالسـلوفينية، لم أفهـم كلمـة واحـدة. ولكـن طـوال

الطريق، انتابني شعور بأنني لا أعرف الشخص الذي يتحدث من داخلها. هذه المرَّة الأولى التي أشعر فيها بأن أُمِّي غريبة عنِّي، ولما توقَّف الباص أخيرًا ونزلنا، مع قلَّة من الركاب الآخرين، أحسستُ بأنها واحدة منهم، واحدة من هؤلاء الناس الغريبة الذين يتحدثون بلغة غريبة.



كان تعبير وجه "دوشان بودلجار" عندما رآنا على عتبة المنزل، بست قطع من الأمتعة، تعبير رجل يريد أن يغلق الباب بسرعة ويتظاهر بأن كل هذا كان مجرد حلم. لم يكن جَدِّي بالشخص الذي يسعد بالدليل القاطع عمَّا كان يراه صحيحًا، مثل ضغط "دوشا" الواهن على جرس الباب. لم يكن جَدِّي في حاجة إلى دليل ليثبت أنه على حق، وخاصة ليس بالشكل الذي أثبتنا به وجودنا. كان لديه روتين منظم بشكل دقيق، وأي تدخل، لا سيما غير المعلن، في جدوله الموضوع بإمعان، يعتبر كارثة. من حُسن حظِّنا، في ترتيبه الجنوني وخوفه من تفكير الجيران، لم يحمل نفسه على ترك نساء وأطفال على عتبة داره، حيث يكونون عرضة لجواسيس القرية فيروهم. أخيرًا، هزَّ رأسه هزَّة تفهَّمها أُمِّي بأنها دعوة لدخولها بأشيائها، ومن المفترض أنا من ضمنها.

حينئذٍ فقط، اندفعت "ماريا بودلجار" بفضولها المعروف نحو الباب. على عكس زوجها، الذي ابتعد عن الطريق بمجرد أن دعانا إلى الدخول، كانت عائقًا متحركًا. كانت مُستاءة للغاية لدرجة أنها لم تقل شيئًا، ولربما كانت خائفة من أنها لو تركت المدخل، سيفوتها شيء مما نريد أن نقوله لها. بالطبع لا أتحدث بالسلوفينية وأُمِّي، بعد ثلاثة عشر عامًا، لم تحب أن

تبدأ محادثة تعلـم أنهـا لـن تنتهـي بشـكل جيـد. لـذلك نجحـت "ماريـا" في أن تتمالك نفسها بالقدر الـذي جعلهـا تعطينـا الشباشـب في أيـدينا وتمشي بنـا إلى المطبخ، حيث "دوشان"، في الوقت ذاته، كان في انتظارنا، وقد رسـم عـلى وجهـه تعبيرات رئـيس الشرطـة الصـارمة. دلَّ هـذا الوجـه عـلى أننـا سنُسـتجوب، وأن الحكم سينزل علينا من فوق. ربما تعرف أُمِّي هذا الوجه جيدًا، فقد جرَّدها من أسلحتها، وجلست على حافة الطاولة، كفتاة صـغيرة خائفـة. أشـار لي "دوشـان" لأجلس بجواره. بعد لحظات قليلة من الصمت، وبطريقته لفتح الحوار سألني:

- ما اسمك؟

قفزت أُمِّي لتخبره، بصوت مُرتعش، وأضافت أنني لا أتكلم السلوفينية، ولكن "دوشان" أعاد السؤال بالنبرة نفسها دون أن ينظر إليها:

- ما اسمك؟

أخبرته أن اسمى "فلادان"، فابتسم على غـير المتوقـع، ومـدَّ يـده نحـوي، وغـير مُدرك لقُوَّته، ضربني على رأسي. مـن هـذه اللحظـة حتـى وفاتـه، كنـت الشـخص الوحيد الذي أظهر لي - قائد الشرطة السابق المُخيف هذا - من تلقاء نفسه علامات واضحة على المودة، أو ما قد يصنفه العلماء في فئة الحب.

سألني بعد ذلك:

- أتريد أن تأكل شيئًا؟

وحرك يده كـما لـو كـان يمسـك بملعقـة متخيَّلـة. أومـأت بالإيجـاب فقـال بسرعة، بنبرة صارمة:

- يجب أن تقول من فضلك.

ثم ابتسم، بلا شك أرجع افتقاري إلي السلوك الحسن إلى أبويَّ السيِّئين. ذلك ما جعلني أُفسِّر أخيراً نظرته الحادَّة كنصل السكين عبر الطاولة إلى أُمِّي.

لذا كانت الكلمة الأولى التـي أنطقها بالسـلوفينية هـي prosim أي "مـن فضلك"، التي رددتها بعد جَدِّي، وجعلتنـي عـلى الفـور المُفَضَّـل لديـه، حقيقـة أعلنها على الملأ بإيماءة تكاد تظهر، ولن تفهمها أُمِّي أبـدًا، ناهيـك عـن القبـول. بطبيعة الحال، لم تعترف لي "دوشا" بذلك، ولكننـي متأكـد مـن أن علاقتهـا غـير المُجدية كانت تتَّسم أيضًا بغيرتها من الاهتمام الـذي كـان يظهـره "دوشـان" لي، ضمن عوامل أخرى كثيرة. كانت تبتسم للمحاولة الأولى التي يتواصل فيهـا مـع حفيده الذي افتقده طويلًا بابتسامات صفراء، من النـوع الـذي لا يسـتطيع أن يخفيها الشخص حتى لو أراد ذلك.



كانت هذه الزيارة الأولى لنـا لبيـت جَـدِّي، فكُنَّـا نُعـوِّض الأيـام المفقـودة. في البداية، قرَّر "دوشان" أنني وأُمِّي يجب أن نعيش من جديد، لحظة بلحظة، حرب العشرة أيَّام لاستقلال سلوفينيا عن يوغوسلافيا، طالما كُنَّا غـائبين عنهـا دون إذنـه. لذلك لُقبت "دوشا"، على الأقل عـلى نطـاق خـاص، خائنـة الدولـة، معتديـة عـلى سيادة دولة سلوفينيا الصغيرة، بالإضافة إلى ألقاب أخـرى غـير محببـة خفيـة بـين كلماته المنطوقة، وصيغ تعجب، وأصوات لا يمكن تحديدها تنطلق مـن "دوشـان" نحوها. اتَّضح أن "دوشان" فقد بشكل لا رجعة فيه إيمانه بالاشتراكية ذاتية الحكـم، وبـ"تيتو"، وبالحزب، وبالإخاء والوحدة، وبحركة عدم الانحياز، وبالطبقات العاملـة، والكثير. كل هذا وابنتـه الوحيـدة في الوقـت نفسـه تهـرب مـع ضـابط في الجـيش

اليوغوسلافي. رئيس الشرطة السابق، الذي بثَّ الرُّعب في يوم من الأيام في قلوب الذين تجاوزوا النظام الاشتراكي، يرحب بسقوط جمهورية يوغوسلافيا الاشتراكية الفيدرالية، أصبح سلوفينيًّا وطنيًّا مؤمنًا بالحدود النموذجية. في خلال حرب الأيام العشرة، وقف بشجاعة في مواجهة الغزاة على الجانب الآخر من جهاز التليفزيون الخاص به. وعندما سار الغزاة بلا خجل مباشرة إلى منزله، في شكل ابنته الخائنة، أطلق على العدو ترسانته الوطنية. لذلك، بعد تلقيها ضربات تلقائية ومتكررة من "دانيلو"، و"ريستو"، وخصوصًا أثناء أخبار المساء، كانت "دوشا" تتلقَّى ضربات قاضية من ميول سياسية مختلفة من أبيها. بالنسبة له، كانت "دوشا" تمثل العدو، واحدة من صرب "ميلوشيفيتش" تحت سقف بيته، التي يضطر أن يسمع كل آرائها، وتعليقاتها، ومناقشاتها، وإهاناتها. في أغلب الأحوال، كان دور العدو مُقسَّمًا بالضبط بين "نيدلكو بوروجيفيتش"، و"سلوبودان ميلوشيفيتش" اللذين لم يذكر "دوشان" اسم أي منهما. يبدو أن قصفه المستمر لم يؤثر على "دوشا" مُطلقًا، وشعرت بأن سلبية "ماريا" في هذه المعركة زادت الأمر سوءًا بالنسبة لها. هناك أيَّام سمعت فيها أُمِّي وهي تبث آلامها لـ"ماريا" الصامتة، تلومها على كلمات "دوشان"، توبخها على تشجيعها له بصمتها من وراء باب المطبخ الموصد. ربما كانت أُمِّي خائفة من أبيها، ربما لم تحبه على الإطلاق، ولكنها لم تعبر عن احتقارها له كما تفعل مع أمها. ربما كانت كلمات "دوشان" تلدغ، ولكن صمت "ماريا" كان يبصق. وكان ذلك خيانة لم تتغلَّب عليه "دوشا" في تلك الأيام، شككت في أن هروب "دوشا" من البيت والبلد لم

يكن من "دوشان" بقدر ما كان بسبب "ماريا" وخضوعها، الذي لم تتقبله طبيعة "دوشا" العنيدة والمتمردة.

بعد أيَّام عدة، وعلى غير المتوقع، أعلنت "دوشا" نهاية حرب الأيام العشرة مع "بودلجار"، وأخبرتنا جميعًا بأنها وجدت وظيفة، واستأجرت شقَّة في منطقة "فوتسين" في "ليوبليانا". كل ما قاله "دوشان" لما سمع ذلك:

- لكل واحد شأنه الخاص.

وبالطبع اختفت "ماريا" في المطبخ دون تعليق. رأيتها فيما بعد هناك، تحاول أن تخفي دموعها، قبل أن تعود إلى غرفة المعيشة، ورأيتها مرَّة أخرى وهي تحاول أن ترسم على وجهها اللا مُبالاة كي تُتيح لها المُضيَّ في هذا الشيء الذي يُدعى الحياة.



وهكذا انتهى بنا المطاف أنا وأُمِّي في ميدان "مارينكو"، الذي أصبح بعد ذلك مباشرة ميدان "روسجان"، في شقَّة مساحتها اثنان وثلاثون مترًا، كانت من المفترض أن تكون بيتي. ومع ذلك، فهذا لم يحدث مُطلَقًا. شقَّتنا الصغيرة ظلت جزءًا من عالم غريب، همَّشني وجعلني أشعر بالوحدة كل يوم، حتى جاء اليوم الذي قلت فيه وداعًا لـ"دوشا". كي أعتبره بيتي، كنتُ في حاجة إلى شخص مِنِّي يكون معي. ولكن معظم الوقت كنت أتعايش مع امرأة متعبة وتائهة، واصلت الهروب مِنِّي ومن حياتها حتى وجدت نفسها تنخرط في حياة "دراجان تشيريتش".

وضعنا حقائبنا الأربع والصندوقين في 13 ميدان "مارينكو" بمساعدة "إيرفان"، سائق التاكسي الودود، الذي مثله مثل الكثير من اليوغوسلافيين

سابقًا. يحملون ذكريات جميلة عن "باولا" منذ أن أدُّوا خدمتهم العسكرية هناك. بعد ذلك بوقت قصير، أصبحت الحياة التي في انتظاري واضحة. في الوقت نفسه تقريبًا، كشفت "دوشا" عن خطتها التي فكَّرت فيها طويلًا بلا شك وهي أن تتحدَّث معي باللغة السلوفينية فقط من هذه اللحظة. بينما كانت تحاول أن تقدم تفسيرًا جوهريًّا متعدد الجوانب لقرارها، من وجهة نظر نفسية واجتماعية، وغيرها، قرَّرت في نفسي ألا أتحدث معها بكلمة سلوفينية، مهما حدث. كان هذا المقاومة الأولى المباشرة مِنِّي لعناد عائلة "بودلجار"، الذي ورثته "دوشا" من "دوشان" وورثته أنا بدوري منها. وبهذه الأحداث الأشبه بالمأساة الإغريقية، أدَّى ذلك إلى أن أُمًّا وابنًا لن يتحدثا معًا باللغة نفسها مرَّة أخرى. تقاربنا وتباعدنا في الحديث والحياة معًا، على الرغم من أنها حاولت أن تُبرِّر قرارها في بعض الأحيان، موضحة أهمية الإلمام بالسلوفينية، ما دمت سأدخل مدرسة سلوفينية مع زملاء سلوفينيين.

سرعان ما أصبحت مبارزات العناد ملمحًا أساسيًّا في شقَّتنا الصغيرة، وفي المصعد، وفي الصالة، وحتى في المحلات. كانت "دوشا" بين جمهور المُشترين للخبز، والبائعة المتعبة، والناس الواقفة خلفنا في غضب، تكرر سؤالها:

- أتريد أن أشتري لك كعكة لفائف الخشخاش؟

أكثر من مرَّة، بينما أظل أنا صامتًا، إلى أن يصيح أحد الواقفين:

- اضربيه، أو اشتريها له، لن ننتظر هنا حتى تعلميه!

مع الأسف، لم يخطر على بال "دوشا" أنني أحتاج إلى حليف، أو صديق، أو أُمٍّ، أكثر من أن أحتاج إلى مدرس حسن النية يعلمني السلوفينية، يعتقد أن الأهم هو أن أكتب مقالات خيالية، وأعمل واجب

الجغرافيا للمدرسة بأسرع ما يمكن. لقد أقنعت نفسها بأنني سأصطدم بحاجز اللغة، ما لم تنقذني لأعوض أحد عشر عامًا لم أتحدث فيها السلوفينية، وتحولني إلى طفلها السلوفيني. كانت "دوشا" تؤمن بأن الاستخدام الصحيح لصيغة الفعل المزدوج، وصيغة الإضافة، يمكن أن تكون بديلًا مقبولًا عن الأب، والأُمّ، والأصدقاء، وحتى البحر. على الأقل، هذا ما اعتقدته حينئذٍ. أنا الآن أقرب للتفكير أنها، بطريقتها الخاصة، وبحب ورعاية الأُمّ، تدعوني إلى الانتقال إلى عالمها السلوفيني، متخيلة أن نجاح الانتقال، أو البدء من جديد، سيجعلني سعيدًا ومسرورًا مرَّة أخرى، كما كنت في "باولا". كنت أصغر وأكثر حساسية من ألا أمتعض، وألا أعترف لها كم أرغب في السباحة في هذا المحيط الذي ألقت بي فيه. أخفيت حقيقة أنني أشاهد التليفزيون السلوفيني، وأردد الكلمات مع المُذيعين والشخصيات الكرتونية، وأنني استوعبت كلمات الناس الغرباء في المصعد، وفي المحلات، وفي أي مكان آخر؛ لاستخلاص المعنى دون أن أسأل أحدًا. وأخفيت أنني كنت أستمع لكلماتها باعتناء، وأحاول أن أفهمها وأتذكَّرها.

حرصت على ألا أجعلها تلاحظ اهتمامي. كلما سمعت الباب ينفتح، حوَّلت قناة التليفزيون بشيء من الحرص، مدركًا أن مشاهدتي التطوعية للبرامج السلوفينية ستشجعها وتسعدها، وسترجح كفتها في مبارزتنا. ربما لم تسمع "دوشا" قولي "مع السلامة" عندما تركنا المصعد بعد أيَّام قليلة من وصولنا إلى الشقة. كنت فخورًا بنطقي السليم لكلمتي الثانية بالسلوفينية وترديديهما بوضوح وصوت عالٍ. عندما أركب المصعد، أتطلَّع لاستخدامها، وكنت أشعر بالإحباط لو كان المصعد خاليًا، فأنتظر أمامه كي يأتي أي راكب لأقول له "مع السلامة" عندما أخرج من المصعد.

بالطبع، لا يتحدث كل مَن في المنطقة بالسلوفينية، فالمعظم يتحدث بلغته الأُمِّ، كالمهاجرين الآخرين من أي مكان آخر فيما يُسَمَّى الآن يوغوسلافيا سابقًا. سبَّبت عبارة "مع السلامة" بالسلوفينية للبعض مشاكل أكثر مما سبَّبت لي، فأحيانًا ينطقونها خطأ، أو غير مفهومة، أو لا ينطقونها بالمرَّة. خلال ركوبي، في الأيام الأولى، في المصعد الذي أثار اهتمامي - لأنه لم يكن لدينا واحد في عمارة "باولا" - سمعت طُرُقًا مُضحكة في نطق الكلمة. فبعضهم يلوي لسانه في أبسط الكلمات السلوفينية، حتى الذين كانوا في الثلاثين، أو الأربعين، والخمسين. أحيانًا كنت أشعر بالأسى من أجلهم، وفي معظم الأحيان أضحك. في كل مرَّة كنت أقطع عهدًا ألا أكون واحدًا منهم، وأن أتكلم السلوفينية، آجلًا أم عاجلًا، بطريقة لا عيب فيها، لدرجة ألا يعرف أحد من أين أنا.



أصبح وضعنا يشبه الحال في فندق "بريستول" باستثناء مكالمات أبي التليفونية في آخر الليل، وذهاب أُمِّي للعمل في مركز طبي بدلًا من التمشية. لم أعرف ماذا كانت تفعل، كانت هناك ضبابية حول اسم مركز طبي. اعتقدت أنه اسم غريب لشركة سلوفينية، ولم تتعِب نفسها في توضيحه لطفل يبدو أنه غير مهتم به. لولا هذا الأسلوب الحتمي في أول يوم لي في المدرسة، لعُدت مرَّة أخرى لفترة الانتظار والتحمُّل المؤقتة لغرفة الفندق 211، حيث انتظرت أن يبدأ العالم في الدوران للعكس، ليعيدني إلى شقَّتنا في "باولا" وأصدقائي.

كانت أُمِّـي تشـاهد الأخبـار كـل مسـاء، بيـنما كنـت، وظهـري للتليفزيـون متظاهرًا بانهماكي في الكتب، أو الرسوم الكوميدية، أسـتمع لكـل كلمـة، محـاولًا فك رموز كل رسالة للكبار في هذه اللغة الأجنبية. ومساءً بعد مساءٍ، تتنهَّد أُمِّي بعمق كرد فعل صوتي وحيد. ظلت أسماء هؤلاء الذين في مركـز مسرح الحـرب كما هي، وإن كانت تنطق بشكل مختلف مما اعتدت عليه. كل يوم يصـبح مـا يجري في الواقع أقل وضوحًا بالنسبة لي. لست أدري لماذا، سواء تنهُّدات أُمِّي أم الطريقة التي أصبح بها مُذيعو الأخبار أكثر جِدَّيَّة. ولكنني اعتراني إحسـاس بـأن الحرب تزداد سوءًا، بدلًا من تلاشيها. ازدادت مخاوفي على أبي. اسمه لا يُـذكر في الأخبار، ولا فكرة لديَّ إذا كان ذلك حسنًا أم سيئًا.

في ظل هذا التوتُّر المتصاعد، الذي خلقه معًـا كـل مـن أسـلوب المدرسـة في هذه البيئة الجديـدة، واختفـاء أبي، حتـى إن العنـاد الباسـل الـذي ورثتـه عـن "بودلجار" استسلم للحظة، سألت أُمِّي:

- متى بابا سيأتي؟

وكانت الإجابة مفاجئة، وغير متوقعة عندما صححت لي الجملة:

- تقصد متى سيأتي بابا؟

حاولت "دوشا" أن تسحب كلمتها على الفور وتعتذر، ولكن دون أن تنطـق كلمة، وفقـط بنظـرة تظـاهرت بـأنني لم أرهـا، وتجنَّبتهـا. ولشـعوري بالإهانـة، تجنَّبتها تمامًا حتى أغلقت أخيرًا على نفسي الحمَّام، واتخذت قرارًا حاسـمًا وهـو ألا أسألها عن أبي نهائيًّا بعد ذلك.

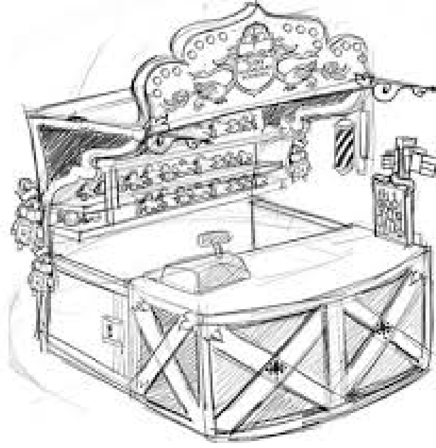
حاولـت "دوشـا"، مـن وراء البـاب المغلـق، أن تشرح كيـف لا تعـرف متـى ستنتهي الأمـور، ولكنهـا متأكـدة مـن أنـه سـيأتي قريبًـا، وأن هـذا عملـه وسـيأتي

متى انتهى منه. كانت تتكلم بالسلوفينية ولا أستطيع إلا أن أُخَمِّن ما تريد أن تخبرني به فبدأت أصيح، وأخيراً غطَّيتُ على صوتها بصياحي:

- أنا لا أفهمكِ، لا أفهمكِ، لاااااااااااا أفهمممممكِ.

وأخذت أصرخ حتى سكتت تمامًا، وانسحبت بعيدًا عن الباب وهي مُحبطة. شعرت بأننا نبتعد عن بعضنا بعضًا للأبد.

13



حتى بعد ستة عشر عامًا، عندما عُدتُ إلى "ليوبليانا" شعرت بأنها كما كانت من قبل، وأحسست بأن الهواء البارد القاسي وهو مُسلَّط عليَّ يريد أن يُبعدني عنها. إنها المدينة التي تلجأ إليها "دوشا" وأنا عندما لا نجد مكانًا نذهب إليه. في كل مرَّة أترك فيها "ليوبليانا" وأعود إليها ثانية، أشعر بأنه يعتريني الشعور نفسه بالقلق وكأنه يعتريني للمرَّة الأولى، الشعور بأنه لا أحد ينتظرني هنا، لا أحد يفتقدني. اعتدت أن آمل بأنه في يوم من الأيام، بعد هذه السنين، عندما أنزل من الطريق السريع مُتَّجهًا إلى المدينة، أشعر بأنني عائد إلى بيتي. ولكن هذا لم يحدث قط، حيث في تلك الليلة، عند النظرة الأولى من على بُعد إلى الصورة الداكنة للمدينة التي أعيش فيها، اتَّجهت بتفكيري إلى شقَّتنا المُوحشة.

كانت دائمًا المدينة المُفَضَّلة لقضاء الليل نومًا. ولكن في تلك الليلة، بدلًا من إيقاظ "نادية"، أيقظت الشاب الذي يبيع فطائر "البوريك" خارج محطَّة القطار. إنسان بسيط اختارته الحياة لتقديم الفطائر الدسمة الألبانية اللذيذة للمواطنين المخمورين في "ليوبليانا" وهم ينتظرون باصات أول الليل.

- أتريد زبادي أيضًا؟

فأومأتُ بالإيجاب، وبعد أن أكلت القطعة الأولى من "البوريك"، طلبت قطعة أخرى، مما جعل منقذي يبتسم ابتسامة خفيفة. كانت تلك قمَّة التواصل بلا شك بين العبد الألباني وزبونه. كان حبيسًا في الكشك، حيثما لا تصل القوانين التي تطبق علينا، نحن الذين في الخارج، أو على الطريق. تساءلت، وأنا ألتهم القطعة الثانية بنَهَم، كما أفعل دائمًا، لو أن هناك مخرجًا من سجنه في الكشك.

كان الشاب نفسه، في الكشك نفسه الذي رحَّب بي بقطعة "بوريك" عندما قبضت أول شيك، وسَكِرتُ للمرَّة الأولى، بعد أن بلغت السادسة عشرة. وجدته هناك في ثلاث أو أربع مناسبات عندما نجحت في المجيء بصديقات سابقات مخمورات. وكان هناك عندما فقدت وظيفتي. لكننا طوال هذه السنين لم يحدث بيننا تواصل إلا من خلال الابتسامات الباهتة.

- جائع؟

أومأتُ بالإيجاب، وفمي مملوء، مما أنهى المحادثة.

- صربيا! صربيا!

- سنذهب للبرررررررجر، البرجر الصربي!

لوَّح ثلاثة شبان في الجانب الآخر من الطريق لرفيقي سجين الكشك، ارتفعت ثلاث أصابع عاليًا رمزًا للتضامن مع الصرب. تأمَّلت، لسبب ما، بروح معنوية مرتفعة، استفزازاتهم الساذجة. يرتدون ملابس باهظة الثمن، وهذا مُمتع بفظاعة. لربما اعتقدوا أن فتى "البوريك" كان يستمتع أيضًا. لكن عندما نظرت سريعًا من خلفي، وجدت أنه بادرهم بابتسامة باهتة كالتي أعطاها لي. الابتسامة التي تخفي الإجابة عن السؤال إذا كان قد وهب حياته للعيش مدفونًا في ذلك الكشك الألومنيوم الأبدي، أم أنهم أعدُّوه لهذا المصير منذ الطفولة. كنت آسفًا من أجله، وإن أغاظني في الوقت نفسه؛ لأنه لم يجعلني أفهمه. شككت أنه غير قادر على أن يعتبرني مختلفًا عن أي من أولئك "فتيان البرجر الصربي". فكلنا نتساوى في عدم الأهمية بالنسبة لحياته غير المُعَبِّرة. حتى أنني ظننت للحظة أنه يجد صعوبة في النظر إلى الشارع، كالمتهم في طابور المتهمين، لا يستطيع أن ينظر إلى الشاهد خوفًا من أن يتعرف إليه. نظرت إليه مباشرة مرَّة أخرى، محاولًا أن أجبره على رد فعل، أن يتواصل بأسلوب آخر. ولكن خطر في بالي أن هذا الفتى لم يفعل شيئًا ليستحق استفزازًا آخرَ، لذلك سحبت نظرتي الاستفسارية. ولكن الضرر قد تم بالفعل إذ إنه - متوخيًا الحذر - تقهقر إلى الخلف وجلس على مقعد صغير بلا ظهر في أحد أركان الكشك، لدرجة أن كل ما استطعت أن أراه خصلة من شعره الأسود تبرز من خلف النضد.

انتهت قصَّتنا لهذه الليلة.



على الرغم من أن الوقت مُتأخِّر، فما زلت خائفًا من ذهابي إلى البيت وأطرق باب "نادية". أعلم أنها ستستقبلني بعينيها المُتسائلتين، متوقعة كلمات لم أزل غير قادر على قولها. لذلك ذهبت إلى رصيف قريب، أسفل مبنى البورصة، حيث كان شيء غامض يشبه الموسيقى ينبعث من مقهى. فكَّرت في تناول فنجان قهوة، وترتيب أفكاري في ركن مظلم هناك، وتخيَّلت أن مَن فيها مهما كان لن يُعيرني أي اهتمام. لم أكن أبدو بالخطورة التي تجعل أي قوَّاد مخمور يراني هدفًا لعقيدته الدونية، أو أشبه كائنًا تعيسًا يمارس عليه بلطجي من الدرجة الثالثة أي تقنية جديدة للترويع. فبنيتي كانت مثالية ليتجنَّبوني.

لما اقتربت من البار، تحوَّل الصوت الصاخب الغامض ببُطءٍ إلى خبطات تصم الآذان. وجدت في الداخل مجموعة من الشباب في ملابس رياضية يرقصون بجوار طاولة ممتلئة بالفودكا والـ"ريد بول"، مثل "شبان البرجر الصربي". ما نويت أن أقضيه مع هؤلاء التافهين انقضى، ولكن في مدينة تعاني من الإرهاق التقليدي لوسط أوروبا، لم يكن خيار حياة الليل المتاحة كبيرًا. كنت على علم بأنني، بصرف النظر عن تجربة ليلتين أو ثلاث أخرى في البار، سأتضايق أيضًا بالاستعراضات الثقافية المختلفة التي تزدهر في الداخل. لذلك طلبت كأسين كبيرتين من البيرة، وجلست إلى طاولة خالية في الركن، حيث أستطيع أن ألاحظ كيف دفعت الموسيقى الصربية بالمسافرين الذين اصطحبتهم في قطار الليل إلى حالة تقترب من لذة الجماع، بينما الطفاية المفرغة بطريقة مهملة، الموجودة أمامي على الطاولة، تهتز مع الإيقاع.



بعد كأس البيرة الأولى قرَّرت أن رقصات المنحـرفين جنـسيًّا بجـواري ليـست كافية لتصرف ذهني. فأخرجت من جيبـي خطابًـا، ذاك الـذي وجدتـه في شـقَّة "توميسلاف زدرافكوفيتش" في "برتشكو"، وبـدأت في قراءتـه مـرَّة ثانيـة بـبُطءٍ، حرفًا حرفًا، من البداية إلى النهاية، مدركًا أنني أفعل ذلك مـن اليـأس. الخطـاب هو الصلة الوحيدة المتبقية لي بأبي، ولا أقدر أن أقبل فكرة أنه لن يقربنـي مـن الجنرال "بوروجيفيتش".

أثنـاء القـراءة، توقَّفـت أمـام اسـم "بويـان كريجـاي". تـذكَّرت كيـف أنـا و"نيدلكو" هتفنا له معًا. وكيف في منتصف الجولة الثانية من سـباق التـزلُّج في "وينجن"، وعدني أبي بأنه "لو الفتى السلوفيني هزم الفتى السويدي" سـيأخذني للتزحلق في المنتجع السلوفيني "كرانجسكا جور" في الشتاء التالي.

استأنفت القراءة. كنت أتصفَّح، أقفز من فقرة إلى أخـرى حتـى - في لحظـة ما – ابتكر الشبان الذين في الجهة الأخرى من البار فكرة جديـدة للـرقص عـلى الطاولة، توقَّفت فجـأة. لاحظـت أن شخـصًا آخـرَ تجاهلتـه حتـى الآن ظهـر في الخطاب:

"عزيزتي،

"ج." يجب أن ينطلق حالًا".

الحرف "ج." بلا شك يعنـي الـشخص الـذي حمـل الخطـاب إلى "دوشـا" في "ليوبليانا".

بينما كان السَّكارى الحمقى الذين يُولولون، ويتشدَّقون باقتباسات من الأفلام الصربية القديمة، تُسمع من حيث طاولاتهم، مصحوبة بضحكات هستيرية كالضباع، بدأ قلبي في الخفقان أكثر وأسرع، وبدأ طنين يدور في مُخِّي المُنهك. رُحتُ أُفَكِّر في لو أن "دوشا" أرادت أن تخبرني بهمزة الوصل الوحيدة لها مع زوجها السابق، لفعلت ذلك. لذلك فإما لم تكن تعرف مَن المقصود بحرف "ج." أو أنها تعرف ولم تُرِد إخباري. إنني في المركب نفسه على أي حال. بعد لقائنا الأخير في بار الإسعاف، لم تعد "دوشا" مُتاحة للحديث عن أبي.

تناولت كأس البيرة الثانية، سرت في حلقي بسرعة تفوق أي بيرة شربتها من زمن طويل، وأحسست أنها لن تكون الأخيرة. بعد يوم طويل من القيادة، تراكم كل الإرهاق تحت حالة من الغضب. أول كأس بيرة أطلقتني من قيودي، والثانية أسكرتني، بينما قد تدفعني الثالثة والرابعة وما بعدهما إلى منطقة خطرة، من أجل صحتي وهؤلاء الذين بقربي مباشرة.

- ووووهووو، رائع! هيياااا!

في تلك اللحظة، نظرت حولي في المكان؛ لأن الجرسون رفع صوت الموسيقى، بناء على طلب السادة الذين يرقصون فوق الطاولة. ما زاد الموقف اشتعالًا تهشُّم كأسين على الأرض، حيث قلَّد الراقصون فوق الطاولة مشهدًا من فيلم صربي أسكرهم بقوة تفوق الأغنية التي يدورون ويلفُّون على إيقاعها. لو في وقت آخر، لبدا ذلك لي ممتعًا، ولكن في تلك الليلة كانوا مُتخلِّفين عقليًّا مثل الموسيقى التي يرقصون عليها. لم يتجاوزوا الستة عشرة، وكانوا يرقصون على شيء يشبه رقص حفل الزفاف.

كان مـن الواضـح أنهـم ينتمـون لجيـل مجنـون بفكـرة البلقـان، نجحـوا في الوقت ذاته في خلط كل شيء خلطًـا كـاملًا؛ الخـير والشر، والعقلانيـة والجنـون، والتفاهة والأذى. الكل تساوى بالنسبة لهم. الشيء الوحيد الذي يهم أنهم كانوا مثل مواطني المناطق الجنوبية في يوغوسلافيا سابقًا، فهم يلبسـون، ويتكلمـون، ويفترقون مثل الجنوبيين. لا تعنيهم الحرب، وجرائم الحـرب. لا يعنـيهم شيء في هذا العالم على الإطلاق.

- فقط ارفع الصوت، وارقص!!

نهضت، اتَّجهت نحو البار وطلبـت مزيـدًا مـن البـيرة. كي أكسـب الموقـف، اضطررت أن أغطي بصوتي عـلى صـوت الموسـيقى، لـذلك صِـحْت في الجرسـون ليخفض صوت الموسيقى، ولدهشتي، فعل ذلك.

- مزيد من البير...

- هيييييييه أهلاااااا!!

استدرت ورأيت أحد المهاجرين، أكثر ممـثلي عمـر السـتة عشر فخـرًا بهـذا واقفًا أمامي، أو ينبغي أن أقول وجدت قليلًا من البوصـات تقـف أسـفل مِنّـي. كان من الواضح أنه مصمم على أن يثبت مزاجه البلقاني أمام أصدقائه، ويحقق معايير التفاصيل الوراثية لجَدَّة جَدَّته، كان بلا شك شجارًا جديدًا. أمسك الكأس بيده بطريقة توحي بأن أصدق أنه سيُهشِّمها فوق رأسي.

- مَن سمح بذلك، ها؟

كأسان كبيرتان من البيرة أسكرتاني بحيث لم يبقَ عندي أي تسامح مع هؤلاء المراهقين الذين يريدون أن يقيسوا قضيبهم بقضيبي.

بمجرد أن لمسني، اسْوَدَّ كل شيء حولي ودفعته بكل قـوتي، حتـى انقلـب إلى الخلف ووقع على كرسي، ثم إلى الأرض.

- لم لا تذهب وتُضاجع نفسك؟

في اللحظة التـي قلـت فيهـا هـذه الكلـمات، توقَّـف كـل شيء مـن حـولي. أخرست هؤلاء الشبان ونظروا إليَّ في حالة ذهول. كانـت هـذه لعنـة "نيـدلكو" المُفَضَّلة. انطلقت من فمي كما لو كان يتكلَّم من داخلي. بعد كل هذه السنين، سمعته يتكلم، وفجأة، أستطيع أن أراه، ممسـكًا بيـدي بشـدَّة، ويجـادل الفتـى عند المدخل يدعوه لمسرح الساحة.



في مهرجان "باولا" السينمائي، وفى منتصف فيلم "المتطوعين"، دفعني ضحكي المستمر كي أذهب إلى التواليـت. ولكـن عـلى الـرغم مـن أن "نيـدلكو" أقنعنـي بالذهاب فإنني أردت أن أشاهد الفيلم كاملًا خشية أن يفـوتني أحـد المشـاهد الممتعة. لمـا أخـذ طـاقم الفـيلم والعُـمَّال أمـاكنهم عـلى خشـبة المسرح لتحيَّـة الجمهور، ولما لاحظ "نيدلكو" بخيبـة أمـل غيـاب نجمـه اليوغوسـلافي المفضـل، أخذنا طريقنا بسرعة نحو التواليت. ولكن كان هناك طابور طويـل مـن النـاس، يميلون بأجسادهم على قدم، ثم الأخرى، سبقونا إلى هنـاك. لم أسـتطع الانتظـار أطول من ذلك. في البداية، أقنعني "نيدلكو" بالتَّبوُّل في الظلام، معلـلًا ذلـك بـأنني طفل، والأطفال لهم أن يفعلوا ما يريـدون. لكننـي سـمعت صـوت أُمِّـي في رأسي تقول إن حثالة البوسنة فقط هم الذين يتبوَّلون حول الساحة. لذلك لم يكن أمـام

"نيدلكو" خيار سوى أن يأخذني لأقرب بار، حيث شققنا طريقنا إلى مبولة خالية، قبل أن يفوت الأوان بثانية أو ثانيتين.

لكن بعد ذلك، منعونا من دخول الساحة لنشاهد الفيلم التالي الذي أوشك على البدء. العادات القديمة تموت بصعوبة، فقد كرمش "نيدلكو" التذاكر وهو ينظف جيوبه ورماها على الأرض دون أن يدري. أصرَّ الشاب الذي على الباب على موقفه بحجة أن أي شخص يمكن أن يختلق قصة أنه خرج للتَّبوُّل، على الرغم من أنني أشك أن هناك مَن يتهرَّب ويدخل الساحة في منتصف الليل وفي يده طفل في الثامنة. ازداد توتُّر "نيدلكو"، حاول في البداية بالطرق الدبلوماسية، وحاول بصبر أن يُقنع الشاب بسلامة موقفنا. ثم لاحظت أن الفيلم بدأ بالفعل في الداخل. وهنا فقد أعصابه. للمرَّة الأولى والأخيرة أمامي، اسْوَدَّ كل شيء في عينيه وثار كالثور على الشاب مقاطعًا كلماته الغاضبة بلعنته المُكوَّنة من ست كلمات. ثم هدأ وأخذني تاركًا قاطع التذاكر مُتيبِّسًا من الذهول، ودخلنا ووجدنا مقاعدنا في انتظارنا.

لا أتذكَّر الفيلم الثاني الذي رأيناه في تلك الليلة، ولكن بالتأكيد رأيت وسمعت "نيدلكو"، بشكل واضح كأنه بالأمس، صارخًا: "لماذا لا تذهب وتضاجع نفسك؟" مثلما قلتها أنا. وكان التشديد على كلمة "تذهب" وباقي الكلمات كانت أقل حدَّة، مما سمح لكلمة "تُضاجع" أن تنساب في النهاية - مع تصاعد الغضب إلى النظرات - التي تصيب المحاور في مقتل، بعد أن شلَّته اللعنة بحدَّتها.



عندما عُدتُ إلى الواقع، رأيت الجرسون يمنع المراهقين الهائجين، وفي حالة أشبه بعدم وعي، أحسستُ بشخص يسحبني إلى خارج البار. أردت أن أُخلِّص نفسي منه، ولكنه كان أقوى. وجدت نفسي تحت عمود نور، ورأيت وجهًا مألوفًا لي:

- تأكد من الأماكن التي تختارها لتتعارك فيها، يا حثالة الجنوب يا سافل، في باري... ها؟

- لا أعرف أنه بارك، يا حثالة!

- أووه، فلتذهب من هنا! لقد دعوتك مائة مرَّة لنشرب معًا، وعندما تظهر أخيرًا، تتراقص مع شبان صغار!

كنا نصيح بسبب الأدرينالين، تردد صدى الصوت في الشارع. ثم فجأة حضَّنني "دانيال" وبدأ يضحك، بطريقته الفريدة، بينما وقفت ساكنًا، مذهولًا. لم يتبعنا الشبان إلى خارج البار، وأيقنت أنهم الآن عرفوا مع مَن يتعاملون. ولكننا سمعنا صياحًا في البار، فطار "دانيال" إلى هناك. سمعته لفترة وهو يسيطر على الزبائن السَّكارى، ثم اتَّجهت نحو السيارة. قبل أن أختفي بالدوران، سمعت صوت "دانيال" يجلجل رغم الساعات الأولى من الصباح:

- "فلادان"! "فلاداااااان"!

التفتُ ورأيته واقفًا أمام باب البار، وهو يُودِّع أحد زبائنه ليعود إلى أُمِّه.

- اتصل بي غدًا يا أخي، هناك شيء مهم أَوَدُّ أن أخبرك به.

- ماذا؟

- ستعرف غدًا، تعالَ إلى "فيفيتش" في الصباح، سنتكلَّم، يجب أن تحضر.

حاولت أن أرد، ولكنه عاد وأغلق الباب خلفه. "دانيال" كان الشخص الوحيد الذي يمكن أن أدعوه صديقًا بشروط، على الرغم من أننا افترقنا لمدة سنين، لم أكن مُهتمًّا بتجارته بعدم أمانة، ولم يكن مُهتمًّا بجولاتي بلا هدف. بعد كل هذه السنين، أشعر أحيانًا بأن الشيء الوحيد المشترك بيننا هو جلوسنا إلى التختة نفسها في الصف الخامس الابتدائي في المدرسة. أحيانًا كان يتَّصل عندما يحِنُّ للذكريات، ويريد أن يتحدث عن زميلتنا "ساندرا"، الأمر الذي كان يفعله من الصف الخامس حتى الثامن، وما زال يفعله حتى الآن. أحيانًا كان يريد أن يُريني سيارته الجديدة حتى أرى - أنا الذي كنت أقوم بعمل الواجب عنه من الصف الخامس حتى الثامن - كيف يعيش حياة أفضل من حياتي؛ إذ أقود سيارة مُتهالكة عمرها عشرون عامًا. حتى إنه دعاني مرَّة لأزور منزله كي أُعجب بشقَّته، وأعرف كيف يحسده جيرانه. كُنَّا غالبًا ما نتبادل القيل والقال والمعلومات أثناء تناولنا قهوة معًا سريعًا، ربما من منطلق أداء الواجب وتطييب الخاطر. عمل جديد، طفل جديد، امرأة جديدة، موبايل جديد، قصة شعر جديدة، ثم "أراك العام القادم".

منذ شهور، دعاني لأرى باره الجديد. أخبرته بأنني سأحضر، ولكنني لم أشعر بالرغبة مُطلَقًا.



14



اليوم الـذي قابلـت فيـه "دانيـال"، صـديقي الحقيقـي الوحيـد في المدرسـة الابتدائية، كنت أشقُّ طريقي بين حشد من الأطفـال، مُطـأطئ الـرأس، آمـلًا ألا يلاحظني أحد وربما يمُرُّ اليوم، وتمُرُّ السنة، وأظل هكذا مجهولًا. كان أول يوم في الدراسة، والتلاميذ عند البوَّابة فرحون بلقاء بعضهم بعضًا مجددًا. لم أجرؤ عـلى الكلام، ولم أحاول التَّفوُّه بكلمة سلوفينية، ولا حتى لُغتي الأُمِّ، عـلى الـرغم مـن أن معظم الزملاء يعرفون الصربية الكُرواتية جيدًا، وربما يتكلمونها. كنت ساكتًا، ظللتُ أتجوَّل في المدرسة بحثًـا عـن فصـل 5. وجدتـه، دخلتـه، وقفـت في ركـن بجوار النافذة، وانتظرت.

دخل زملائي الجُدُد ورائي، نظروا إليَّ متعجبين، ومنتظرين مَن يقدم لهـم هذا الطفل الجديد. كانت الـدقائق الـعشر التاليـة أكـثر ألمًـا، لعنـت نـفسي لأنني لم أنتظر المُدرسة حتى تأتي، في المأوى الآمن نسـبيًّا في الممـر المـُزدحم. ولكــن فــات الأوان، ترامــت النظـرات، وأشــار بعــض الأطفــال بأصــابعهم

نحوي وسألوا مَن أنا، وماذا أفعل في فصلهم. لحُسن حظِّي لم يقترب أحد مِنِّـي. وقفت ساكنًا تمامًا، نظراتي تتجنَّب النظـرات الواقعـة عـليَّ، ربمـا ظهـرت بشـكل غريب يكفي أن يدفع الآخرين للوقوف بعيدًا عنِّي، في انتظار السيدة "جوفان"، دون أن يتفوَّهوا بكلمة معي.

- أوه، أنت هنا يا "فلادان". ألست أنت "فلادان"؟ لمـاذا لم تـحضر إلى غرفـة المدرسين لتراني؟ تعرف السلوفينية، أليس كذلك؟

بدأت منقذتي التعنيف بمجرد أن دخلت الفصل.

كانت السـيدة "جوفـان" مُدرِّسـة تـاريخ مهووسـة بالسـلوكيات الحسـنة، كـما اكتشفت وقتها، تقضي معظم الحصَّة عن معركة "ترموبيل" تخبرنا نحن الأشباح غير المُهَذَّبين بأنه مـن الأشـياء غـير المقبولـة البصـق عـلى الأرض، وإلقـاء المفرقعـات في مواعين الطعام، وضرب الأطفال الأصغر سنًّا، وإخفاء أحذية المـواطنين في التواليـت، وتحريك الطفايات في الممر. ادِّعاء بأن تناول ثـلاث قطـع هـامبورجر يُعـادل وجبـة خفيفة، والاحتكاك جنسيًّا بالزميلة "ألما"، وإطلاق أسـماء عـلى مدرسـة البيولـوجي، والتَّبوُّل بين الحشائش أمام المدرسة، تهريب أدوات الفصل من النافذة، وهلُمَّ جـرًّا. قدَّمتني السيدة "جوفان" للفصل بإيجاز، وقالت إنني قادم مـن "بـاولا"، ومـا زلـت أتعلَّم السلوفينية. طلبت منهم أن يُساعدوني، ولا أدري لماذا، وما الذي أثـار موجـة من الضحك في الفصل. ثم أجلستني في صف المقاعد الثالث، بجوار "دانيال".

"دانيال شـهيتش" بالتحديـد لم يُعلِّمنـي سـلوفينية كثـيرًا؛ لأنـه بالكـاد ينتظر أي فرصة للتحدث بالبوسنية مع أي شخص في المدرسة. اعتقد أنني هادئ الطبع، ورأى فيَّ صديقًا محـتملًا، مـما يعنـي أنـه لا يضربنـي حتـى لـو كـان مزاجـه عكـرًا، وكـل شيء مـن حولـه يُـوتِّره. بـدلًا مـن تعليمـي

السلوفينية، علَّمني صيغًا مختلفة من البوسنية في لُغتنـا، وتـرجم لي التعبـيرات غير المألوفة، كان في الوقت ذاته يحتقر ويعجب بلُغتي الكُرواتية بالتناوب. كان يستعمل كلماتي الكُرواتية مع الزملاء، وخصوصًا البوسنيين "بـوريس" و"أرمـين"، فكانوا يسخرون على حساب لكنتي الغريبة، واستخدامي غير الصحيح "لحثالـة الجنوب الصربية الكُرواتية"، كما كانت تُسمَّى اللغة في منطقتنـا. كانـت هنـاك بعـض العبـارات القليلـة في لُغتـي تعتـبر عامـة الاسـتعمال ومقبولـة، وكانـت الإيطالية، على عكس التركية، غير مناسبة بالمرَّة. لذلك كان "دانيـال" و"بـوريس" و"أرمين" يغيظونني لأيام عدَّة بلا توقُّف، كلما أفعل ما يعتبرونه خطأ.

لكن "دانيال" علَّمني بعـض قواعـد الوطنيـة الدقيقـة التـي يُتقنهـا. في اليـوم الأول، سألني عـن اسـم أبي، وفي الثـاني أوضـح لي أننـي صربي؛ لأن "نيـدلكو" اسـم صربي، وكذلك "فلادان"، بصرف النظر عـن اسـم أُمِّـي "دوشـا" لأن الجنسـية تتبـع الأب. كان مُسلمًا لأن أباه مُسلم، وقال إن "دانيال" اسم مُسـلم، وإنـه كـان يجـب أن يُسَمَّى "عدنان" لولا أن أُمَّه الغبية كرهت ذلك. أخبرني "دانيـال" - المفـترض أن يكون "عدنان" - أن هناك سبعة من السلوفينيين، واثنين من الكُروات، وثلاثة مـن المسلمين، وثمانية من الصرب، وواحدًا مقدونيًّا، وواحـدًا ألبانيًّـا، وبعـض الشـواذ لم يقولوا بماذا يُدعى آباؤهم، لذلك أخفوا هويتهم كي لا يغيظهم أحد.

كان هذا جديدًا بالنسـبة لي لأننـا، في "بـاولا"، كُنَّـا نعـرف أن الـبعض لـه "جَدَّة"، أو "نينة"، أو "تيتة"، ولا أحد يدري أن ذلك يعني شيئًا مـا، وبالتأكيـد لم نسأل أحدًا عن اسم أبيه كي نستنتج شـيئًا غامضًـا. كُنَّـا نعـرف أن مـن لـه "نينـة" يـتكلَّم الإيطاليـة بطلاقـة، ويـذهب لجَدَّتـه لتنـاول الغـداء يوميًّـا،

ومن له "تيتة" يذهب لزيارتها في صربيا كـل إجـازة. القواعـد هنـا مختلفـة بشـكل واضح. كان "دانيال" يعرف تمامًا من أين ينتمي كل واحد مِنَّا، فمن القُرى البوسنية أو الكُرواتية أو الصربية هاجر آباؤهم ليمتهنوا عملًا يدويًّا في سلوفينيا، وكان أبـوه، "سمير"، يشرح له بسرور أي شيء لا يفهمه.

كـان "دانيـال" أول شـخص شرح لي بشيء مـن التفصـيل مـا يحـدث في يوغوسـلافيا المُتفكِّكـة، وقـال لي إن الصرب يريـدون أن يمـدوا أراضـيهم حتـى "صربيـا الكـبرى" التـي تمتـد حتـى "كارلوبـاج". وإن كـان لا أحـد يعـرف أيـن "كارلوباج" هذه، فهو يرى أن ذلك أمر مُرعب، ونصحني بأن أفعـل ذلـك أيضًـا، رغم كوني صربيًّا. "بوريس" يرى ذلـك مُرعبًـا، عـلى الـرغم مـن أن أُمَّـه صربيـة. أوضـح "دانيـال" أن زمـلائي "سريتشـكو" و"نينـاد" الجالسـين في الصـف الثالـث يعتقدان أن "سولوبودان ميلوشيفيتش" الأفضل، وأن "صربيا الكُـبرى" يجـب أن تمتد حتى أعتاب بيوتنا، لا "كارلوبـاج" فقـط. ضرب "سريتشـكو" زميلتنـا "ألمـا" لأنها قالـت إن الصرب أغبيـاء، لكنـه لم يكلـم "نينـاد" لأن لديـه صـيغة صربيـة للصليب المعقوف، أربعة حروف سيريالية مكتوبة على مقلمته.

ومع ذلك، المشكلة الكُبرى في الفصل كانت مع الكُروات، على حسـب قـول "دانيال"، خصوصًا "نيكول" و"أندريج"؛ لأنهم يعتقدون أنهم أفضل من البـاقين. كانوا عدوانيين وقوميين شموليين، ولذلك فإن "دانيال" سيربيهم كلهـم يومًـا مـا، هم ونكاتهم القبيحة. أخبرني أنـه يجـب أن أبلغـه إذا عـاملني أي واحـد مـنهم بأسلوب غير لائق، حتى يعلمه الأدب مهما كان.

وعـلى الـرغم مـن أن حربًـا أهليـة مصـغرة بمعنـى الكلمـة، ومعـارك يوميـة حـول "كارلوبـاج" نشـبت في فصـلنا، فـإن كـل الحـدود القوميـة الناشـئة تـم

نسيانها بمجرد أن بدأت حصَّة الألعاب. أسرعنـا كلنـا صرب، وكُـروات، ومسـلمون، وسلوفانيون، حتى الشواذ الذين لم يذكروا أسماءهم. أسرعنا إلى الفناء لنلعب كُـرة قدم. لم يعد هناك أهمية لكلمة مَن يكون هذا أو ذاك، فكل واحد يريد أن يكون في الفريق الذي فيه "ميلان"؛ لأنه أفضل لاعب مـراوغ، وكـل فريـق يريـد "آديـز" صاحب المؤخرة الغليظة ليكون حارس مرمى؛ لأن مؤخرتـه الغليظـة تصـد الكُـرة. يحب "بوريس" أن يلعب مع "نيكـولا" لأنهـما مهـاجمان متـافهمان معًـا. وأنـا، إذ تحوَّلت بشكل ناجح، بفضـل "دانيـال"، مـن زميـل جديـد مـن "بـاولا" إلى الصربي التاسع في الفصل، وفي أيَّام قليلة تأقلمت معهـم في الملعـب، وبعـد أهـداف عـدَّة أحسستُ أننـي معهـم مـن زمـن طويـل. أصـبح الصرب في مباريـات كُـرة القـدم هدَّافين، والكُروات ظهـيرًا أيسرَ، والمسـلمون حُـرَّاس مرمـى، أمـا الشـواذ الـذين لا يذكرون أسماء آبائهم فهم الاحتياطي. اعتبروني هدَّافًا مميزًا ومنافسًا لـ"مـيلان" في أحسن لاعب في الفصل، واختاروني ضمن التشكيل الأول عندما لعبنـا أمـام فصـل D، للمرَّة الأولى في الموسم. وعلى الرغم مـن أننـا هزمنـا 5/2، فقـد جـرى "آديـز" نحوي بعد تسجيلي هدف وصاح في وجهي:

- واصل يا حثالة!

وهذا يعني أنني صرت أخيرًا واحدًا منهم.



كي أنـدمج مـع الحيـاة العامـة إلى حـد كبـير، كـان عـليَّ أن أتصـادق مـع الفريـق الـذي يتسـكَّع أمـام عمارتنـا، وأن أفعـل ذلـك باسـتمرار. وكـان نظـام الهسهسة المعـترف بـه لا أسـتخدمه إلا مـع الجـيران الجُـدُد الـذين لا أسـتطيع

التواصل معهم بأي وسيلة. كـانوا أكـبر مِنِّـي بسـنة أو سـنتين. ادَّعـوا أن سـاحة مخزن الدراجات تخصُّهم فقط، بعد سرقة عديد من الدَّراجات منه، أقلع الناس عـن فكـرة المكـان المشـترك للـدَّراجات في العـمارة، وقبلـوا عـلى مضـض تغيـير استخدامها، كمكان يتسكَّع فيه الأولاد المشاكسون.

في كل مرَّة أعـود فيهـا مـن المدرسـة أو المتجـر، وأتجـاوزهم نحـو المصـعد، يقومون بتفتيشي كاملًا، ويخبروننـي، بنظـراتهم الشرسـة، أن حـالتهم الجسـدية المتعبة في ذلك اليوم أنقذته من ضرب مُـبرِّح يـؤدي إلى تنـاثر جسـمه قطعًـا في ساحة الانتظار. كانوا عدوانيين في كل يوم، لـذا بـدأت أتجنَّـبهم. فكنـت أدخـل العمارة من الجانب المقابل، أو أنتظر حتى يبتعدوا ثم أجري على العمارة.

في تلك الأيام، كانت تأتي سيارة شرطـة تتحـرك أمـام عمارتنـا، يبحثـون عـن واحدة من الإخوة "عزيزي" والشائعات تقول إن واحـدًا مـن الإخـوة "دورتـش" ضرب جارًا اشتكى من شيء ما. ولكن الأظرف قصـة رجـل مُسِـنّ، جـاء وفي يـده عصا، إلى ساحة مخزن الدَّراجات ذات مرَّة وراح يبحث عن "بيجويج"، ابـن عـمٍّ لإخوة "عزيزي"، ومدرب كونج فو. كان "بيجويج" مشهورًا بصورة له مـع "جـين كلود فان دام"، يحـتفظ بهـا في سـيارته. لـوَّح الرجـل المُسِـنُّ بعصـاه وصـاح في "بيجويج" بأن مثله المُفَضَّل "كلما كبرت، يصـعب وقوعـك". رد عليـه "بيجـويج" وهو يتثاءب، كما قال أحد الشهود الثقة:

- جدو، مثلي المفضل؛ مهما كان مَن يسبب لي مشكلة فسـوف يمشي برجـل صناعية.

هناك حكاية تدور على الألسنة تصف موقفًا حدث أمام عمارتنا الجديدة، حيث لا مخزن للمخدرات والخمور، ولا أصوات موسيقى صاخبة تصدر من ساحة مخزن الدَّراجات سابقًا، على مدار الساعة. الصوت العالي للموسيقى اعتاد أن يحتل دائمًا البند الثالث من جدول سكان العمارة، على الرغم من أنه ترقَّى تدريجيًّا إلى البند الثاني، وفي ربيع 1996، جاء على قمة مشاكل العمارة. ولكن راديو "زيجي" الأسطورة تعطَّل، وأصبح هناك حل سلمي بمعجزة طوال الأسبوع.

نجحت تقريبًا في اختراق المجلس النشط لمجموعة مُتنوِّعة موهوبة من المجرمين المحليين. عندما استوقفني "هاشم"، أصغر إخوة "عزيزي" ذات مرَّة أمام العمارة، كنت عائدًا من المدرسة، سألني:

- مرحبًا، ما اسمك؟

ثم اقترب مِنِّي، وأخرج من جيبه علبة من الألعاب النارية الخضراء، واقترح أن أشتريها منه ثم أبيعها لأصدقائي. ولأننا نسكن في العمارة نفسها، حيث يسكن هو في السادس وأنا في التاسع، زعم أنه سيعطيني تخفيضًا، وبذلك أجمع مبلغًا كبيرًا من النقود. على الأقل حاول أن يقنعني بكل هذا، وفي النهاية باع لي جاره العلبة بسعر خمسة أضعاف السعر الذي يبيع به لزبائنه الدائمين.

أردت بشدَّةٍ أن أكون واحدًا من عصابة العمارة، شلَّة مخزن الدَّراجات، أو على الأقل أريد أن أعرفهم أكثر حتى لا يتعرض لي أحد منهم بالضرب دون سبب، فأنا لم أستطع رفض عرض ألعاب نارية كي أعيد بيعها. أخبرني "هاشم" بأن عمَّه هرَّبها من إيطاليا، وشرح لي "دانيال" بعد ذلك في المدرسة أن الألبانيين، و"عزيزي" من بينهم، اشتروها من مخزن

الشرطة بنصف ثمنها، حيث انتشرت السلع المصادرة، ثم يعاد بيعها بثمن فاحش. وأخبرني أيضًا أنه على أي حال يجب أن أنضم إلى هذه العصابة التي تضم إخوة "عزيزي" وباقي عصابة العمارة؛ لأنهم لا يتركون أي شخص لا يشتري بضاعتهم. لذلك لم أخبر "هاشم" بأنني عرفت أن الموضوع خدعة، ولا أنني لا أمتلك نقودًا لأشتري الألعاب، ولكنني تظاهرت بأنني أصدقه لما حاول أن يقنعني بأنه يعطيني مجرد دَيْن، وأنني سأبيع الألعاب لزملائي، وسأصنع منها مبلغًا كبيرًا، وأنه عمل معي معروفًا؛ لأننا من عمارة واحدة، هو في السادس، وأنا في التاسع.

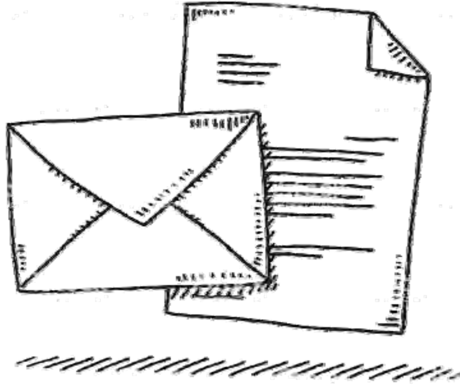
لذلك اشتريت منه مائة قطعة من الألعاب النارية الخضراء، وظللتُ جائعًا لأسابيع عدَّة في الشهر التالي، فلم أشترِ وجبة خفيفة في الصباح قبل ذهابي إلى المدرسة. راحت نقود الوجبة كقسط لـ"هاشم" نظير الألعاب النارية، التي خبَّأتها تحت المرتبة، فسبَّبت لي القلق. خفت أن تنفجر في أي لحظة، ولكن خطَّتي جاءت بنتائج عكسية. فلم تفشل فقط في مصادقة "هاشم"، بل لم نتكلم كلمة واحدة معًا بعد ذلك، وأصبحنا نومئ لبعضنا بعضًا فقط بعد عملية الشراء.

لما كان الجوع أسوأ شيء، واسيت نفسي بأنني عندما اشتريت المائة قطعة من الألعاب النارية، أمنت شر إخوة "عزيزي"، وبلطجتهم، وبالتالي قمت بعملية استثمار من أجل سلامتي. حاولت أن أقنع نفسي بأنني زبون لهم، ولا يمكن أن يضربوا زبونهم، ولكن "دانيال" ظل يحذرني منهم في كل الأحوال؛ لأنني من الصرب، والألبان لا يحبون الصرب، بسبب كوسوفو. كلما ذكر أحد كوسوفو، تذكَّر السائق "شيكليكم"، فهو من القرية نفسها التي منها والد "فاديل فوكري"، أفضل لاعب كُرة قدم في

كوسـوفو. حتـى إننـي فكَّـرت في أن "شـيكليكم" يمكـن أن يخـبر "عزيـزي" بـأن يبتعـدوا عنِّـي؛ لأننـي صـديقه. ولكـن أدركـت أننـي لا أعـرف مـا حـدث لـ"شيكليكم"، فهناك ناس يختفون من حياتـك ببسـاطة. وكـل مـرَّة أُفَكِّـر في أبي أتساءل؛ أهو واحد من هؤلاء الذين اختفوا، ولن يعودوا أبدًا؟



15



كان الوقت متأخرًا عندما أخذت أُفَكِّر مليًّا في "دوشا" والحرف ج، ولكنني في النهاية جرجرت قدميَّ إلى البيت. نظرت إلى النوافذ الثلاث، مُتَمنِّيًا أن أرى نورًا في إحداها، مما يعني أن "نادية" لم تزل سهرانة. شعرت في تلك الليلة أنني لا أريد أن أذهب إلى الشقة الكئيبة والهادئة؛ لأنني أعي أن غضب "نادية" في انتظاري. توقعت محادثة طويلة ومرهقة، أبوح فيها بشيء لم أقله لأحد. أردت أن تعذرني "نادية" في تلك الليلة؛ لأنني أريدها أن تلقاني مُفعمة بالعاطفة، ولكن لما استدارت نحوي وكنت واقفًا بجوار الباب شبه نائم، التزمت الصمت. أردت أن أخبرها بشيء عن "نيدلكو"، لكنني شعرت بأنني سأبكي مرَّة أخرى بعد هذه السنين من الجفاء، لذا ابتعدت عن الدموع، وعن "نادية"، واتجهت إلى المطبخ.

- ماذا حدث؟ قل! أنت! تعالَ هنا! اللعنة يا "فلادان"!

بعد أن تسلَّحتْ بنظرات حادة كشفرة الموسي، نزلتْ من على السرير وبدت أنها غير مستعدة لقبول الدور الذي أتمناه؛ دور الصديقة المتفهمة. أو على الأقل دون أن تطلب تفسيراً.

- ماذا بك، أجُننت أم ماذا؟

لم أعثر على دليل إرشادات جيد يوضح ماذا يفعل المرء عندما يعود صديقه في منتصف الليل بعد غياب يومين بشكل غامض وهو عاجز عن نطق حرف واحد. لا يوجد دليل يقول في أي مكان يجب على الناس أن يقرؤوا أفكارنا، على الرغم من أنني في أمس الحاجة إلى هذا الآن.

- هل يمكنك أن تشرح ماذا يحدث؟

- رجلي العجوز...

- ماذا عنه؟

- ... لم يمت.

- ماذا؟ ماذا تقصد بأنه لم يمت؟ رجلك العجوز؟

- أجل!

- إذاً ماذا عنه؟

- لا أدري... مختبئ.

- ماذا تقصد بمختبئ؟

- مثل "كاراديزيتش"، و"مالاديتش".

- لحظة!... هل تقصد أنه...؟

- نعم.

- كيف عرفت؟

- إنهم يقولون ذلك.

- أين يقولون ذلك؟

- على الإنترنت.

- وهل تصدقهم؟

- نعم.

- حسنًا، وأين كنت في اليومين الماضيين؟ لو كان من حقِّي أن أسأل.

- ذهبت لأبحث عنه.

- تبحث عنه؟ أين؟

- في البوسنة، وصربيا.

أدركت على نحو بطيء - بمساعدة بسيطة من السخط الذي بدا على وجهها - حجم أفعالي. توقَّعت أن ترحل "نادية" في أي لحظة اعتراضًا، أو أن تُصاب بهستيريا، أو تهاجمني بحذائها. لكن هذه المرأة البشوشة بشكل طفولي، التي أحببتها لابتسامتها البريئة، لم تكن موجودة في تلك الليلة. مَن تقف أمامي الآن امرأة نضجت دون أن ألاحظ. لقد كانت "نادية" شيئًا آخرَ مفروغًا منه في حياتي، لكنها أصبحت امرأة ترى بسهولة ما أنا فيه من عبث، ولا تحب أن تتورَّط فيه.

- يمكنني أن أنتظر.

- تنتظرين ماذا؟

- لتخبرني بكل شيء عندما تكون مُستعدًّا.

كان هذا أقوى من إلقاء حذاء على دماغي. لقد عرفت "نادية" بشكل ما ماذا تقول، وماذا تفعل حيال المواقف المستحيلة. أحسستُ أنها مستعدة أن تأخذني من يدي وتجعلني أُفيق. ليس في نيتها أن تسيطر على غضبي، أو تهدهدني بشفقة تثير دموعًا. أرادت أن تقاتل، وللمرَّة الأولى منذ

سنوات طويلة. يتملَّكني هذا الشعور القصير الخارق على غير العادة مرَّة أخرى بأن هناك شخصًا ما يقف جنبي، الشعور الذي افتقدته لمدة. في البداية، أخافني الأمر، ولكن وجودها بعث الطمأنينة، فاستمتعت بجلوسي ساكتًا بجوارها. على الرغم من أن الكلمات لم تزل بعيدة المنال.



لا ندري كم جلسنا هناك، و"نادية" ساكنة تنتظر أن أخبرها بقصة حياتي، بعد ثلاثة أعوام تقريبًا من علاقتي معها. ظلَّت تنتظر أُقدِّم نفسي باسمي الحقيقي، ولكن محاولة أن أشرح لها مَن أنا بالفعل جعلتني أدرك أنني حتى أنا لا أعرف شيئًا. رُحتُ أبحث عن الكلمات التي تُعرِّفني، أو على الأقل تصفني، ولكن كلما تعمَّقت قصَّتي، ابتعدت عن حقيقتي. فكل فصل يفتح آفاقًا لمزيد من الأسئلة، وصرت أتحوَّل إلى إنسان غريب في عينيها.

على الرغم من ذلك، أومأت "نادية" محاولة أن تفهم. لم أخبر أحدًا من قبل أنني أحبه، وليس لديَّ دليل كيف تبدو هذه الكلمات، ولا كيف يكون الشعور حين نطقها. ولكن في ذلك المساء، عندما أخبرت "نادية" عن "نيدلكو" و"دوشا" وعن "ميلوتين" و"آجنيس" وعن قرى "زيليكا" و"فيستنجيتشي" وعن "باولا" وبلجراد و"نوفي ساد"، عندما تحدثت عن نفسي للمرَّة الأولى، أخبرتها بأنني... أنني أحبها حقًّا. وما دون ذلك كان مجرد كلمات، غير مفهومة، ولا معنى لها، كلمات يمكن أن أختبئ خلفها. هذه الكلمات أخبرت "نادية" بالشيء الوحيد الذي أرادت أن تعرفه عَنِّي.

تغلَّبت في تلك الليلة على الصمت، الذي وقع في شَره "نيدلكو" و"ميلوتين"، الصمت الذي أوقف قلب "ميلوتين"، وتحوَّل فيه "نيدلكو"

تدريجيًّا إلى عبد لآلامه. حكيت لها القصة التـي خـاف جَـدِّي وأبي مـن سردهـا. حكيتها من الجملة الأولى التي أعرفها، ولم أتوقف إلا عنـد آخـر جملـة أعرفهـا. شعرت مع كـل كلمـة تُنطـق أن هـذه القصـة ليسـت لي، وأن هـذا هـو الشيء الوحيد الصحيح.

استمعت "نادية" لي. لم تسأل عن أي شيء، لم تتنهَّـد، ولم تشـجعني بلمسـة على كتفي. فقط استمعت، حرصت عـلى أن كلـماتي التـي خرجـت بصـعوبة لم تذهب هباء، وأن حياتي لم تتلاشَ. ورغم أنها لم تظهر ذلك، أحسستُ أن الخوف ينمو في داخلها مع كل فصل من قصَّتي، وأنها تفكر في نفسها، بنوع من الهلـع، ما يمكن أن تجلبه لها قصَّتي، أو بالأحرى ما يمكن أن تأخذه منها.

- هل تعتقد أن والدك مذنب؟

أوشكت أن أقول لا أدري، ولكـن لمـا رأيتهـا تجلـس أمـامي، ببيجامـا مطبـوع عليها ثمرات فراولة صغيرة، أصبح واضحًا أنني أستطيع أن أجيب بكـل مـا أرغـب. لم أعد في حاجة إلى التبرير بكذبة صغيرة. فأومأت فقط.



- ماذا عن زوج أُمِّك؟

- "دراجان"؟

- نعم.

كنا مستلقيين على السرير، نحاول أن ننام. ولكن ضوء النهـار بـدأ يشقشـق في الخارج.

- بمَ أخبركِ؟

- لم تقل لي شيئًا عنه.

- ليس هناك ما يقال.

- ماذا تقصد؟ بالتأكيد يهمك أنها وجدت شخصًا ما.

- نعم وجدت، اللعنة، لكنه أسوأ من بقائها بمفردها.

- هذا ما تفكر فيه الآن. لكنك لم ترجع بذاكرتك إلى الماضي.

- لم يكن يفعل شيئًا سوى أن يهمس.

- ماذا يفعل؟

- يهمس.

أحسَّت "نادية" أنني لا أستطيع التحمل أكثر من ذلك، وأنه لا فائدة من معرفة قصة "دراجان" مِنِّي. القصة التي لم تكن قصة، أو على الأقل لا أراها هكذا. فأنا أُفَكِّر فقط في صبي طويل، وداكن البشرة، وكئيب يبدو أنه مُتبلِّد الذهن حتى إنني تصوَّرته من البلطجية الذين يقفون لحراسة صالات الرقص في المدرسة، وهو يغمز بعينيه لبنات في سن الثالثة عشرة من فصلي. لقد أحضر لنا ذات مرَّة غسَّالة أطباق جديدة. لم يسمح لـ"دوشا" أن تساعده، على الرغم من أنه كان يجد صعوبة في وضعها، ولما وضعها أخيرًا في منتصف المطبخ، ومسح يده المُتَّسخة في بنطلونه، صافحني وهزَّ يدي قائلًا:

- أنا "تشيريتش"!

وكأنها أسلوب قديم لتحية الناس، ربما كان مستخدمًا في جيله.

اعتقدت أنه حبيس الماضي، وللحظة، شعرت نحوه بالأسى، ولكنه ظل واقفًا في منتصف الغرفة، مرتبكًا، ويبدل قدمًا بأخرى. نظر إليَّ، ثم إلى "دوشا"، ثم تلعثم قائلًا:

- نعم... حسنًا... إذًا... أظن... أراك لاحقًا... أو... نعم.

ثم انصرف. تمشَّت معه "دوشا" نحو الباب، سمعته يحاول أن يكوِّن جملة في الصالة، ولكنه فشل كالمرَّة الأولى.

في المرَّة التالية التي رأيته فيها كانت عندما ذهبت "دوشا" معه لتناول فنجان قهوة في بار "بورسالينو". قابلتهما بالصدفة في طريق عودتي من منزل "دانيال". تظاهر ثلاثتنا بأن الموقف عادي تمامًا، وجلسنا نحن الثلاثة إلى الطاولة نفسها لفترة، ننظر إلى بعضنا بعضًا، دون أن يحاول أي منَّا في فتح الكلام. في الحقيقة، كُنَّا جميعًا ننتظر أن أنتهي من شربي وأنصرف. في لحظة معينة، مال "دراجان" ناحية "دوشا" وهمس في أذنها، مما بدا لي أمرًا وقحًا وغير مقبول. عندما كنت طفلًا، كنت إذا همست لأي شخص على طاولة في وجود آخرين، يُوبِّخني أبي ويقول: "من الوقاحة أن تهمس في وجود آخرين". وإذا كان مخمورًا، كان يصيح قائلًا: "الأُمَّهات العاهرات فقط هن اللاتي يهمسن!" لذا كان يتعيَّن عليَّ أن أذهب. نهضت مُشمئزًّا من أن "دوشا" تخرج مع مثل هؤلاء الناس، وقلت:

- سأغادر.

وانصرفت. عندما سألتني "دوشا" بحرص، في ذلك المساء، عن رأيي في "دراجان"، كان غضبي من حُسن الحظِّ قد تلاشى، واحتفظت برأيي لنفسي.

ومع ذلك، لم تخبرني "دوشا" بشكل رسمي أنها و"دراجان" متزوجان، ولكنها توقَّعت أن أستشفَّ ذلك بنفسي. لذلك بدأت تذكره مرَّة بعد المرَّة، وبكثرة، وبدأت تخبرني بانتظام بأنها ذهبت مع "دراجان" إلى مقهى كذا، وأنهما ذهبا معًا إلى السينما، وأنه مرَّ بالصدفة عليها في العمل، وأنه دعاها لمشاهدة مباراة كُرة سلَّة معه. كانت بوجه خاص تؤكد على تلك

المناسبات التي يساعدها فيها، ربما كانت تتمنَّى أن يكتسبني. لكن منذ اللحظة التي همس لها في بار "بورسالينو" وهو بالنسبة لي إنسان حقير، حتى لما كانت "دوشا" تتكلَّم عنه بلُطف، لم يكن ذلك يؤثر فيَّ.

بدأ "دراجان" فيما بعد يزورنا في منزلنا بكثرة، ولوقت أطول، حتى إنه كان يجلس معنا أمام التليفزيون. حاول بكل ما يمتلك من قوة أن يكون لطيفًا معي، وأن يكتسب صداقتي. كان يستمع باهتمام، وبانتباه لكل كلمة أقولها، ومن الصدف العجيبة أن العروض والأفلام نفسها التي تعجبني كانت تعجبه. فعل كل شيء يمكن أن يفعله ليجعلني أحبه، ولكنه لم ينجح إلا في أنه تحوَّل من "حقير" إلى "هامس"، وتلك ترقية معقولة. وظل هكذا.



في صباح اليوم التالي، جلسنا أنا و"نادية" على الكنبة، وصلنا تدريجيًّا إلى حالة أشبه بما قبل الزلزال. أخذت تُدَلِّك يدي، من وقت لآخر، تحاول أن تلطف الجو بالتأمل أثناء الإفطار والمُداعبة. لكنني لم أستمر في مسايرتها، فتوقفت فورًا ولحقت بي في حالة الشرود، والخمول الذهني. في لحظة ما، نظرت إليها فابتسمت لي برقَّة وعطف. لا أدري أنني ممنون لأحد في حياتي بقدر ما أنا ممنون لها لجلوسها بجواري تنتظر في صبر أن تستمر حياتنا. اقتربت منها، والتصقت بها وتركتها تحضنني. أعطيتها قُبلات خفيفة فاستجابت "نادية" بقُبلة. شعرت بأنها تتبعني بإخلاص وتفانٍ وإرادة بأنها تفعل أي شيء من أجل أن تستعيدني إليها. احتضنتها بشدَّةٍ ولمست خدَّيها بشفتيَّ لمسًا رقيقًا. طوَّقتها بيدي وأدخلت يدي تحت

البيجاما. استمتعت بملامستي جسدها، واعتصارها حضنًا وتقبيلها. لم تمانع عندما انزلقت يدي إلى أسفل ظهرها، إلى جسمها الدافئ، ووصلت يدي تدريجيًّا إلى ردفها، ثم دلَّكت ساقيها برفق. استجابت للمساتي بتنهيدات مسموعة بالكاد، اعتصرتها أكثر، ووضعت شفتيَّ على رقبتها. فكَّرت في أنني لا أريدها أن تتركني أبدًا، وأنني سأبقى في عناقها للأبد. استلقينا تقريبًا بلا حراك، مندمجين، كل منَّا في الآخر. أخذت أُقبِّلها في رقبتها ووجهها، و"نادية" تحتضنني بكل قوَّتها، وتتنهَّد بليونة، كأنها تهمس في أذني. تمنَّيت أن نتوقَّف عند هذه اللحظة، كي نظل متشابكين معًا بإحكام، يُطوِّق كل منَّا الآخر.

ظللنا مُستلقين، وما زال يُعانق كل منَّا الآخر، و"نادية" تُقبِّل خدَّيَّ بانفعال, ثم أمالت رأسها إلى الخلف، وأغلقت عينيها. وضعت رأسي على صدرها، فسمعت دقَّات قلبها، وهو يدقُّ في هدوء ببُطءٍ. كان امتنانًا وحُبًّا. لم أدرِ متى انتهى الأول ومتى بدأ الثاني، ولم يكن ذلك مهمًّا. فيكفيني أن أشعر بشيء جيد جدًّا، وهذا يتفوَّق على كل المشاعر الأخرى.



لم تخبرني "نادية" إطلاقًا، في ذلك المساء من يناير منذ ثلاث سنوات تقريبًا أنها سمحت لعشيق كبير صربي يعزف موسيقى "بانك روك" بأن يأخذها لمنزلها في سيارته اليابانية القديمة. أخبرتنى "نادية" مازحة أنها أتت من منطقة ضبابية متعذرة المرور من مستنقعات "ليوبليانا". كنت في تلك الليلة مميزًا، وحُرًّا، وملك نفسي، بينما كانت هي خبيرة ميكروبيولوجي واعدة، لم تستطع أن توقف قهقهاتها المخمورة المُعدية.

عندما عرضت عليها أن أوصلها إلى قريتها، لم أكن جادًّا، ولكن عنـدما ردت عـلى عرضي بابتسامة مغرية، ونعتتني:

- يا لك من نبييييييييل!

لم أستطع أن أتراجع. كانت لعبة قبلناها نحن الاثنين للحظـة، لكـن لم يشـأ أي منَّا أن يكون أول مَن يتوقَّف. سيارتي هـي مَـن توقَّفـت أولًا في تلـك الليلـة، فبعد أمتار عديدة فقط، وقد تركنا الطريق إلى المستنقعات المتعرِّجـة، وتُهنـا في الضباب. لم ترِد السيارة أن تخطو خطوة إضافية في تلك الليلة المجهولة، وبـذلك وقفنا أنا و"نادية" عاجزين عن التقدم.

فكَّرت "نادية":

- استحالة.

ونزلت واختفت في غيوم الضباب، سارت بتأنٍّ على أرض المستنقعات. أدرت الموتور، آملًا أن يُحدث صوتًا يقطع شكوكها بأنني غير صـادق النيـة؛ لأنهـا الآن تشق طريقها إلى بيتها في هذه السكك بين المستنقعات، وحدها. ولكـن هـذا لم يكن سوى صرخات يائسة في الليل، تيقَّنت أن قصَّتنا انتهت إلى الأبد هناك، مـع هذا المشهد الذي فرَّت فيه جميلتي البريئة تلك وقد ابتلعتها تلك الليلة الثلجية من إنسان منحرف بسيارة قذرة.

ولكن فجأة، بزغت "نادية" من بين الضـباب ونقـرت عـلى نافـذتي المُغطَّـاة بالبخار. فتحتها، فقبَّلتني على جبيني، وقالت:

- اكتب!

ثم تقدَّمت لتُملي رقم تليفونها، وشكرتني عـلى توصـيلها للبيـت، واختفـت مرَّة ثانية. جلست في سيارتي المُتهالكة الباردة، غارقًا في الضباب، فكَّرت أنـه مـن المثير الاستمرار في اللعبة.



أخذ "دانيال" المفاتيح من يدي، وألقى بها لـ"آلان" وأخبره أن يغسل كومة الخُردة اليابانية التي أقودها، وسحبني نحو سيارته الـ"أودي" الفضية. بعد لحظة، دفعتني زيادته للسرعة إلى الخلف على مقعدي، فالسرعة في الشوارع الضيقة هي متعة "دانيال" في الحياة. يمتلك "دانيال" مغسلة سيارات في هذه المنطقة من المدينة، وكان في الحقيقة ناجحًا جدًّا. إذا ضممت الاثنين لبعضهما، لكانت النتيجة مُبهرة. فلديه سيارتان "أودي"، وطفلان، وامرأتان، وتليفونان محمولان، وسنتان عقوبة مع وقف التنفيذ؛ لأنه فعل شيئًا ما لشخص كان يجب أن يفعله هو. من ناحية أخرى، كان هو قد فعل كل ما يمكن أن يفعله لأي شخص في أي وقت، ولكن فقط لهؤلاء المسموح لهم بدخول هذا البلد. فتح "دانيال" المغسلة منذ سبع سنوات، وعملت معه لمدة شهرين؛ لأنه لم يكن لي مكان أذهب إليه. استأجرني، وهو مهووس جدًّا بالمعتقدات الشعبية، كي أنظف بفرك فضلات الطيور لأجلب له نوعًا من الرضا.

توقَّفنا أمام مخبز ألباني للكيك عمره ثلاثمائة عام، بجوار الكنيسة، حيث ما زالوا يصبون الليمونادة الصناعية في زجاجات مربعة. كان المخبز خاليًا، ولكن "دانيال" يعرف صاحبه، لذلك أخذنا كوبين كبيرين من الآيس كريم، وزجاجتي كولا مجانًا. لم يكن "دانيال" يشرب الخمور لأنه مُسلم، ولأن طبيعة عمله تتطلَّب ذلك، ولأنه أُصيب في حادثة تصادم من سنين بسببها، وبالكاد أنقذوه. أخذ عند لحظة معينة ينظر حوله، ليتأكد أنه لا يتصنَّت علينا أحد في هذا المكان المنسي من العالم:

- يا "فلادو"، ما اسم أخيك؟

- اسم أخي؟

- نعم.

- "ملادِن".

- هل يسكن بالقُرب من هنا؟

- نعم.

- إذًا ها هو ذا.

- هو مَن؟

- لا شيء، فقط شاهده قليلًا.

لا يعرف "دانيال" أن العلاقة بيني وبين "ملادِن" ليست من النوع الذي يجعلني أشاهده قليلًا. صديقي الوحيد لا يعرف الكثير عنِّي، في تلك اللحظة، لم أكن ميَّالًا لأخبره عن وضع أسرتي المُعقَّد، لذلك أومأت فحسب. خرج الجرسون ليدخن؛ لأنه من المحتمل أنه استشعر روح المؤامرة في حديثنا، ولم يشأ أن يكون عبئًا علينا. كل المحادثات مع "دانيال"، منذ المرحلة الابتدائية، ترتدي عباءة المؤامرة، لذلك ربما كان موقف التدخين المثير آنذاك روتينيًا؛ لأن "دانيال" زبون دائم عندهم.

- لا تخف من شيء، أنا فقط أخبرك لأنك زميلي. ولا أريد لأخيك الصغير أن يصيبه مكروه.

- شكرًا.

- سرق هو وزملاؤه عددًا من الموتوسيكلات، موتوسيكلات "موبيد" و"سكوتر". عدد بسيط. انتهينا من هذا. سارت الأمور على ما يُرام. أحضروا نصفها لي؛ كي... أبيعها. لكن قبل ذلك، كانوا، أولئك السَّفلة،

يركبونها في المنطقة. فهمت؟ لذلك سألتهم بلطافة، ولكنهم كذبوا علـيَّ. اللعنـة! لا يمكنك خداعي. أعرف كل كبيرة وصغيرة تحدث هنا. لا أريد أن أكون هنـاك. أعلم أن هؤلاء الصِّغار أغبياء، وسيتم القبض عليهم. يمكنني أن أتخلـص مـن أي ورطة، ولكنهم سينقلبون على بطونهم. أنـت لا يمكنـك أن تفعـل ذلـك. لـذلك، حذر أخاك يا أخـي. فهِّمـه، وانصحه. إذا كنـت لا ترغـب في ذلـك، هنـاك مَـن سيفعله.

بدا لي "ملادِن" في آخر مـرَّة رأيتـه فيهـا مواطنًـا عاديًـا بشـعر دهنـي. كـان يحاول أن يعطي انطباع المحارب المتعب مـن الـدنيا، بعـد أن خـاض في الثالثـة عشرة ثلاث معارك بالأسلحة النارية أمـام عمارتهـم، وسـت مشـاجرات همجيـة باللكمات في المصعد، واثنتـي عشرة مُداهمـة بوليسـية في البـدروم الخـاص بـه. لذلك لا بُدَّ من صفعات حقيقية تُوَجَّه إليـه. ولكننـي لـن أعتمـد عـلى تصريـح كتابي من والديه لأقوم بمثل هذا الإجراء التربوي.



كانت السيارة القديمة لامعـة، مـن الـداخل والخـارج. رائحتهـا مثـل رائحـة المراهق الذي غمس يده في كولونيا "أولد سبايس" للمرَّة الأولى. حيَّاني "دانيال"، وهو راضٍ عن نشاطه الإنساني، بإيماءة واختفى مرَّة أخرى مـن حيـاتي إلى أجـل غير مسمى. في طريقي إلى البيت، حاولت معرفة ما يمكن فعله مـع مـا أدركتـه بشكل غير مثير للدهشة إطلاقًا من غباء أخي غير الشقيق.

كـان أمـرًا متوقعًـا تمامًـا، ومُزيَّفًـا. حكايتـه مكتوبـة بالفعـل، ومـا كـان عـلى ذاك الفتـى إلا أن يقرأهـا أمـام الفصـل كلـه. سرقـة الموتوسـيكلات في الثالثـة

عشرة تعني أنه سيصبح رجل أعمال في الخامسة عشرة، ويختفي في ظروف غامضة في الثامنة عشرة، ثم يظهر، بعضلاته ووشمه ويتباهى بقوله: "كنت في إجازة". حتى إن اضطر أن يُضفي الشرعية على ممارساته التجارية ولو ليوم، فحياته سوف تستمر على أريكة المراهنات أمام العمارة رقم 12. في الخامسة والعشرين، ما زال يستمع إلى موسيقى "التيربو" الشعبية، ويعتقد أن سيليكون النساء وكوابح السيارات كفيلة بأن تقلب كيان العالم. في أفضل الأحوال، يمتلك له مكتبًا في مخبز الكيك الألباني.

عند هذه النقطة، خطر على بالي أن معلومات "دانيال" تفيدني بالفعل. تجاوزت المصنع الحراري، ولكنني قرَّرت أن ألفَّ. فيجب أن تكون "دوشا" في طريقها من العمل إلى البيت الآن، ومن المحتمل أن يكون "ملادِن" في العمل الآن على الأريكة أمام العمارة.



16



أخبرتني "دوشا"، بابتسامتها التي لا تُنسى، للمرَّة الأولى، منذ أربعة عشر عامًا، بأنها تنتظر مولودًا وعلينا أن ننتقل مع "دراجان" "الهامس" إلى شقته في ميدان "بريجل". بينما ينتقل والداه، اللذان لم يُعلِّماه أن الهمس في الأماكن العامة وقاحة، إلى شقَّتنا لأنها أصغر. اسوَدَّت الدنيا في عيني. هربت مِنِّي كل حججي، ولم أستطع أن أمنع شيئًا. كانت "دوشا" في ذلك اليوم وقحة، وبقرة، ومقرفة، وقبيحة، وحمقاء، وخنزيرة، ومعتوهة، وغبية، ومُغفَّلة، وعاهرة مرَّات ومرَّات. بالنسبة لي، أراحتني هذه الألفاظ. لا أدري ماذا أمقت أكثر في ذلك اليوم؛ حقيقة أنها موتت أبي ودفنته دون إذن مِنِّي، أم أنها من بين كل الرجال أعطت نفسها لـ"دراجان تشيرتش" من ميدان "برجل"، الذي لا يساوي شيئًا. أيًّا كان، دفعني ذلك إلى الصراخ الهستيري، حتى كدت لا أستطيع التنفس. هددتها وبعثرت الأشياء من حولي في الشقة. دفنت "دوشا" رأسها بين يديها وأخذت تشهق، بينما كنت أصيح وأُلوِّح بيديَّ في وجهها. وأخيرًا أبلغتها، على الأقل عشر مرَّات، أنها تستطيع أن تذهب وتقضي شهواتها، ولكن لن

أتحرك إلى ميدان "برجل"، ولا أريد أن أرى طفلها، ولا أهتم بكل ذلك، ولـو أدى ذلك إلى ألا أراها للأبد.

وعلى الرغم من ذلك، اتصلت "دوشا" بي مـن قسـم الـولادة، عنـدما ولـدت "مـلادِن". لم أصـيح فيهـا أو أشـتمها، ولكننـي التزمـت الصـمت في التليفـون، وتظاهرت بأنني لم أسمع أنها ولدت أخًا لي، بشعر أسود يشـبهني بعـض الشيء لأنه كان ممتلئًا مثلما كنت أنا. انتظرتها لتخبرني بما تريد أن تخبرني به ثم قلت:

- إذًا؟

وسكتت، ظللنا ساكتين إلى أن قفلت الخط.

رأيت "ملادِن" للمرَّة الأولى عندما كان شعره الأسـود يتسـاقط عـلى عينيـه. كان يغيظني لسبب بسيط أن "دراجان" كان يرى كل شيء يفعله ظريفًـا. حتـى عندما يمسك أنفي بيديه، ويصدر أصواتًا عشوائية تترجمها "دوشـا" عـلى الفـور إلى رسائل فلسفية. كان طفلًا بدينًا ويتبول بلا تحكم، بالإضافة إلى ما يفعله مع أنفي. كان معجبًا بأعقاب سجائر "دراجان" في الطفاية الموجودة عـلى الطاولـة. حاولت أن أظهر في وجوده لا مُبالاتي بقدر الإمكان. ولمـا كـان هـذا غـير كـافٍ، تجاهلت صلة الدم التي بيننا، مقررًا أنـه لـيس أخـي. قـرَّرت بالفعـل أن عائلـة "دوشا" الجديدة لن تكون مقربة لعائلتي الجديدة، لذلك بدأت أتعمَّد تجنُّبهم.

عندما بدأ الطفـل يقـول "بابـا" و"مامـا"، طلبـت "دوشـا" أن أقابلهـا في مكان عملها. في مكتب الطبيـب، بـدأت توضـح باعتـذار متلعـثم أن بعـض الناس، لسوء الحظ، لا يستطيعون العـيش بمفـردهـم، وأن الوحـدة تتطلـب نوعًا خاصًّا من القوة الذاتية، التـي لا تمتلكهـا، لـذلك احتاجـت إلى شـخص

ما يشاركها حياتها. وأوضحت أنها اضطرت أن تكوِّن أسرة جديدة، وأنني سأتفهَّم ذلك عندما أكبر، وسأعرف أكثر عن هذه الأشياء. أضافت أن "دراجان" زوج ممتاز، وأب ممتاز أيضًا، يكدح في عمله وأمين. ثم دخلت في تلك الأكليشيهات التي لا معنى لها. وفي نهاية المطاف، عندما وجدت نفسها لا تستطيع أن تستمر، ولا تجد ما تقوله لي، توقَّفت وقالت إنها تتمنى أن نحب أنا و"ملادِن" كل منَّا الآخر، وأن نصبح صديقين. ولكنني كنت في ذلك الوقت في أسوأ سني البلوغ، فلذلك أجبتها بأنهم الثلاثة، وأنا، لسنا "نحن"؛ لأنهم "هم"، وأنا سأظل "أنا". أضفت أنني، على عكسها، أستطيع العيش **وحدي**. وقبل أن أصفع الباب خلفي، قلت إنها لا تقدر أن تأمرني بحب أي شخص.

في المرَّة التالية التي رأيت فيها "ملادِن"، قدَّمني "دراجان" بقوله:

- "ملادِن"، هذا "فلادان". صافحه.

صافحت ذلك الصبي الصغير أسود الشعر، وقمحي البشرة، وواسع العينين السوداوين في محطَّة الباص. يبدو أنه في هذه اللحظة وافق أبوه على أنه ليس له أخ، وأنني واحد من كثيرين يتعامل معهم "ملادِن". لذلك وقفنا هناك، ينظر كل منَّا إلى الآخر. راح "دراجان"، الأكثر مِنِّي حرجًا، يستغل وجود ابنه ليتجنَّب الكلام معي، وأخذ يثرثر معه بلطف:

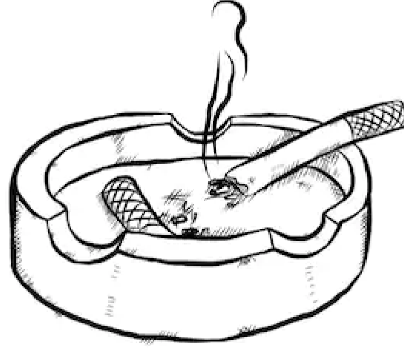
- كما ترى، هو كبير، ستكبر مثله عندما تذهب إلى المدرسة، وستلعب بالكُرة، وعندما تأكل بكثرة وتجد فتاة...

لحُسن الحظِّ جاء الباص الذي كنت أنتظره، ولم يضطر "دراجان" أن يستمر في سرد قصة حياة "ملادِن" التي ارتجلها وتنبأ بها، مما جعله يبدو أحقر في نظري مما كان عليه.

لا أعرف كيف ولا متى شرحوا لـ"ملادِن" أنني أخـوه نصـف الشـقيق فعـلًا. ولكن لسنوات عدَّة تصورت أنه لا يعـرف معنـى هـذا، ولا كيـف يـتصرف مـع شخص في مواصفاتي. في المرَّات القليلة التـي تقابلنـا فيهـا، كـان يخفـض نظراتـه أمامي خجلًا، ولا أدري كم تحدثت معه منذ أن كان صبيًّا صـغيرًا. لكنـه عـوض ذلك جزئيًّا، عندما تحوَّل من صـبي لطيـف هـادئ إلى مـواطن غريـب الأطـوار؛ يقتحم البدرومات، ويكتب على جدران المصـاعد. اعتقـد أنهـا نكتـة ظريفـة أن يرى أخاه نصف الشقيق واحدًا من أصدقائه من عمارة 5، أو عمارة 8، ويتعامل معه على هذا الأساس.



17



- عمَّ تتحدَّث يا رجل؟ أي سكوتر؟

انتظرت "مـلادِن" في "سـومبريرو"، بـار في أطـراف منطقتنـا، فمـن الصـعب هناك أن نصادف "دراجان". وافق أخي على الذهاب إلى هناك، ولكن فقط بعد أن هدَّدته بأنني سأخبر "دوشا" بسرقة الموتوسيكلات إن لم يأتِ. جلس بجواري، ولاحظت فعلًا أن حيويته قلت منذ آخر مقابلة لنـا، إذ انـتهج عـادة "الهبسـتر" الصغار، الذين يعتقدون أنه من الأناقة أن تمشي بـبُطءٍ، مثـل آبـائهم الممتلئـين. كان "ملادِن" مثالًا نموذجيًّا لضحايا شـغب مرحلـة البلـوغ، لـذلك لا فائـدة مـن شرح أي شيء له.

- اتصل بـ"دوشا" كي تأتي إلى هنا.

- اتصل بها أنت.

- يا فتى! توقَّف عن اللف والدوران! أعلم أنـك كنـت تقـود موتوسـيكلات مسروقة، وأستطيع أن أبلغها الآن.

- لا تقل إنني سرقت موتوسيكلات، لم أفعل ذلك.

- هذه هي المشكلة.

- ماذا تريد؟

- اتصل بـ"دوشا".

- اغرُب عن وجهي!

ضربت الطاولة بيدي، ولكنه تراجع إلى الخلف لا إراديًّا، كأنه معتاد على تفادي اللكمات. طار كرسيه في الهواء، ثم إلى الأرض واستدار نحونا ثلاثة من اللاعبين الواعدين في البولينج يجلسون إلى الطاولة المجاورة.

- أتريدني أن أستدعي "دانيال" هنا؟ أتريده يخبر "دوشا" مَن أحضر له الموتوسيكلات؟

- مَن "دانيال"؟

تغيَّرت نغمة صوته. وبدأت تحركاته البطيئة تتخذ السرعة العادية، فالتقط كرسيه وجلس أمامي.

- لم آخذ إلا موتوسيكل "موبيد" واحدًا له، أعلم أنه رجل سافل.

- لا أهتم، اتصل بـ"دوشا"، وأخرجني من الموضوع.

- لماذا لا تتَّصل بها أنت؟

- لا ترد على تليفوني.

- أرسل لها رسالة.

- اسمع! ما بيني وبينها... لا علاقة له بك.

- لا أثق بك!

- أنا لا أكذب.

- أتحلف بهذا؟

- أحلف.



بينما كُنَّا منتظرين "دوشا"، بدأ "ملادِن" يبوح بما داخله من إثر الملل. ودون قصد مِنِّـي، اكتشـفت كيـف أن "مـلادن" وبعـض الأشـخاص أسـماؤهم "فيتـو" و"فيكتور"، وغيرهما، لا أعرفهم سرقوا سكوتر لفتاة في مركز المدينة ليتسلوا بـه. وأثناء عملية السرقة، لو فهمت "ملادِن" بشكل صحيح، ظلوا يضحكون بطريقـة هستيرية. اقتحموا في الليل جراج في الحي المجاور، كالسـحرة. بـلا شـك "فيتـو" و"فيكتور" اقتحما الجراج، فهـما خبـيران في هـذه المهمـة، بيـنما كـان "مـلادِن" يراقب الجو، لربما جاء أي "مُخبر مُغفَّل لن يتمكن من القـبض علـيهم". أخـذوا الموتوسـيكل، ولكــن "فيتــو" الجبــان أحــسَّ بــالخوف، فأخــذوا الموتوســيكل لـ"دانيال"، صديق شقيق "فيتو"، وشخصية "دانيال" هـذا أحمـق قـذر. كـل مـا سيفعله هو أن يعيد دهن الموتوسيكل وإصلاحه، راقد في مكانه دون أن يفعـل شيئًا، وسيذهب وراء الشمس يومًا ما. رددت عليه:

- نعم، من المؤكد هذا.



تفحَّصتنا "دوشا" على نحو غريب، ولكن "ملادِن" تظاهر بشكل مقنـع بأنـه لا يراها تفعل ذلك، بينما حاولت أن أفهمها دون أي كلمة أنه ليس لديَّ أي نية لتوضيح الموقف. لا أدري إن كانت فهمت أم أنها فقـط أرادت أن تعـرف لمـاذا هي في البار مع ابنيها. جلست دون أن تقول كلمة واحدة، ثم تظاهرنا جميعنـا أن ذلك أمر طبيعي.

- ذهبت لأرى "دانيلو".

- وبعد؟

- قال إن "نيدلكو" في سلوفينيا.

التفتت "دوشا" نحو "ملادِن". ربما كانت تقرر أن ترسله إلى البيت، ولكنني أردت أن أعرف إن كان ذاك الصبي سيتأثر بالموضوع الذي نتكلم فيه بأي شكل. ولكنه كان مُهتمًّا بموضوعه فقط، أحسَّ بالملل ممن معه.

- هل تعرف أي شيء عن هذا؟

نظرت "دوشا" إلى ابنها الأصغر، ولكنه لم يُبدِ أي انتباه.

- لا أعتقد ذلك.

- ماذا تقصدين؟

- "فلادان"، لا معنى لـ...

- لا معنى لماذا؟

- لا معنى...

- لا معنى لماذا؟

نظرت "دوشا" إلى "ملادِن" مرَّة أخرى، ولكن يبدو أنها كانت تريد أن تميل عنِّي، ونظرت إلى الجرسون، كما لو كانت تطلب المساعدة. أخذت تنقر بأصابعها على الطاولة، تذكَّرت أن"دوشا" مدخنة، والنيكوتين يساعد في مثل هذه المواقف.

- هل يمكنني أن أنصرف؟

وجه "ملادِن" نظرته إليَّ وانتظر إجابتي. يحتمل أنه أيقن أن لدينا أنا و"دوشا" مشاكل أكبر من سرقته موتوسيكل من الجراج بالليل والتجوُّل به، فرأى أنه لا ضرورة من وجوده معنا. أومأت دون أن أجعل "دوشا" تشعر بلعبتنا المثيرة للتوتر تلك.

- لا تُورِّطني يا أخي!

خدعة رخيصة، ولكنها نجحت. لم يقل لي يا أخي من قبل، من المرجح أنه أحسَّ أنني لا أرحب بكوني أخاه، كما لا أرحب بكوني ابن "دوشا". أشك في أن "ملادِن" يدرك صعوبة مدى مقاومتي حتى لا أمثل شيئًا لأي شخص، وأشك أن يكون قد اكتشف رغبتي الحقيقية. ربنا كان يحاول أن يرتجل فقط، أو يريد أن يكتسبني.

راقبناه أنا و"دوشا" وهو يجرجر قدميه إلى مكتبه أمام العمارة وللحظة، ربما تأثرًا بكلمة أخي، فكَّرت في أن هناك شخصًا لطيفًا يتوارى خلف هذا المظهر، شخصًا أستطيع أن أتكلم معه بكلمة أو اثنتين. كان هذا رغبتي المخبوءة، التي ليس لها وجود محسوس في هذا الكائن المسمى "ملادِن".

بمجرد أن اختفى الصبي عند الناصية، مدت "دوشا" يدها بسرعة في حقيبتها وأخرجت علبة سجائر، وأشعلت واحدة بيدٍ مُرتعشة، بدا واضحًا معاناتها بابتعادها عن السجائر. أسلوبها في تربية ابنها ما زالت سيئة التوجيه، وأعتقد أن الأمر أشبه بجحيم عندما يتعلَّق بتعليم الآخرين. فكَّرت في أن أسألها إذا كان ابنها يدخن بشراهة، فهذه أتفه مشكلة في حياته. لكنني تراجعت عن ذلك. فهذا لا يمكن، ولا ينبغي أن يكون من شأني. قد أصبح "أخًا" بسبب حكاية تافهة عن سرقة موتوسيكل. حياتي مُعقَّدة بما فيه الكفاية، من دون مشاكل أخي الصغير غير الشقيق الغبي.

- هل لديكم شنابز؟

- لا.

- إذًا ويسكي، وكوب كبير من الماء.

لا أعرف إذا كان حائطها ينهار، أم أنها تخطط للجولة الأخيرة، وجهًا لوجـه. كل الاحتمالات متوقعة معها.

- "فلادان"...!

أحضر الجرسون لها الويسكي. أمسكت "دوشا" فـورًا بالكـأس، وقرَّبتهـا مـن فمها. وضعتها على الطاولة مرَّة أخرى في لحظة، وهي لم تزل ممسكة بها بكلتـا يديها، مما صرف يديها عن الارتعاش المضطرب. أخذت نفسًـا عميقًـا، لكننـي لم أسمع إلا سيمفونية من تنهُّدات متقطعة، تنم عن قلقها المتزايد. رفعت الكأس مرَّة ثانية، وأخذت رشفة من الويسـكي، وأخـيرًا التفتـت إليَّ، ونظراتهـا تحـوم في المكان بعصبية.

- "نيدلكو"... دائمًا ما كان يعد فقط. وعدنا في "باولا" بأن نذهـب إلى بلجراد لأيام عديدة، ثم سينتهي الأمر ونعود على الفور. كان يقول دائمًا: "لـوزا سـيهتم بالأمر" وأحسست بأنه فعلًا يصدق هذا. لكننـي أنهيـت حيـاة بأكملهـا عنـدما تركت "ليوبليانا"، وجئت معه إلى "باولا"، ولم أقدر أن أتخلَّص من إحساسي بـأن كل شيء يتكرر، بأن الأمور لن تنتهي، ولن نعود إلى بيتنـا مـرَّة أخـرى. بـدا كـل شيء وكأنه النهاية، لذا لم أصدق كلمة مما يقول. من المحتمل أنه صدَّق أن كـل شيء سيعود في أيَّام عدة. ويصبح كل شيء كما كـان. ولكننـي لم أقـدر. جلسـت على ذلك السرير في ذاك الفندق ببلجراد، أستمع لوعوده وقصصه كل يوم، التي تبدأ دائمًا بكلمة "غدًا"، أو في غضون أيام. أصبحت كلماته لا معنى لها. أحسسـتُ بأنه يقولها كي يقول أي شيء. أحسستُ بالفظاعة لو أنني تركتـك في تلـك الغرفـة، أحسستُ بالفظاعة لأنني أعرف أنك لا تفهم ما يحدث، وفي كل مرَّة أعود، أمسـك نـفسي بالكـاد عـن البكـاء أمامـك. في كـل مـرَّة أدخـل فيهـا الغرفـة، أرى نظرتـك

المليئة بالأمل، وأرى خوفك، ووحدتك، ولكن أخاف إن بدأت في التوضيح أسقط على الأرض وأنخرط في البكاء، مما سيجعل كل شيء أسوأ. قلت لنفسي لا ينبغي أن أبكي أمامك، لم أرِد أن أقتل الأمل الضعيف الذي كان لديك. وبدلًا من ذلـك، رحت أتجوَّل في بلجراد، أبكي أمام الغرباء، وهم ينظـرون إليَّ في انـدهاش، فـأفر منهم. منذ صباي وأنا أتقاتـل مـع أبي بعنـاد ولا أبـكي أمامـه. لم أشـأ أن أعـترف بهزيمتي أمامه، مهما كانت صفعاته تؤلمني، واعتدت أن أخفي آلامي. ولكـن في يوم من الأيام، جلس رجل عجوز بجواري عـلى مقعـد في حديقـة أمـام المسرح، ليقرأ الجريدة. كان رجلًا محترمًا بحق، بقميصـه مغلـق الأزرار وحذائـه الرائـع. أتذكَّر أن الجريدة ذكرت شيئًا عـن الحـرب بـين الجـيش الشـعبي اليوغوسـلافي والدفاع القومي السلوفيني، حول "ليوبليانا"، فلـم أسـتطع أن أتمالـك أكـثر مـن ذلك، بكيت بصوت مرتفع. فنهض الرجل العجوز وجلـس عـلى مقعـد مجـاور. ومن هناك ابتسم لي وأومأ بالتحية. في تلك اللحظة، ذكَّرني بأبي الغبي والأحمق، الذي لا يفعل ما هو مفروض أن يفعله، وأردت أن أجلـس بجـواره وأضـع رأسي على حِجْره. شعرت بأنني مغلوبة على أمري، كطفل صغير. عندها أيقنـت أننـي في حاجة إلى شخص ليحضنني، ويبعث فيَّ الطمأنينة، ويخبرني ماذا أفعل. ولكـن ليس لي أحد. فكل أهلي إما في "باولا" أو "ليوبليانـا"، ولا أعـرف في بلجـراد غـير "جوكا"، وآخر مرَّة رأيتها كانت وهي في السابعة عشرة، لـذلك لم أجـرؤ عـلى أن أطرق بابها، خشيت أنها قد لا تتعـرف إليَّ. خفـت أن أفقـدها هـي أيضًـا، فلـم أتصل بها مُطلقًا. اقتنعت، في ذلك الوقت، بأنه لا يوجد شخص أكثر مِنِّي شعورًا بالوحـدة. أخـبرت "نيـدلكو" بـأنني لا أسـتطيع مواصـلة ذلـك الوضـع، وأننـي

سأرحل، لا أعرف إلى أين، ولكن لا بُدَّ من الرحيل، وأنني سأتركه وآخـذك معـي، ولو إلى "بنجلاديش" لو استـدعى الأمـر. فـالتزم الهـدوء فقـط. اتصـل بي والتـزم الهدوء. أحيانًا يظل صامتًا لمدة رُبـع ساعة قبـل أن ينطـق بحـرف. وكـان هـذا يقتلني. كرهت صمته، كرهته من كل قلبـي، كرهتـه لأنـه سـاكت. فهـو أفضـل حتى ولو ينطق بوعوده، وإن كدت أُجَـنُّ منهـا. كـاد هـذا الصـمت يقتلنـي. لم أستطع أن أستمر هكذا، بدأت أبلغـه بـألا يتَّصـل بي إذا لم يـتكلم، إلا أنـه داوم الاتصال وظل ساكتًا. طلبت منه أن يتكلم، أن يقول أي شيء. كنت أزداد غيظًـا، هددته، جرَّبت معه كل شيء، ولكن لا فائدة. ذات يوم، أخبرته أننـي سـأذهب إلى "دوشان" و"ماريا" في سلوفينيا، وأنني لن أتصل بـه بعـد ذلـك. كنـت جـادَّة بالفعل، لكنه لم يصدر أي رد فعل. هـذه المـرَّة الأولى التـي أخـاف فيهـا مـما لا يستطيع البوح به، مما لا يريد أحد أن يقوله بصوت عـالٍ وبوضـوح، مـما تبثُّـه أخبار المساء بين السطور، مما تستطيع أن تقرأه في صـمت، مـا يريـد أن يقولـه المذيعون، ولكن غير مُصرَّح لهم. تصوَّرت كل شيء، وسمعت بعـض الأنبـاء مـن زوجات الضباط الآخرين، فصـار خـوفي أكـبر. لم يعـد بإمكـاني أن أبقـى في هـذا الفندق، بين هؤلاء الناس. لم أرِد أن نكـون واحـدة مـن أسر هـؤلاء الضـباط بعد الآن. ثم جاء ذلك الصباح للإفطـار... وكـل مـا قالـه: "سـتندلع حـرب". سألته ماذا يقصد بهذا، فهزَّ كتفيه، وهزَّ رأسه ونظـر بعيـدًا. لم يقـدر حتـى أن ينظر في عينيَّ. أحسستُ أنه يريد أن يقول لي ارحلي، أن أتركـه وأنسـاه، أن أفر لأبعد مـا يمكـن، لأنقـذك وأنقـذ نـفسي، لكنـه لم يسـتطع أن يتفـوَّه بكلمـة. كـان امـرأة في زيٍّ عقيـد، ولكـن مـا زال امـرأة، حتـى أسـوأ مِنِّـي. لديـه أوامـره، وحياتـه العسـكرية، ويتقبـل أي شيء، وكـل شيء. استسـلم

ذلك الصباح، ربما قبل ذلك، وربما مـن أول يـوم جـاء فيـه إلى بلجـراد، ولم أدرك ذلك. أو لم أرغب في فهم ذلك. فتعريفه الوحيد لقيمة الذات هو زيُّه العسكري ورُتبته، ولكنني ما زلت أرى زوجي، أباك، "نيدلكو" مـدفونًا فيـه. أعـرف أنـه لم يعد يعيش لنفسـه. فهـو فقـط العقيـد "بـوروجيفيتش"، جنـدي جـاء يومًـا مـا ليعمل، فاستقبلته الحرب، جالسة على مكتبه، وتبتسم له. ليس لديَّ فكرة لمـاذا وافق أن نذهب إلى "دانيلو" في "نوفي ساد". لا أعرف، ربما لتغيير شيء مـا، لنقـل شيئًا ما. اتَّضح لي فيما بعد أنه فعل ذلك لأنه لم يعرف ماذا يفعـل، ولم يسـتطع الاستمرار في وعوده معي بأن الأمـر "غـدًا"، أو "في غضـون أيـام" سـيتغير. لعلـه يجب أن أكون ممتنَّة له؛ لأنه لم يـرِد أن يكـذب أكـثر مـن ذلـك. لكننـي كنـت يائسة، ومُحبطة، وغضبانة منه لأننا عشنا هذا. ولكـن بـدلًا مـن ذلـك، أعطيتـه إنذارًا أخيرًا. أعطيته مهلة عشرة أيَّام ليختـار بيننـا أو الجـيش. شـعرت بالـذنب لأنني كنت أبتزُّه بك، غير أنني فكَّرت أن هـذا السـبيل الوحيـد للوصـول إليـه، وليأخذني على محمل الجد. إلا أنه أومـأ فقـط، وأتـذكَّر أننـي أردت أن أضربـه، كرهته للغاية، ولو أننا وحدنا لانقضضت عليه وخنقته، عندما أيقنت أن أمـامي احتمالين فقط: إما أن أثار جنونًا، وإما أن أذعن للأمر. أذعنت، لم أكن أنـا التـي ذهبت إلى "نوفي ساد"، كانت "دوشا" أخـرى، لا تسـمع ولا تـرى، تجلـس فقـط على الكنبة، محشورة بين هـؤلاء النـاس، تُحـدِّق في التليفزيـون شـاردة الـذهن. هذه الكنبة، وهذا التليفزيون هـما كـل مـا أتـذكَّره. أعلـم أننـي أرحـت نـفسي فصار عـلى الأقـل لـديك صحبة، وأنـك لم تعـد في حاجـة إليَّ، فـ"سـافا" كانـت تطـبخ لـك مـا تريـد. وأتـذكَّر مكالماتـه. فقـط يقـول إن كـل شيء سـيكون على ما يُـرام، لكنـه لم يُـرد أن يـتكلَّم إليـك، وطلـب مِنِّـي اخـتلاق سـبب. ربمـا

هو أيضًا انغلق على نفسه ورأى من الأسهل عليه ألا يسمع صوتك لأنه سيعيده إلى حياته الماضية. فعلًا، كل مكالماته في "نوفي ساد" تكرر نفسها. أخذ يعيد ما يفعله، وأنا أعيد ما أفعله. توقَّفت عن سؤاله عمَّا يحدث في الساحة، وهل سيهرب من الجيش، ويهرب معنا. أصبحت فقط أعد الأيام وأخبرته ذات يوم أننا سنذهب إلى سلوفينيا في اليوم التالي. كذبت وقلت بأنني اشتريت التذاكر، وأننا جهزنا أغراضنا، فلم يعترض، وسأل فقط: "أين ستقيمان؟" بمقدوري أن أظل أسمع هذا السؤال، التافه، الغبي، والمؤلم. تقبَّل رحيلنا بمذلة، مثلما تقبل الحرب ودوره فيها. قرَّرت عند هذه اللحظة أنه آخر مرَّة سأسمح له بأن يجرحني، لذا طلبت منه ألا يتَّصل بي مجددًا وأنني لا أريد أن أعرف عنه أي شيء. فقال: "وهو كذلك، وهو كذلك، وهو كذلك". كان يمزقني في حياتي، ولم أستطع أن أصرخ، أو أركل بقدمي، أو أصدم رأسي بالحائط، لم أستطع أن أفعل شيئًا في هذه الشقة المليئة بأقاربه. أردت أن أقتله، وأقطعه بيديَّ. وهو كذلك؟! قال "وهو كذلك" واستغرق في سكوته مجددًا. من المحتمل أنني لم أدرك أنه أراد متعمدًا أن يبعدنا عنه، يبعدنا عن هذا المكان. بالطبع لا يمكنني أن أعرف كل شيء يعرفه ولا أن أفهم ما يدور معه، أو حوله. لكنني لم ولن أفهم على وجه الخصوص خضوعه واستسلامه، إلى اليوم، لا أستطيع أن أفهم ذلك. رضاه بحقيقة أنه تخلَّى عن الكفاح من أجل نفسه، كما لو أنها لا تعني شيئًا بالنسبة له. ما يؤذيني أنه فقد الأمل فيَّ، ولكن لا أتقبل فكرة أنه فقد الأمل فيك أيضًا، أنت، ابنه. لا يمكن أن أغفر له ذلك. أردت أن أعاقبه على ذلك، وأصفه بالمتوحش، القاسي، المُتبلِّد. عندئذٍ أخبرته بأننا سنذهب إلى سلوفينيا، وأنني سأخبرك بأنه مات، وأنه لن يراك بعد ذلك.

فكانت إجابته "ربما يكون ذلك أفضل". لم أصدق هذه الكلمات، ولم أرغب في أن أفهمها. لم أرغب في معرفة أي سبب في هذا العالم يجعل رجلًا يـرضى أن يكـون ميتًا في عيني ابنه. لم أجرؤ على التفكير في أي سبب لذلك، فظيع، مُـروِّع. كنـت على يقين من أنه كان يبالغ، يؤدي دورًا دراميًا، مثلما يفعـل الرجـال. انظـر! مـا زال التفكير في هذه الكلمات يُوتِّرني، ولكن في ذلك الوقت كنت أرتعـش بشـدَّةٍ لدرجة أنني بالكاد استطعت أن أمسك بسماعة التليفون. لعلمك، لم أكن جادَّة، أردت أن أؤلمه كما هو يؤلمني. أردت أن أجرحه لينزف قليلًا. ولكنه تقبَّل موته. ففكَّرت في نفسي بأنه ليس الرجـل الـذي تزوَّجتـه. إنـه شـخص آخـر يتَّصـل بي، يتظاهر بأنه هو. شخص يريد أن يستغفلني، ويستضعفني عـن عمـد. لأننـي لم أعد أتعرف إليه مرَّة أخرى. لربما لـو رأيتـه مجـددًا، ونظـرت إليـه في عينيـه، أو لمسته. لا أدري، لربما اختلف الأمر، ولكن بهذا الأسلوب أحسستُ بـأنني أهجـر شخصًا مجنونًـا، غريبًـا عنّـي، شـاذًا، صـوتًا أجنبيًّـا ينطـق بأشـياء مبهمـة وغـير منطقية. وإلا ما امتلكت الشجاعة وجلست في ذلك الباص. ولا جـرؤت وتركـت بيت والديَّ. ولكن على الـرغم مـن كـل هـذا، لم أسـتطع دفنـه عـلى الفـور. في البداية، قطعت اتصالي به فقط. اعتقدت أن هذا كافٍ ليجعله يفهـم إلى أي مـدى قـذف بي، قـذف بي بعيـدًا، حتـى إننـي طرقـت بـاب "دوشـان بودلجار". "نيدلكو" الوحيد الذي يعرف مدى صـعوبة ذلـك عـليَّ، مـدى الإذلال، والتحامل لأرى شماتة هذا الرجل الخفية مـرَّة أخـرى، وخضـوع "ماريا" القميء. بعد كل هذا، كان الأمر أسوأ بمائة مرَّة مـن ذي قبـل. لم أستطع إلا أن أكرههما أكثر من أي شيء. لم أعد على استعداد أن أتفـاهم مـع أي مـنهما، وعـلى الأخـص، مـع نظـراتهما اللائمـة... كـل سـاعة

قضيتها في ذلك البيت كانت جحيمًا بالنسبة لي. لم يسألا إطلاقًا عن زوجي، ولا ماذا حدث له، أو إذا كان كل شيء على ما يُرام. لربما مات، لا يهمهما ذلك. لم يهتما بي. بدا لي أن "دوشان" تقبلك فقط ليريني كم كنت مخطئة في كل شيء في حياتي. عندما تشعر باليأس كما شعرت به أنا في ذلك الوقت، في ذلك المنزل، ستجد كل شيء يخبرك بأن الدنيا كلها تتآمر ضدك. رأيت أننا يجب أن نهرب من هناك أيضًا؛ لأنني شعرت بأن حياتي هناك في ذلك المنزل ستعود مجددًا من حيث انتهت ذات مرَّة. نعم يا "فلادان"، بينما كنت أجري هنا وهناك، نسيتك. نعم نسيتك. ولكم أشعر بالأسى لذلك. لقد نسيتك يا "فلادان". أعرف ذلك الآن. أعلم أنني تركتك خلفي، على الرغم من أنك كنت تمسك بيدي كل الوقت، وتجري في هذه الدنيا المجنونة، خلفي. كنت جزءًا من تلك الحياة، لم أستطع منع نفسي، ولا تدري كم كنت حزينة، ولكنك كنت، كنت بالنسبة لي، الحياة التي أهرب منها. أعرف هذا الآن. ولكن شعرت حينئذٍ بضرورة أن أنهي هذه القصة، وإلا سأموت. لم أستطع أن أكون جزءًا من هذه القصة على الطرف الآخر من التليفون. شعرت بأن كل شيء انتهى، ولم نعد موجودين، وأنه لا وجود لـ"باولا"، و لا لأسرة "بوروجيفيتش"، وأردت أن أواصل، في أي مكان آخر، أي مكان من دون "نيدلكو". لكنه بدأ يتَّصل من جديد، أراد أن يعرف كيف تسير حياتنا الطبيعية. وبدأ يتظاهر بأن كل شيء كما هو، ويسألني الأسئلة التافهة، عن المتاجر، الجيران، الجو، وكل هذه التَّوافه. أوشكت على الجنون، وهو يريد أن يعرف ماذا سنتناول على الغداء. اعتقدت أنه فقد عقله. عندما أُفَكِّر في ذلك الآن، من المحتمل أنه احتاج إلى انطباع عن الواقع لبضع دقائق، صورة مسموعة عن الدنيا، حيث ما زال

الناس يذهبون إلى المتاجر، ويطهون الغداء. حاول أن يظل متماسكًا، ولكنه كل يوم يبدو أنه سيكوباتي. أعلم أنني كنت فظيعة معه، أخبرته بكل شيء، ولكنه هكذا كان يبدو لي. بدأت أخاف منه، أخاف من صوته الهادئ، وأسئلته عمَّا نشاهد في التليفزيون. لعلمك، لم نتحدث، ولو لمرَّة واحدة، عن الحرب. إطلاقًا. ولا كلمة. لم يحاول أن يشرح لي أي شيء. ولم أسأله مُطلقًا عن أي شيء. أحيانًا كنت أحاول أن أتخيَّل عقيدًا يتَّصل بزوجته من ميدان المعركة، بعد معركة شرسة تركت عشرات الجُثَث من الأولاد الصغار، يتحدث معها عن البحث عن عمل، عن قيمة الإيجار، ودهان الجدران. ورأيت ذلك الرجل المجنون أمام عينيَّ، ولم يشبه هذا الرجل الذي أحببته أكثر من أي شيء في هذه الدنيا. وبدأت أتأكد من أن شعوري برغبتي في الابتعاد عن هذا الرجل الذي على الطرف الآخر من التليفون يزداد. لم أرغب بوجه خاص أن يكون لك علاقة به. ازداد كرهي للتحدث إليه مع كل مكالمة، وكنت أوشك أن أقطع المكالمة. عند لحظة معينة، لا أدري ماذا قال، فهناك الكثير، أيقنت أنني لا أريد أن أراه بعد ذلك والأكثر أنني لا أريدك أن تراه. لم أستطع تفسير ذلك حينئذٍ، وما زلت لا أستطيع، ولكن لست نادمة أيضًا. فما زلت أشعر بأنه الشيء الصحيح الذي ينبغي فعله. بالتأكيد سمعته، ثم ستعرف بعد ذلك عمَّا كنت أتحدث، وتفهمني. كان عليَّ أن أخبرك أنه مات. كان عليَّ أن أدفنه. لو أنك سمعت محادثة من محادثاته العديدة، لو أنك سمعت صوته الهادئ، لأيقنت أنه لا خيار لي. اضطررت لذلك. من أجلك أنت اضطررت أن أدفنه...

واصلت "دوشا" كلامها، واستمرت في قصَّتها، لكنني لم أسمع غير الكلمة الوحيدة غير السلوفينية التي قالتها لي خلال وجودنا في

"ليوبليانا". شاهدت شفاهها تتحرك، ما زالت تحكي قصتها، التي تأخرت كثيرًا كي تفسرها لي. شاهدتها أخيرًا تنفتح معي بعد ضياع كل هـذه السـنين، لكننـي لم أسمع غير صوتها البعيد يردد كلمة واحدة "مات، مات، مات".



18



- مات!

قالتها مرَّة ثانية، بعدما لم أستجب لما قالته أولًا بشكل مفاجئ:

- بابا مات!

كالعادة، استجبت لكلماتها السلوفينية بالصمت. ربما أدركتْ أن صمتي هذه المرَّة لم يكن عدم فهم من باب التمرد. أو لم تكن مستعدة لهذا الموقف الذي تدرَّبت بلا شك عليه في ذهنها على مدار شهور، وهكذا عبرت عن نفسها بشكل غريزي، كما لو عن طريق الخطأ، في لغة مهجورة لسعادتها التي ماتت من زمن. على أي حال، أخبرتني أُمِّي بأكثر الأخبار صدمة يتخيَّلها صبي في الثانية عشرة، وقالتها بلغتين.

في الأيام الأولى من شهر فبراير البارد، اشترت لي كُرة قدم، وصفتها بهدية متأخرة لكل الإجازات التي فاتتنا، وأجبرتني بشدَّةٍ على الخروج إلى

ملعب المدرسة الجليدي لألعب بها. هناك، وحدي تمامًا، بالقفازات والجاكت الشتوي، في مظهر يتيم وحيد في العالم، شرعت وأنا شارد الذهن أن أضرب حارس مرمى غير مرئي. منصّات مسفلتة خالية، مهجورة منذ منتصف أكتوبر، تقف صامتة من حولي، بينما أركل كرتي الجديدة، الهدية التي لم أكن أحلم بها؛ لأنني أعلم أنه لا يوجد نقود لشرائها. ظننت أنها محاولتها اليائسة لتبعدني عن الشقة لسبب أو لآخر، أو محاولة لمساعدتي، بطريقتها الخاصة، كي أتأقلم مع أندادي أمام العمارة. حتى إنني اعتقدت أنها ومضة من غريزة الأمومة، التي اعتبرت أنها انقرضت من زمن، ولكن لم أُفَكِّر أنها وسيلة لبهجتي قبل أن تحطم يومي، أسبوعي، سنتي، عمري كله.

هكذا، في درجة حرارة ثلاثة تحت الصفر، كنت أركل كُرتي الجديدة، ويداي مدسوستان في جيبيَّ، شاعرًا بالأسف لهذه المرأة التي لم تعرف كيف تتقرب من ابنها، وانتهى بها الأمر لتشتري له كُرة قدم وترسله في البرد القارس، كجزء من خطتها أن تجعله يبتهج قليلًا. كنت على وعي من إحساسها بالواقع الذي في غير محله، وافتقارها إلى إدراك أن ملاعب الرياضة في فبراير خاوية، وأن التصويب بأحذية الشتاء غير مُمتع بالمرَّة. لقد شعرت بالأسف لهذه المرأة التي تمنَّت أن تجعل ابنها سعيدًا فجعلت منه مُغفَّلًا.

بعد أقل من ساعة، عُدتُ من الملعب فوجدتها بوجهها المليء بالدموع، مما أكد هاجسي. لم تنتظر حتى أخلع حذائي، وتدفأ يداي، ويسترد خدَّاي لونهما. لم تنتظر حتى أفك الكوفية، وأخلع طاقية الرأس، ولكنها اندفعت:

- بابا مات!

ثم كررتها، في حال لم أسمع:

- مات!

لم أجب، ظل وجهي كما هو، بينما بدأت "دوشا" تشرح كيف مات. أتذكَّر أن الكلمات كانت تتدفَّق منها، لكنني لم أستمع وذهبت إلى غرفتي، وسحبت علبة "هاشم" للألعاب النارية الخضراء التي ما زالت في حالة جيدة من تحت المرتبة، وعُدتُ مسرعًا إلى الخارج. أخذت تنادي بصوت عالٍ كي أعود، ولكن في تلك اللحظة، أردت أن يبدأ العالم في الفرقعة. اضطررت أن أفرقع، وهذا كل شيء، ولم أشعر بشيء آخر.

أعتقد أنها جرت ورائي، ولكنني كنت أسرع منها، اندفعت نحو ملعب الكُرة، الذي ما زال مهجورًا ومن السهل أن أختبئ فيه من أي شخص يريد أن يتلصَّص على طقوس الحداد الخاصة بي. هناك مائة قطعة من الألعاب النارية في العلبة، مائة قطعة نارية خضراء قوية تملأ المنطقة بالدويَّ، واحدة بعد الأخرى، وأنا جالس تحت شجرة بجوار الملعب، أشعل وأقذف، ولا شيء في ذهني. كانت تفرقع، تنفجر فعلًا، وتظل طويلًا، نعم كانت هناك بعض القطع لا تشتعل، ولكن لم أهتم بالأمر. الولَّاعة التي خطفتها من يد "دوشا" أحرقت أصابعي، ولكن لم أعبأ بذلك. شعرت بالحاجة إلى الفرقعة والاشتعال والابتهاج وتمنيت ألا تنفد قطع الألعاب النارية، كي تفرقع أكثر قوة حينما أشعلها بسرعة أكبر.

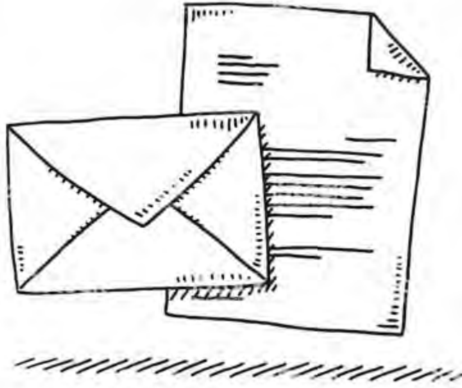
تبقَّى معي عشر قطع، لما جاء رجلان من الشرطة واقتربا مِنِّي وسحباني إلى سيارة الشرطة، وأخذاني إلى القسم. سألاني أين أسكن، وما اسمي، وطلبا رقم تليفون المنزل، واسم أبي، وأمي، وكثيرًا من المعلومات

الشخصية التي أعطيتها لهما مطيعًا، آملًا ألا يسألاني لماذا جلست تحت الشجرة وأشعلت تسعين قطعة من الألعاب النارية.

لم أعرف إذا كانت "دوشا" وضحت للشرطة في التليفون ما حدث بالفعل، لكنها عندما وصلت إلى قسم الشرطة لم تقل كلمة واحدة. حضنتني فقط وأومأت لهم. ربما كانت عاجزة عن الكلام؛ لأنها لم تتكلم أيضًا عندما عدنا إلى البيت. حاولت في المساء أن تكلمني مجددًا عن موت "نيدلكو"، ولكي تجعلني أشعر بالارتياح أيضًا، ولكن لم أستمع، وتركتها تحضنني، معتقدًا أن هذا يريحها أيضًا. في الصباح التالي، تظاهر كلانا بأننا استيقظنا لنبدأ يومًا طبيعيًّا تمامًا، دون أن نتحدث عن الألعاب النارية ولا الشرطة ولا الآباء المتوفين. على حد قول أُمِّي، مات "نيدلكو بوروجيفيتش" يوم 17 فبراير 1992. وهذا ما كان.



19



أعادتني قصَّـة "دوشـا" إلى مكـان لم أزره مـن وقـت طويـل. كتمـت في نـفسي توقيت موت "نيدلكو"، ولسنوات عدَّة لم يوجد ذلك اليوم البارد من فبراير بالنسبة لي. يجب أن يظل أبي مـدفونًا في أعماقـي؛ لأن لـيس لـه مقـبرة أخـرى، ولأن موتـه ينبغي ألا يصل إلى كل أفكاري ومشـاعري اليوميـة. كانـت "إمـا"، واحـدة مـن أول صديقاتي في المرحلة الثانوية، الوحيدة التي استطاعت أن تنتزع مِنِّي معلومة أن أبي ليس له مقبرة. سألتني أكثر من مرَّة كيف أحتمل هذا. وحكت لي عن جَدَّتها، التـي أصبحت بلا أخ ولا أب بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت تحِنُّ، لأكثر من خمسـين عامًـا، لمقـبرة تركـع عنـدها، وتضيء شـمعة بيضـاء صـغيرة، وتصـلي عنـدها وتتلـو

أسماءهما في صمت. ظللتُ أدِّعي أننـي لا أحتـاج إلى مقـبرة لأبي، وأن أبي مـات، وقصته انتهت بالنسبة لي.

هكذا أعادتني "دوشا" إلى حيث يعود كثير من الناس، ولكنها أعـادتني مـن حيث فررت ذات مرَّة كي أهرب من أحزاني. بينما كنت أستمع لها وهـي تحـكي لي عن الأوقات العصيبة، ظللتُ أرجع إلى تلك الشجرة بجوار ملعب كُرة القدم، مشعلًا الألعاب النارية الخضراء، واحدة بعد الأخرى، فتفرقـع بجـوار رجـلي، إلى أن بدأت أضعها على الأرض بجواري تمامًا. لـو امتلكـت مزيـدًا مـن الألعـاب في ذلك الوقت، وسمحوا لي بإشعالها، لفرقعت عاجلًا أم آجـلًا، عـلى مـا أعتقـد، في حِجْري، وفي يدي. كنت أبعد بها الألم وفي الوقـت ذاتـه، أسـترجعه. وفي النهايـة، ربما فاز الجزء الذي في داخلي، الذي أراد ألا يحزن، والذي قاوم الألم.

ولكـن "دوشـا" أيقظـت أيضًـا الجـزء الآخـر مـن جسـمي، الأكـثر حساسـية وضعفًا، وجلست هناك بجواره، عاجزًا عن الاستجابة لكلماتها. لقد أعـادتني إلى جذع الشجرة بجوار ملعب كُرة القدم الجليدي، وبدأ كل شيء من جديد. فقط في تلك اللحظة التي لم يمت فيها أبي فعلًا، شعرت بأنـه مـات. مـات عـلى مـدى ستة عشر عامًا.

سحبت خطاب "نيدلكو" من جيبي ودفعته في يدها.

- من أين جئت بهذا؟

- من "برتشكو".

أخذته وبدأت في قراءته، راقبت وجهها باهتمام، ولكن لم أتبين منه شيئًا.

- مَن يكون "ج."؟

- وكيف يفترض لي أن أعرف؟

- ألم يحضر لك هذا الخطاب؟

- لا، لم يحضر أحد خطاباته، كانت تأتي عن طريق البريد، وكانت تُرسل من سلوفينيا، في أظرف بيضاء عادية تُشترى وتُرسل من هنا. من دون اسم أو عنوان. لم أعرف إطلاقًا مَن يرسلها. واعتقدت أنه من الأفضل هكذا.

لا أعرف إذا كانت تعاستي حقًّا أثرت في "دوشا"، ولكنني أحسستُ أنها تعتذر لي، وأنها فعلًا آسفة لعدم قدرتها على مساعدتي.

- ربما...

- ماذا؟

- لا شيء.

- أخبريني!

- ربما "بران" يعرف شيئًا، سأبلغه ليقابلك.

كان "بران" هو الملازم "برانكو ستانيزيتش"، الذي اعتاد أن يأتي إلى "باولا" في إجازة كل صيف، ويحضر معه براندي "بلوم" لأبي. كان في ذلك الوقت الجنرال "ستانيزيتش". كان الرجل الذي تمنت "دوشا" أن يساعدها في إيجاد عمل عندما جئنا إلى "ليوبليانا"، ولكن لم تعثر عليه، على الرغم من أنها اتصلت به في المنزل والعمل، وعلى الرغم من أنني كنت أقضي أحيانًا كل أوقات ما بعد الظهر أطلب رقمه باستمرار، ولكن دون رد. أخيرًا، عثرنا على السيد "ستانيزيتش"، فقد بدأ يظهر في التليفزيون، استبدل بزيِّه العسكري بذلة زرقاء جميلة. بعد ذلك بوقت قصير، فقدت "دوشا" فيه الأمل، وتحررت من التزامي بالاتصال.

في ذلك الوقت، أصبح السيد "ستانيزيتش" نجمًا على الموائد المستديرة، ومناقشات التليفزيون، يخاطبه الصحفيون برهبة واضحة، على الرغم من

أن ألقابه المدونة على شاشة التليفزيون أصبحت أكثر غموضًا كل سنة، وكذلك كلماته. على الأقل هذا ما ظهر لي، محاولًا أن أرى فيه "بران" الذي اعتاد الشواء على الشاطئ مع "أمير" و"نيدلكو" ويغلبه النوم في الشمس بعد الغداء، بينما أنا وأبناؤه كُنَّا نحركه إلى الظل كي لا تلسعه الشمس. أردت أن أتعرف فيه على الشخص الذي كان يرتدي القناع الأصفر المزود بأنبوبة التنفس الخاص بابنه الأصغر، وكان يجمع الأصداف الصغيرة لساعات عدَّة متواصلة، بينما تظهر مؤخرته البيضاء من الماء كالجبن الإيطالي؛ الرجل الذي جعلنا نغني جميعًا الأغاني الحماسية في المساء، إلى أن يسقط مخمورًا، فيرفعه "أمير"، و"نيدلكو" إلى سيارته "اللادا"، التي نسحبها إلى "باولا" لأن زوجته ليس لديها رخصة قيادة.

بصرف النظر عن المجهود الذي بذلته، لم أستطع أن أرى "عمو" الظريف في السيد "ستانيزيتش"، فقد كان يحب أن يتكلَّم كثيرًا عن التغيرات الاجتماعية والديمقراطية، والذي بفضله ما زلت أغني "بين الوديان وفوق التلال" باللهجة السلوفينية. كان "بران" هو السيد "ستانيزيتش"، حتى عندما ظهر فجأة في المرحلة الأخيرة من تفكك أسرتي، كذلك ظهر في قصة زفاف بلقانية درامية هزلية أتذكَّرها.

لكن ذلك لم يكن سائدًا في كل الظروف الأخرى، فحفلات الزفاف التقليدية كانت تكتظ بالعواطف التي يعبر عنها الناس بوضوح، وقصَّات شعر مأساوية، وبذلات رخيصة غير مضبوطة، وكرافتات مربوطة بطريقة غير مهندمة، وخلفية موسيقية، ربما كان الغرض منها أن تُبعد ثقيلي الدم المتطفلين. أتذكر حفل زواج في حي صربي نموذجي، حيث اتجه أهل قرية صربية نبذها الله إلى ساحة سلوفينية مسفلتة ليستقروا

بين العمارات للاحتفال بزفاف ابن أو أخ أو ابن عـمٍّ أو حفيـد أو ابـن أخـت أو ابن عمَّة أو جار أو صديق سلوفينية. كان "دراجان" بهذه المناسبة، عليه اللعنة، وقد وجد فتاته السلوفينية، وربما الآن - عليه اللعنة - سينعم بسـعادة أبديـة، ويعيش عُمرًا طويلًا، موفور الصحة.

احتلت سيارات ضيوف الزفاف ميداننا، تبدو مـن شُرفتنـا أشـبه بالكعكـات الكبيرة المتنقلة على عجل مزخرف بشكل مبـالغ فيـه، وراح عـازفو الأكورديـون يعزفون في الجـراج المخصـص للمعـاقين، والـذين جـاؤوا مـن مسـافات بعيـدة، بتأشيرات حصلوا عليها بصعوبة، ليسيروا بأُمِّي من مدخل إلى آخـر، الكـل يعلـو صوته بـ"أغنية من الوطن". كـانوا في الوقـت نفسـه يمـرون بزجاجـات الشـنابز المربعة، ويعـدون نفسـهم بسرعـة للمهرجـان، الـذي يتوقعـون أن يكـون قمَّـة الحفلات. وراحت الفتيات الصغيرات، اللاتي صرن يشبهن أمهاتهن بفضـل أحمـر الشفاه، يرقصن بأذرع متشـابكة عـلى الموسـيقى الشـعبية أمـام سـاحة مخـزن الدَّراجات. وأخذ الشبان، الذين استبدلوا بملابسهم الرياضـية الإلزاميـة جواكـت آبائهم الواسعة، يهتفون لهم من مسافة معقولة، بينما أعمامهـما يقـدمان لهـما المشروبات، ويربتون بفخر على ظهريهما. أما الخالات مـن كـل الأعـمار ضـبطوا فساتينهن الضيقة، متظاهرات بأنهن لم يسـتطعن أن يشـترين فسـاتين جديـدة تناسب المناسبة التـي وعـد بهـا أزواجهـن ذوو الشـوارب منـذ 1987. قلَّـة مـن الأطفـال، علـيهم زينـة مثـل أشـجار الكريسـماس، راحـت تجـري هنـا وهنـاك، وآباؤهم الصِّغار يمسكون بهم خشية أن يصـلوا إلى الطريـق العـام، وفي الوقـت نفسه أخذت فتاتان الصور بأكثر من عشرين كاميرا مختلفة.

كـان عـازف الأكورديـون يعـزف عـلى حسـب طلـب العـم "بلاجويـا" مـن "جنيف"، وبهذه الطرقات العتيقة، عاد الضيوف الأكبر سنًّا إلى أيـامهم الخـوالي الجميلة، عندما خرجت مـن العـمارة مـع "دوشـا" المرتبكـة الخائفـة، ووجـدت نفسي فجأة وسط هذه المجموعة مـن النـاس الغربـاء الـذين لم تكـن لـديَّ أي فرصة من قبل لأقابلهم.

كنت في الخامسة عشرة، كل شيء في هذه الدنيا كان مُزعجًا. ولكن بالنسـبة لي، أن تتزوج أُمِّي أمام كل الناس في تجمُّع عام من العُمَّال الصربيين المهـاجرين لا يختلف كثيرًا عمَّن يجد وسيلة للانتحار الاجتماعي والعذريـة الأبديـة. لـذلك ارتديت أردأ وأقدم جينز عندي كنوع من الاحتجاج، وأسقطته إلى أسفل وسطي بكثير، ووضعت على رأسي كـاب فريـق "شـيكاغو بـولز"، بنيـة متعمـدة تـوحي لهؤلاء المتخلفين أن هناك عالمًا لديه معرفـة كبـيرة ويمتلـك عجائـب كثـيرة مـن الكهرباء، ومياه الصنبور، و"مايكل جوردون".

كانت آخر لمسة في ملابـس الزفـاف الخاصـة بي سـماعات أذن أرتـديها. كانـت يمكنها أن تثير غضب "دوشا" في أي يوم آخر، ولكنها لم تهتم في يوم زفافها هذا؛ لأنها ببساطة لا تهتم بي في هذه المناسبة، ولا بأي شخص آخر، تجاه هذا الأمر. كانـت في ذلك اليوم مجرد مراقب لا يُبالي لموكب السيرك الذي اقتحم في البداية، وهـو يلـوِّح بـأعلام الصرب، قلعـة "ليوبليانـا" للاحتفـالات المدنيـة، ثـم اتجـه نحـو الكنيسـة الأرثوذكس في ظل حماس الزفاف. وفي المشهد الأخير، احتلوا مطعمًا لأحـد المصـانع على طريق المطار. في مكان ما بين المنشآت الصناعية المتدهورة والسكك الحديدية، استقبلتنا مجموعة خنازير صغيرة جاهزة للشواء، ومطربـون تغلـب علـيهم سـمرة

الشمس، وسبعة جرسونات بزي مهترئ، يتثاءبون بشدَّة، يقدمون نوعين من الطعام وثلاثة أنواع من المشروبات.

طوال هذا الوقت، كانت أفكار "دوشا" في مكان آخر، ولكن الضيوف الصربيين فسَّروا شرودها بالفرحة الغامرة؛ لأنها سلوفينية ستتزوج من صربي أصيل. وتم تفسير صمتها بمقولة إن المرأة لا تستطيع أن تتغلب على حظها السعيد، وأن ثلاثة على الأقل من أصحاب قصَّات الشعر المنفوش الفخورون أقسموا بأنهم أيضًا لم يتمالكوا أعصابهم في أهم يوم في حياتهم، ولم يستطيعوا أن يتكلموا لمدة ثلاثة أيَّام بعد زفافهم من الإثارة. لذلك أومأت "دوشا" وابتسمت، بينما حشد صربي من الأعمام وأبناء العم والقذرين الآخرين ذوي الشعر، معظمهم لا ينتمي لنا، يشاهدونها، وزوجاتهم يعطين النصيحة عن الحياة الناجحة بجانب قطعة من اللحم الصربي الجيد.

استطاع "دراجان" حديث العهد بالزواج أن يقترب منها في ذلك اليوم فقط ليضع الدِّبلة في إصبعها ويقسم أنه يقبلها زوجة شرعية، ثم خطفه أقاربه مرَّة ثانية، كي يلقوا عليه النكات البلقانية بأقصى ما يمكنهم وهم يشربون الخمور القوية، وكلها تدور على المغفل الساذج الذي سمح لامرأته أن تقنعه بأن يتزوج. ولكن، عكس "دوشا"، تقبل "دراجان" هذا بصدر رحب، وشارك في الشرب والرقص. ولم يكن – هذا أسوأ ما أدركته "دوشا" - أكثر التزامًا من المشاركين الآخرين في هذه المناسبة.

في ذلك اليوم التعيس، كنت مُستاءً جدًّا، ولكنني شعرت بالشماتة بنظرتها الهلوعة التي تُخبئها ببؤس، وهي ترى زوجها الجديد، بقميصه

الواسع غير المُزرَّر، يدس المارك الألماني في جيب قميص عازف الأكورديون. يصيح وقد حضنه اثنان من أصدقائه قائلين:

- هذه آخر أمممممسية لنا.

أخذ يرسل لها قُبلاته المخمورة من الجانب الآخر من مطعم المصنع. كنت أصغر من ألا أستمتع بسقوطها المفاجئ، على الرغم من أنني مقهور بنوع آخر من الانزعاج. كلما أُفَكِّر في هذه العروس المتجاوزة السن نسبيًّا، وهي تجلس بمفردها على طاولة الزفاف الطويلة، المليئة بعظم الخنزير والأكواب البلاستيك، وهي تبتسم بلطف للمبتهجين وهم يدعونها لرقصة "كولو".

الشيء الوحيد الذي خفف عنِّي هو أن هؤلاء الصرب المرحين كانوا على حق عندما رؤوا فيَّ إنسانًا من كوكب آخر، وأنهم، بعد محاولات عدَّة فاشلة للتواصل معي، انصرفوا عَنِّي. تركوني أجلس في ركن بالسماعات في أذني، وأعطيتهم الفرصة ليتكلموا عن نظرية "لَكَم أفسد الغرب الأطفال"، ويؤكدوا على "أنه من المنطق تمامًا عدم التواصل معهم". للمرَّة الأولى أجد نفسي في دور ممثل عن السلوفيين كما كنت بوضوح في أعيُن الضيوف الصرب. وعلى الرغم من ذلك، فاليوم كان طويلًا وشاقًّا جدًّا، وبعد أن وافقت أخيرًا "دوشا" على انصرافي، انصرفت دون أن أنظر إلى الخلف إلى هؤلاء السكارى الذين أرادوا أن يودعوا "ابن دراجان الجديد" بعد تجمعنا الذي لا يُنسى.

عند خروجي، اعترضتني خطوات سريعة لرجل في بذلة زرقاء رائعة، قضى المساء جالسًا في الركن بهدوء، عند وقوفه بجواري فقط تعرفت إلى وجهه المألوف الذي يظهر في التليفزيون. سألني السيد "ستانيزيتش" إذا كنت أعرف مَن هو. ثم بدأ يتحدث بطريقة غريبة وودودة وحماسية عن كيف ينبغي أن أسمح لأُمِّي بممارسة حياتها، وأنني سوف أفهمها حينما

أكبر، وأن أبي كان سيرضى بذلك، لو أنه لم يزل على قيد الحياة. لم أستمع لـه، ولم آخذ كلمة مما قال مأخذ الجِدَّيَّة؛ لأنني مقتنع بأنـه شـخص آخـر تنـاول كميـة كبيرة من الشراب تلك الليلة.

بعد ذلك بقليل، قمت بإجراء عـلاج ذاتي في البيـت، مـع تشـغيل موسـيقى لفريقي المُفَضَّل "بابليك إنيمي"، ومشاهدة بعـض الأفـلام الرومانسـية الألمانيـة، التي تساعد على ممارسة العادة السرية، قبل أن أغط في النوم على الكنبة أمـام التليفزيون المتوهج. كان ذلك ضـعفًا لا بُـدَّ منـه، يسـتطيع مـن خلالـه "جرانـد ماستر فلاش" والنهود الألمانية الممتلئة أن تمحو صورة وصوت اليوم السـابق، بمـا في ذلك صوت "برانكو ستانيزيتش".



لمدة أربعة أيَّام وخمـس ليـالٍ مـن شـهر عسـل "دوشـا" في الجبـل الأسـود، اكتشفت أنني، في الشقة الهادئة الآمنة والخالية، لست وحيـدًا أكـثر مـما كنـت عليه معها، وأنه لا يوجد شيء أسميه عائلة. فـأبي لم يـزل ميتًـا، وأُمِّـي مُفتقـدَة، ووصلت لنتيجة أنه لا يوجد أحد يسألني، باهتمام حقيقي، كيف حالي، ما الذي يضايقني، وما مشاكلي.

تخـرَّج زمـلائي في المدرسـة الابتدائيـة، بمـن فـيهم "دانيـال"، إلى مـدارس التجارة، والنجارة، والبريد، وبرامج ثانوية مهنية أخـرى، وكأنـه مـا بـين يـوم وليلة. بينما انتهى بي الأمر في مدرسة القواعـد، بـين وجـوه شـابة مـن مـدن صغيرة مختلفة، حيثما يعيش معظم الأطفال السـعداء مـن مختلـف أنحـاء العالم. أطفال لم يسمعوا إطلاقًا بـ"أركـان"، قائـد مليشـيا المتطـوعين الصرب أثنـــاء حـــروب يوغوســـلافيا، أو أيـــن تقـــع مدينـــة "فوكوفـــار" الملتهبـــة.

نظر إليَّ هؤلاء الأطفال نظروا في رهبة؛ لأنني من أسوأ جزء في المدينة، ولأن اسمي "فلادان بوروجيفيتش"، ولأنهم ما كانوا ليفرقوا بيني وبين ضيوف زفاف "دوشا" و"دراجان". ليس هناك شيء مشترك بيني وبين هؤلاء الأطفال الذين قابلوا أصدقاء لا يُحصون حتى قبل الدراسة. بالمقارنة بهم، يبدو أن زملائي السابقون لا ينتمون للجنس البشري. يرتدون الجواكت المحشوة في البناطيل الواسعة، ويسمعون الموسيقى "التكنو"، والشعبية، وكانوا على استعداد ليتشاجروا مع أي شخص لا يؤمن بأن الطفل يجب أن يُعمَّد بموجب القانون.

مارس أطفال من الثانوية العليا التزلُّج في فرنسا، ولعبوا التنس، وزاروا عواصم أوروبا الوسطى، ومارسوا التزلُّج وجرَّبوا البلياردو. هؤلاء كانوا أطيب وأمهر ويستمعون للأساتذة أثناء الدروس، ويخافون من أي اختبار شفوي غير مُعلن، ومن الغياب بلا عذر. هؤلاء الأطفال لا يهتمون مُطلقًا بالصرب، والكُروات، والمسلمين، ومعظمهم لا يعرف الفرق بينهم. لا يسألون أحدًا عن اسم أبيه، ولا يتشاجرون حول مَن بدأ القتال في البوسنة. ليس لديهم أبناء أعمام جُنِّدوا في الحرب، ولا أعمام تُركوا بلا ساقين، أو أجداد وجَدَّات تم نفيهم، ولا خالات قُتلن بالقذائف. أما جَدَّات هؤلاء الأطفال اشترين "سكوتر"، ووعدهم أعمامهم بالعمل في شركاتهم، وأعارهم أبناء الأعمام مذكرات المناهج.

كان اكتساب صديق منهم أصعب من التواصل مع صديق من القدامى. بينما "دوشا" تستمتع بشهر العسل، لا أجد مَن يتَّصل بي أو أقابله بعد الدراسة. كنت معزولًا نوعًا ما عن العالم، محشورًا في شقَّتنا الصغيرة، أُفَكِّر في وحدتي وأشعر بالأسف لحالي لمدة طويلة من الليل.

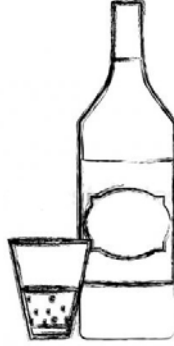
أنتظر بفارغ الصبر منتصف الليـل، عنـدما تبـدأ الـبرامج الإباحيـة، أُلهـي نـفسي بممارسة العادة السرية بغير حماس، وأنغمس في يأس رهيب بعد كل رعشة. قد يكون من المبالغ فيه إذا قلت إنني افتقدت أُمِّي، ولكـن عـلى نحـو مـا شـعرت بالسعادة بوجودها، عندما عادت وأخذت مكانها في فضائنا المشترك.

في تلك الفترة، قرَّرت أن أهرب، على الرغم من أنني غير مُهيَّأ لهذه الخطوة، فلا خطة، ولا أعرف إلى أين، أو كيف. ولكن عند هـذه النقطـة تـراءى أن هـذا هو طريق المستقبل. عمري خمسة عشر عامًا، وأعتقد أنني كبـير بمـا يكفـي أن أهتم بنفسي. وأعتقد أن كل ما أحصل عليه من أُمِّـي هـو ثمـن الغـداء. الفكـرة الوحيدة التي سيطرت عليَّ وأنا أُعد أشيائي نحو المجهـول هـو العمـل للحصـول على قيمة الإيجار. إذًا عليَّ أن أبدأ العمل فورًا.

هذه المشاعر اعترضت تقدمي إلى الأمام، ودفعت قـراري للخـروج والعـيش في عالم البالغين، وبقواعدهم. كان هذا نوعًا من تمرد المراهقين، حيـث لا يوجـد مَن يوقفه. عندما كنت أضرب دمـاغي في الحـائط، لم يفـوِّقني أحـد بصـفعتين، ويوضح لي أن فكرة الاستقلال بنفسي فكرة مجنونة، وقد تجلب الدمار.

في قمَّة حالة الاستياء، لملمت أغـراضي في حقيبـة، كـأنني طالـب سـيذهب في رحلة بالمدرسة. ربما لم تأخذ "دوشا" قراري مأخذ الجِدَّيَّة، وفكَّرت في أنني سـأعود بعدما أهدأ، ثم نتكلم في هدوء بعدها. أشك في أنهـا كانـت سـتجعلني أرحـل لـو اعتقدت لحظة أنني لن أعود. لكن "دوشا" لا تعرف ذلـك، ولا أنـا أعـرف إلى أيـن سأذهب. كل ما أردته هو أن أبعد عنها، أبعد عـن هـذه الخائنـة، أبعـد عـن كـل شيء، ولا أدري إلى أين ستأخذني رحلتي الصبيانية.

20



رتَّبـت لي "دوشـا" لقـاءً مـع "بـران سـتانيزيتش" في شركتـه، في حـي مُحـاط بالأشجار في "ليوبليانـا". اسـتقبلني سـكرتير عـلى خلـق، قـدم لي بعـض القهـوة والعصير، وهو يبتسم لي كل بضـع دقـائق، ويخـبرني معتـذرًا أن اجـتماع المـدير سيستمر أطول من المتوقع. أخذت أتنقَّل بعصبية من مقعـد إلى آخـر في غرفـة ذات رخام رمادي لأكثر مـن سـاعة، قبـل أن يظهـر أخـيرًا السـيد "سـتانيزيتش" ويدعوني، بغطرسة ودون اعتذار، لأتبعـه إلى مكتبـه. كـان يبـدو رسـميًا كـما في التليفزيون، أو ربما يمكن تمييزه بشـكل أقـل. تسـاءلت كـم مـن شـنابز "بلـوم" يكفي لتحويل هذا البيروقراطي العصبي إلى الإنسان الذي في ذاكرتي.

لم يلتفت إليَّ مباشرة. بدلًا مـن ذلـك، ظـل يطَّلـع عـلى بعـض الأوراق التـي تنتظره على المكتب. توقَّفت عنـد بـاب المكتـب، أترقبـه، حتـى أشـار لي بيـده، فجلسـت. ثـم دفـن نفسـه في الأوراق مجـددًا وتصـفَّحها، كـان يعـود دائمًـا إلى

الورقة الأولى، ويقرأ مقاطع منفردة، ويقارن بينها ويفعل ما يفعله رجل بربطة عُنُق في مكتبه مع كومة من الأوراق. أثناء ذلك، تنامى بداخلي شعور بأن هذا الرجل ينحني إلى الوراء كي يريني أن هناك أشياءَ أكثر أهمية بالنسبة له في العالم من زيارتي. ولكن بعد ذلك، تكرَّم عليَّ وترك الأوراق لثانية والتفت إليَّ:

- تكلم معي.

- أبحث عن أبي "نيدلكو بوروجيفيتش".

ثبتُّ أخيراً نظرته المرتابة عليَّ لفترة أطول، أحسستُ بأنها خطوة ناجحة.

- وصلت إليَّ بعض المعلومات أنه قد يكون في سلوفينيا.

- أي معلومات؟

- عمو "دانيلو" أخبرني بأن آخر اتصال من "نيدلكو" كان من سلوفينيا، وواحد من خطاباته ينمُّ عن ذلك.

- أوه، إذًا ما المطلوب منِّي؟

- فكَّرت "دوشا" أنك تستطيع مساعدتي في العثور عليه.

- حسنًا يا "فلادان" اسمع.. دعني أخبرك بصراحة. في سلوفينيا لا نُخبئ الأشخاص المتهمين بجرائم حرب. هذا ببساطة. لا أحد يستطيع أن يقدم له الدعم اللوجيستي والمالي الذي يحتاج إليه شخص متهم من قبل المحكمة الدولية كي يعيش سنوات الاختباء بسهولة. هذا الدعم ينبغي أن يكون من مؤسسة، لو تعرف ما أعني. القول إن "نيدلكو بوروجيفيتش" في سلوفينيا يعني أنه يتلقى العون من قيادات سياسية محلية، أو على الأقل من جهات أمنية محلية. أعتقد أنك أنت شخصيًّا ترى هذا غير منطقي. مثل هذا الدعم المؤسسي في الأنظمة الأوروبية غير ممكن فعليًّا، ما

بالك مع القوة المُشتَّتة، والتشريعات المنظمة بشكل جيد، وسلطات الرقابة الكفؤة، من الناحية العسكرية والأمنية. بجانب ذلك... يا "فلادان"، صدقني أنه ليس من مصلحة أحد، ولا سيما القادة السياسين المُعاصرين، أقصد فعلًا، ليس من مصلحة أحد أن يُخبئ مجرم حرب.

عاد ينظر في الأوراق. بالنسبة له، انتهى لقاؤنا تقريبًا.

- إذا كان هذا كل ما تريده فأخشى أننا انتهينا. كما ترى، لسوء الحظ، لا أستطيع مساعدتك في العثور على "نيدلكو".

- لقد أرسلت إلى "دوشا" هذه الرسائل، أليس كذلك؟

- لا أستطيع مساعدتك، صدقني، لو كان بإمكاني لفعلت. من أجل "دوشا".

- يمكنك على الأقل أن تخبرني بمَن أرسل لك خطابات "نيدلكو" من البوسنة.

- "فلادان"، أتمنَّى ألا تعتقد أنني على اتصال برجل اتهمته محكمة العدل الدولية في "لاهاي" في أي وقت. هذه اتهامات خطيرة. أتعرف ذلك؟

- في خطابه يشير "نيدلكو" إلى رجل يدعى ج، الذي أحضر رسائله إلى سلوفينيا. إنه على اتصال بهنا. أرى أنك الرجل المناسب.

ساد الصمت في المكان، ولكنه صمت يختلف عن الذي كان منذ دقائق. أفاق "بران ستانيزيتش" فجأة من غيبوبة البيروقراطية، والجو المليء بالتوتُّر.

- كيف حال العمل يا "فلادان"؟ أما زلت تعمل في صيانة الماكينات؟

- نعم.

- هل أنت راضٍ عنها؟

- نعم.

- ما زلت أعتقد أنك ينبغي أن تنهي دراستك بأسرع ما يمكن. ولكن... أهم شيء أنك تعمل بشكل جيد، وأنك سعيد. لك صديقة، أليس كذلك؟ "نادية"؟

لقد مرَّ زمن منذ أن سألتني "دوشا" آخر مرَّة عن لقمة عـيشي، وأشـك أنهـا تعرف شيئًا عن رغبتي المتأخرة في الحصول على تعليم جامعي. وأنـا عـلى يقـين بأنني لم أخبرها باسم صديقتي. وهذا يدل على أن السـيد "سـتانيزيتش" يعـرف عنِّي أكثر مما ينبغي، وأنه إذا أراد تخويفي بهذا الأسلوب، فهذا عمل جيد.

نظر كل منا إلى الآخر، وحاولت أن أخفي الخوف المتنامي بداخلي، وأرسلت في المقابل نظرة تهديد واحتقار. ولكن "بران" أعطاني ابتسامة ودودة. لقـد هزمنـي في لعبته، وأصر على أن يريني أنه على وعي بأنه فعل ذلك.

- انظر يا "فلادان"، أعلم أنك تريد العثور على أبيك، وأنه من الصعب قبول حقيقة أنه مطلوب في جرائم حرب. أتفهم كل ذلك. ولكن هذا لـن يُجـدي. إذا سألتني، سأجيبك بما أعتقده. إنك ستجد "نيدلكو" عنـدما يريـدك هـو أن تـراه. ليس قبل ذلك. أفهمت؟

- وما الذي يجب أن أفعله في غضون ذلك في اعتقادك؟ أُحَدِّق في الهواء؟

- لا أعرف يا "فلادان"، فعلًا لا أعرف. حاول أن تعيش حيـاة طبيعيـة. هـذا كل ما أستطيع أن أقوله.

لم أستطع تخيل ما يعنيه ذلك، أن أجـد "نيـدلكو" عنـدما يريـدني هـو أن أراه، وأعرف ما الحيـاة الطبيعيـة. كـل مـا عرفتـه أن "بـران" سـكة مسـدودة، وأننـي عُـدتُ إلى نقطـة الصـفر. لـذلك انتـابني هـذا الشـعور، طـوال قيـادتي للسيارة، بأنني أسير في الاتجاه الخطأ، وكلما اقتربت مـن غـايتي، أشـعر بـأنني أريد العودة مرَّة أخرى. ولكنني أصبحت حائرًا في كيفية مداومة البحـث عـن أبي الهـارب، ولا أريـد أن أديـر ظهـري لكـل مـا ينتظـرني في البيـت، مـن دون خطـة. لـذلك دخلـت الشـقة في ذلـك اليـوم كمهـزوم، يبتعـد عـن مشـهد

المعركة الخاسرة، خاويًا وتعيسًا. الأمر كان أكبر من مجرد إحباط، تقبَّلته "نادية" كما يتقبَّل الناس أي خبر غير سار من شركائهم. عودتي إلى المنزل هذه المرَّة هو استسلام إجباري، لا أتقبَّله. قرأت نظرتها في عينيَّ هزيمة أخرى مؤلمة، وكانت تحمل أيضًا بوحًا، بوحًا بأن في انتظارنا أيَّام عصيبة.



مَن يدري كم عشت فيما يُسَمَّى بالحياة الطبيعية، مُدركًا أن الأيام تجري لأن الأربعاء يأتي بعد الثلاثاء، ثم يأتي الخميس بعد الأربعاء. عدت للعمل في صيانة ماكينات بيع القهوة، تناولت الغداء في منطقة "ستيجن" الصناعية، قضيت الوقت بين حاويات التخزين. اتصلت بـ"نادية" بعد العمل وسألتها إذا كانت تريد شيئًا من المتجر، وذهبت إلى السوبر ماركت عبر الشارع، وابتسمت للبائعات اللاتي يعرفن أنني سأشتري رغيفًا مدوَّرًا وخبزًا أبيضَ وحليبًا خالي الدسم، قائمة المُشتريات التي يعتقدن أنها تخبر بكل شيء عنِّي، وربما فعلت. وبدأت أذهب إلى الكلية مرَّة أخرى، وأستمع إلى المحاضرة بلا هدف كما كان من قبل. كنت أشرب بعض البيرة بين الحين والآخر مع زملائي الجُدُد والقدامى، الذين كانوا يستعدون للامتحانات وتبادل الملاحظات. ولكن الأوقات القصيرة مرَّت سريعًا مع الأيام التي كافحت لأستمر فيها، أنتظر شيئًا ما أو شخصًا ما، ولكن لا شيء يتغير، كل شيء كما هو. الأربعاء كالثلاثاء، والثلاثاء كالإثنين.

انتظرت "نادية" بصبر حتى تبدأ أيامي في الحركة مرَّة أخرى، ويعالج النسيان مخاوفي المتزايدة. لم أرِد أن أذكرها بتلك الأيام، فلم تكن ذات فائدة، انهزمت في معركتها مع الذكريات. كنت أستيقظ فقط لأعرف أن

اليوم يشبه البارحة، وأحس بأن "بيل موري" ربما مات، في ذلك الفيلم الذي انحشر فيه ذات يوم ولم يخرج.

توقَّع "بران ستانيزيتش" أن أعيش شبه حياة طبيعية، وربما تخيَّل أنني أدفن أبي الحي مرَّة أخرى، وهذا ما لم أستطع فعله، على الرغم من أنني تمنَّيت ذلك أحيانًا. لم أستطع إقناع نفسي بأنني لن أراه أبدًا، أن أقتل أملي وأنا واعٍ، الأمر الذي أرفضه وأحتقره، ولكن لا أستطيع إنكاره. تقبَّلت فكرة أن جزءًا مِنِّي يريد أن يرى أبي، فظللتُ أتطلع للقاء في وقت ما، وفي مكان ما. في الوقت المناسب، سمحت لنفسي بهذا الضعف البسيط، وتقبَّلته لأنه مِنِّي، وعللت لنفسي أنه مجرد طفل بداخلي، يتمنَّى أن يمسكه أبوه من يده، ويذهب به ليرى "ماكي" في سوق "باولا".

من اليأس، لجأت إلى الكمبيوتر مرارًا وتكرارًا، وكتبت اسم "نيدلكو بوروجيفيتش" و"توميسلاف زدرافكوفيتش" على "جوجل" مرَّات لا تحصى. فأقرأ الأخبار نفسها عن الاسم. بدأت أبحث بشكل هاجسي عن أي أخبار جديدة. لذلك وضعت الأفعال في البحث: "أعطى نيدلكو"، "رأيت نيدلكو"، "أتحدث مع نيدلكو بوروجيفيتش". كتبت اقتراحًا بعد الآخر ظنًا مِنِّي أن هذا سيفيد. بدأت أتصفح بحثًا عن معلومات عن "بران ستانيزيتش" أيضًا و"أمير موزيروفيتش" وحتى "دانيلو رادوفيتش". كنت أقضي أحيانًا الليل كله أمام الكمبيوتر أبحث في "جوجل". الأسماء نفسها، الاقتراحات نفسها، مرَّة بعد المرَّة: "أعطي الجنرال بوروجيفيتش"، "أرى الجنرال بوروجيفيتش"، "أتحدث مع الجنرال بوروجيفيتش"، الصفحات نفسها بالترتيب نفسه، مرَّات ومرَّات. بحثت عن الضرب في مناطق مختلفة، وفي كل منطقة على حدَّة. من أفغانستان إلى زيمبابوي، لم

أفوِّت أي بلـد. كـان هـذا إدمانًـا، وهوسًـا أخـافني، ولكـن لم أسـتطع أن أتوقَّـف. واصلت في كل محركـات البحـث: "أعطـي الجـنرال بـوروجيفيتش"، "أرى الجـنرال بوروجيفيتش"، "أتحدث مع الجنرال بوروجيفيتش".

استطعت في بعض الأحيان خلال النهار ألا أُفَكِّر فيـه لوقـت طويـل، كانـت هذه البلاهة تبدو جيدة، ولكنني مدرك أن ذلك مجرد خدر عـاطفي، وسـتعود الذاكرة، مع الأفكار والمشاعر. كانت هناك لحظات أفقد فيها الأمـل، وأخـاف ألا أستطيع الخـروج مـن هـذا الفـراغ، وهنـاك لحظـات أتسـاءل كـم مـن الطاقـة استهلكتها، وكم من أيَّام غامضة استيقظت عليها. هناك لحظات فكَّرت فيهـا في كل شيء، بما فيها ما لم أمتلكه. خلال ذلك الوقت، بدأت أشعر أن "نادية" بدأت تخاف مـن أن الصـمت، الـذي انـتشر بيننـا في تلـك الأيـام العاديـة، يبتلعنـا في النهاية. خافـت أن نظـل صـامتين إلى الأبـد وأن كـل شيء لنـا في نهايـة المطـاف سيصبح أبكم.

حاولت أن تتكلم معـي، ولكـن كـان يتضـح أنهـا تحـاول أن تقتـل صـمتي بكلماتها، وغالبًا كانـت تفشـل. أصـبحت محادثاتنـا نـادرة، وتزيـد مـن إحبـاط "نادية" إذ حاولت أن تملأ الفراغ الذي بيننا. كانت تشـغل التليفزيـون، وتشـغل الموسيقى، وتعمل أي شيء يحدث صوتًا، بداية من وضعها للملابس في الدولاب انتهاءً بغسل الأطباق، كانت تفتح النوافـذ عـلى آخرهـا في عـز الشـتاء، لتجلـب أصوات المدينة الباردة إلى داخل الشقة. ولكن حتى الضوضاء التي تصـم الآذان بسبب مرور "ليوبليانـا" الـذي يعـجُّ بالحركـة لم يقـدر أن يسـكت كلـماتي غـير المنطوقة.

شـعرت نحوهـا بالأسـف، بـل وبالضـيق، حيـث تصر عـلى محاولاتهـا اليائسـة. وكـم شـعرت بالأسـف لمـا رأيتهـا تخفـي قلقهـا عَنِّـي. أحسسـتُ أنهـا

استسلمت ولحقت بي في شرود الذهن أكثر من أي وقت مضى. كنت مؤمنًا بأنها فقدت إحساسها بالزمن أيضًا، وأن أيامها صارت واحدة. غير أن "نادية" لا تستحق هذا، فلم يكن هذا قدرها، بل قدري أنا. ليس من حقي أن أشاركها فيه، حتى إنني فكَّرت أنه ينبغي أن أستجمع قوتي وأبعدها عَنِّي. ولكنني أناني جدًّا، وفي الوقت نفسه أنا في هذه الأنانية أضعف من أن أبعد صديقي المقاتل الوحيد بعيدًا عَنِّي. بدلًا من ذلك، استنزفني الخوف من رحيلها، وأخذ الخوف ينمو كل يوم، حتى أصبح بارانويا خاصة بي. وسرعان ما أصبحتُ لا أجرؤ على فتح باب شقَّتنا عندما أعود إلى البيت، مرعوبًا من أن العزلة الموحشة التي أعرفها جيِّدًا تعود مرَّة أخرى.



21



بدا الأمر يزداد صعوبة بمرور السنين على رئيس الشرطة السابق "دوشان بودلجار". صار من الصعب عليه أن يخفي تلك الومضات الخفيفة من أمارات فرحه عند زياراتي النادرة له. وأحيانًا، كان يبدو جدًّا بالفعل. ولكنه بدأ، لإصابته بالسُّكَّري والقلب، يُعاني سرطان المعدة، وبعدما تركت البيت مُحتجًّا، لم أجد إلا إياه ملازمًا للفراش يرحب بي. و"ماريا" أيضًا، مع وجود زوج يحتضر، ليس لديها أدنى رغبة في توفير مأوى لمراهق هارب.

لا تحب السيدة "بودلجار" الزيارات غير المعلنة، فعندما فتحت الباب لي، أوشكت أن تغلقه بأقصى سرعة، معتقدة أنني ساعي بريد أو بائع من

الباب إلى الباب. لم تستطع نظرتها المندهشة أن تخفي حقيقة أنها تفضل رؤية غريب، أو حتى عرافة غجرية على رؤية حفيدها وفي يديه حقيبتان وعلى ظهره ثالثة. يبدو أنني أنا و"دوشا" فقط نذكر "ماريا" بذنوبها، ومَن يدري ربما كانت ستصدني بعيدًا، لو أن نظرتها المندهشة لم تستغرق وقتًا طويلًا لدرجة أنها أثارت فضول المتطفل العجوز. قطع الصمت المُربك بيننا وصاح من على سريره:

- مَن هذا يا "ماريا"؟ مَن هذا؟

لذلك لم تجد "ماريا" خيارًا غير أنها تسمح لي بالدخول، وهي تصيح على الأقل ثلاث مرَّات حتى السقف بأن "فلادان" هنا. قبل أن تختفي في مكان ما في المنزل، أخبرتني بقواعد المنزل بسرعة:

- "دوشان" في الدور العلوي. اذهب سلِّم عليه، إنما لا تضايقه طويلًا، لأنه ضعيف.

صعدت إلى الأعلى ووجدت جَدِّي بالكاد يمكن التعرف إليه. في خلال الأشهر الثلاثة منذ أن رأيته آخر مرَّة، وهن كالوردة الذابلة. سحب المرض منه الحدَّة والسُّخرية والغضب، وكذلك الحياة. والآن يرقد أمامي على فراش الموت تقريبًا كالرجل العجوز الحلو الحنون. نظرت إليَّ عيناه بامتنان صادق، وامتدت يده بصعوبة لتلمسني، همس:

- "فلادان"...

بدا سعيدًا لأنني جالس بجواره، ليس لديه قوة ليتكلم كثيرًا، ولكن عندما حاولت أن أنهض، اعتصر يدي بقدر ما هزَّ رأسه. لذلك جلست بجواره لمدة ساعتين تقريبًا، قبل أن يغلبه النُّعاس وأستطيع الذهاب إلى الحمَّام، مستمعًا لنصيحة "ماريا" بأن "دوشان" يجب أن يستريح كثيرًا،

وقد فسرت ذلـك لاحقًـا بأنهـا غـيرة مـن فرحتـه بوجـودي. بمجـرد أن اسـتيقظ "دوشان"، دعاني إليه، فجلست على طرف السرير حتـى المسـاء. وفي لحظـة مـا، بدأت أخبره عن زواج "دوشا"، وعن "دراجان"، وعن حملهـا وأننـي لا أرغـب في العودة إلى "ليوبليانا". أخبرته بكل شيء، وهو يستمع، ناظرًا إليَّ بعطـف، وأخـيرًا أمسك بيدي وهمس:

- ابقَ هنا، ابقَ هنا.

وما إن قال ذلك حتى دخلت "ماريا" الغرفة وأحضرت له الطعام والأدويـة، فاضطررت أن أتنحَّى جانبًا. لذا لم أرها وهي تغير له الحفَّاضة، وتمسح مؤخرته. ولكن استطعت أن أسمع من خلف البـاب المغلـق كيـف لخـص لهـا "دوشـان" قصَّتي كلها في جُمل قليلة. من أجلها، قام بتعديل أي حقيقة ليست في صالحي، وأخبرها بأنني سأعيش معهما، ثم أمرها بأن تعد السرير الذي في غرفة "دوشـا" لي. عندما نام "دوشان" بعد ذلـك مبـاشرة، أخبرتنـي "ماريـا" بشـكل رسـمي أن سريري جاهز، وأنهـا أعلمـت "دوشـا" بـأنني هنـاك. وأضـافت بأنـه ينبغـي أن أذهب إلى المتجر غدًا كي أشتري مـا أوَدُّ مـن طعـام، فهـي لا تعـرف مـاذا يأكـل الشباب.



وهكذا قضيت الأيام القليلة الأخيرة من حياة "دوشان بودلجار"، جالسًا بجواره، ممسكًا بيده، ومستمتعًا بقليل من الحب من نظراته المتعبـة. كـان يضعف أمام عينيَّ ويجد صعوبة أكثر في الحديث يوميًّا، إلى أنـه لم يسـتطع أن ينطـق بكلمــة، وصرنــا نتواصــل بــاللمس فقــط. في مقابــل أن أظــل بجانبــه، أخبرتــه بكــل شيء عــن "بــاولا"، وعــن أصــدقائي هنــاك، وعــن

شاطئ "جولدن روكس" والصخور المرتفعة التي كُنَّا نقفز من عليها في البحر، وعن الساحة والألعاب النارية هناك، ومدرستي الابتدائية وزميلتي "ميرانا" وأنها أول حب (والذي تسبب في أن أكسر نظَّارتها)، وعن "ماكي"، و"هيمان" اللعب البلاستيكية، وحوض السفن، والسفن الضخمة التي كانت تدشن هناك، وعن ثكنات "نيدلكو"، وعن القس المجنون الذي جرى وراءنا بعيدًا عن ملعب الكنيسة الذي اعتدنا أن نلعب فيه كُرة القدم، وعن جارتنا "إنيسا" التي اعتادت أن تدعوني بطفلها الصغير. حتى إنني صدقت، لمدة طويلة، بأنها ولدتني بدلًا من أُمِّي. أخبرته عن "أمير موزيروفيتش" الملقب بـ"لوزا"، وعن "دوشا"، و"نيدلكو"، ورحلاتنا على الساحل وأفضل بيتزا في المدينة. كل يوم كنت أحكي له عن أحداث من طفولتي، ولكن لم أمتلك الشجاعة لأحكي له عن أوقات أخرى أقل سعادة. فلذلك كانت قصصي تنتهي دائمًا قبل "الانتقال" وعربة "شيكليكم".

ذات يوم، توقَّف "دوشان" عن الإيماء وهو يستمع. وفي اليوم الثاني، توقَّف عن الابتسام، في الثالث لم يعد قادرًا على الإمساك بيدي، وفي اليوم الرابع مات، دون أن يرفع عينيه عني ولا حتى عندما كانت "ماريا" في الغرفة. كنت على يقين من أنها كانت أكثر تألُّمًا لارتباط "دوشان" الأخير بي قبل موته.



بعد موت "دوشان"، تحدثت "دوشا" مرَّات عدَّة مع "ماريا" عبر التليفون، ولكنها لم تحضر إلى البيت ولا الجنازة. بررت "ماريا" غيابها

للناس بكلمات سخيفة، عن كيف أن ابنتها لا تحتمل المقابر، وأنها تتعب أثناء الجنازات. يذكرني هذا بالقصص الطويلة التي حكاها "دوشان" للناس عن سفر "دوشا" للدراسة في "ليوبليانا". عندما أسمع السيدة "ماريا" تحكي قصَّتها مرارًا وتكرارًا، أتساءل متى وجد الناس الحاجة إلى بثِّ صورة الأسرة المثالية، وهل الأسر الفعلية العملية موجودة، أم هو تظاهر فقط، كما تتظاهر "دوشا" و"ماريا"؟

بالإضافة لنا، حضر الجنازة عدد قليل من الجيران، الذين جاؤوا من منطلق واجب القرية، وقليل من أصدقاء "دوشان"، الذين كانوا يعدون الناجين الباقين، وابنة ابن عمٍّ "ماريا"، "ليديا"، إلى جانب عُمَّال المقبرة. كانت جنازة متواضعة، دون تأبين، ولا تراتيل، ولا أي شكليات أخرى. بعد وضع الجرَّة في المحراب، رشمت "ماريا" الصليب، وأوقدت سيدة شمعة، ووقفنا بجوار المقبرة قليلًا في صمت حزين، ثم انصرفنا كل في طريق. تساقطت حبات الثلج الخفيفة طوال اليوم، وهبَّت الرياح الباردة. كان الجو كئيبًا، كما يليق بجنازة.

أعادتنا "ليديا" أنا و"ماريا" إلى المنزل، حيث تناولنا الفول المسخن وشوربة الشعير، ثم ذهب كل منَّا إلى غرفته. رنَّ التليفون بعد الظهر، ووصفت "ماريا" الجنازة لـ"دوشا" باختصار. جاءتني في المساء لتراني وتخبرني بأنه من المناسب أن أعود إلى أُمِّي لأنها تفتقدني. طلبت منها أن أبقى معها يومين، ووعدتها بأنني سأعود إلى البيت مرَّات عديدة، حتى وافقت "ماريا" على مضض.



بعد يومين من جنازة "دوشان بودلجار"، غادرت منزل جَدِّي بعد وداع سريع، كأنني ذاهب إلى المتجر، لامرأة لم تستطع أن تكون جَدَّة لحفيدها. لكنني لم أعد إلى شقَّتنا. بدلًا من ذلك، ذهبت إلى غرفة صغيرة في دور أرضي في أطراف "ليوبليانا"، ربما تشبه التي آوت "دوشا" من سنوات عدَّة مضت. سحبت كل المال الموجود في دفتر التوفير، وبعض الدولارات التي وضعتها "ماريا" في يدي عندما رحلت. دفعت إيجار أول شهر. أوضحت لصاحب العقار الذي أراني السكن دون إسهاب، أنني طالب من خارج المدينة، أدرس القانون الروماني، ولا أريد أن أكون في سكن الطلبة؛ لأنه يخلو من الهدوء. وأكدت له أنني لن أسبب له أي مشاكل، ولكنه رمى مفتاح الغرفة في يدي وقال إنه لا يهتم بما أقرؤه هنا، ولكنه سيرسلني إلى المكان المهجور الذي جئت منه ثاني يوم تأخير للإيجار.

وهكذا في الخامسة عشرة، وجدت نفسي أرقد في غرفة طلبة باردة، شاعرًا بأن الحياة حرقت جُثَّتي، وبعثرتني في الريح، ونثرتني في الكون. لم أستطع أن أرى لي عُشًّا في أي مكان، ولا أرضًا أستقر عليها، أنقبها، وأخترق أعماقها ببُطءٍ. كنت وحيدًا في قارَّتي الصغيرة، التي انفصلت بلا رجعة من الكبيرة، ولم أعرف كيف ولماذا صرت هناك. لقد فصلتني مسافات لا يمكن اجتيازها عن باقي العالم. لهم أسماؤهم، وبيوتهم، وعائلاتهم، ومساكنهم الروحية، التي عرفتهم وحددتهم. كانوا من مكان ما، كانوا شخصًا ما، كلهم ينتمون إلى شيء ما أو شخص ما. لقد عرفوا كل شيء يريدون أن يعرفوه عن أنفسهم. أما أنا فما عُدتُ أعرف أي شيء عن نفسي.

لم أشرك أحدًا في قصَّتي، وهذا جعلها أكثر شؤمًا من الصفعات واللعنات التي جلبتها عليَّ. القسوة في موقفي جعلتني أقبل حقيقة أن أبي مات، ولا أمل في رجوعه المعجزة. ربما كان قبولًا غير منطقي، ولكنه يتماشى مع إدراكي الوحيد لنفسي التي نبذتها. كانت هويَّتي هي الضحية، ضحية كل شيء وكل شخص. كنت أنا ضحية لسلسلة ظالمة من الأحداث، سحبتني بقوة من ملعب الأطفال، في عزِّ مباراة بريئة مع الأطفال، إلى مكان معزول وبارد ومظلم، انفصل عن العالم للأبد.



في اليوم التالي، عُدتُ أخيرًا إلى المدرسة، كنت غائبًا رسميًّا، وكانت "دوشا" و"دراجان" قد بحثا عنِّي في كل مكان في "ليوبليانا". إلى أن وجداني على مكتبي في المدرسة. اقتحمت "دوشا" المسكينة الفصل من الفرحة بوجودي على قيد الحياة وبخير، وأخذت تحضنني وتُقبِّلني بشكل هستيري، حتى إن زملائي، لسنوات عديدة تالية، صدقوا أن أُمِّي كانت ستجن. في تلك الأثناء، وقف "دراجان" لدى الباب، يرميني بنظراته شذرًا، ويخبرني بأن صداقتنا انتهت بلا رجعة، وأنه لن يسامحني أبدًا لترويع زوجته الحامل لدرجة مميتة، وأنه لن يحاول أن يتفهم ما الذي دفعني لحماقة المراهقين تلك.

جلسنا في المساء أمام التليفزيون، في شقَّتنا الصغيرة، التي نصف أثاثها من والدي "دراجان". استمع ثلاثتنا إلى الأخبار؛ "رؤساء البلقان"، كما أشار "دراجان"، سيجتمعون في المدينة الأمريكية "دايتون" لإنهاء الحرب في البوسنة. لم يكن أي منَّا في حالة مزاجية تجعله يشعر بالسرور لسماع

تلك الأنباء، مع أنها موضع ترحيب؛ لأنها ستصرفنا عن الحديث في مواضيع في غاية الأهمية بالنسبة لنا. حاولت "دوشا" أن تبدأ الحديث أكثر من مرَّة، ويسرع "دراجان" - كأنه قد قرَّر ذلك من فترة - بإخفاض صوت التليفزيون، ولكن يقاطعها تعليق مثير أو مراسل يعلن عن خبر تاريخي.

أثناء جلوسي مع "شيرتيش"، تملَّكني شعور غير مسبوق بأن حياتي أوشكت أن تنتهي، مثل الحرب في البوسنة. كل شيء كان مقلوبًا رأسًا على عقب. فليس لي أب، ولا أُمٌّ، ولا جَدَّة، ولا أصدقاء، على الرغم من أن لديَّ كل ذلك نظريًّا، نظريًّا فقط. في الواقع، لم يكن لي أحد. لذا جلست مُحَدِّقًا في التليفزيون، متمنيًا ألا تنتهي الأخبار أبدًا. عند نقطة معينة، انفجرت، انطلاقًا من اليأس والإحباط، بأنني أريد أن أعيش بمفردي، وأنني أرى أن هذا أفضل حل لنا جميعًا.

ربما كانت تتوقَّع "دوشا" هذا الاقتراح وأعدت له نفسها مقدمًا، لأنها بلا أي جدل وافقت أن تدفع هي و"دراجان" الإيجار. كانت الشروط أن أعيش بتواضع، وأجتهد في المدرسة وما إلى ذلك. على أي حال، أصرَّ "دراجان" على أنه إذا أردت العيش وحدي، فلا بُدَّ أن أعمل، لم أجرؤ على الرفض، ربما لاعتقادي أن "دراجان" ليس جادًّا في ذلك.

في اليوم التاريخي، عندما أنهى كل من "سلوبودان ميلوشيفيتش" و"فرانيو توتمان" و"علي عزت بيجوفيتش" الحرب في البلقان بلا مبالاة، ووقَّعوا ثلاث مذكرات من أجل معجبيهم الأمريكان، وقَّعنا نحن الثلاثة اتفاقيتنا للسلام، ودفنَّا الأحقاد. وجدنا أنفسنا نجلس في الظلام لا نعرف ماذا نفعل، لذلك عندما شغل "دراجان" التليفزيون، واتجه انتباهنا لمدينة "دايتون"، شعرنا بارتياح.



عُدتُ في اليوم التالي إلى غرفتي، وبعد أيَّام عديدة، وجد "دراجـان" لي عمـلًا مؤقتًا؛ مراقب مرور. أخذت أحصي الناس السـعداء الـذين كـانوا يتحوَّلـون مـن طريق إلى آخر في سياراتهم، بينما أنا مربوط في مكان واحد. وجـد لي "دراجـان" بعض الأعمال الأخرى، ثم بدأت أبحث بنفسي، مما أدَّى إلى تجميد علاقتنا.

على النقيض منه، لم تجد "دوشا" لي، طوال كل هذه المدة، عملًا واحدًا، ولو ليوم، وعلى يقين أنها لم تحاول. فهمت ذلـك عـلى أنـه نـوع مـن هـدايا الـوداع الغريبة منها، وهذا ما تلقيته منها كرعاية وعاطفة أمومة منذ اتفاقية "دايتون".

وحتى هذا ربما كان آخر خطوة في المشوار.



22



لم أعُد إلى مقـبرة "دوشـان بودلجـار" منـذ الجنـازة مُطلَقًـا. أولًا كي أتجنَّـب مقابلة "ماريا" هناك. ثم بعد ذلك أعتقد أنني لم أذهـب لأننـي لا أعـرف مـاذا عساي أن أفعل هناك. لم يدفن أحد من أهلنا في "باولا"، وبالتـالي لم نـذهب إلى المدافن هناك إطلاقًا، على الرغم من أنه من المُعتاد الذهاب باستمرار. ما أعرفه أن الناس يضيئون الشموع ويضعون الزهور عند مقابر أعزائهم، ولكن لا أعتقـد أن "دوشـان" رجـل شـموع أو زهـور. وعـلى أي حـال، كـان عضـوًا في الحـزب الشيوعي لسنوات عديدة. لو أننـي فكَّـرت في الأمـر، ربمـا لم أذهـب إلى مقـبرة "دوشان" لأنني لم أعرفه جيدًا، وأشعر بالذنب لأنني تجاهلـت طلباتـه المتكـررة لزيارته كثيرًا. كنت أشعر دائمًا أنه يدعوني لزيارته لأنه يعتقد أنه يجب أن يفعل كذلك. ولكن في تلك الأيام قبل رحيله، أحسستُ فعلًا أنه يريد صُحبتي. لـذلك شعرت بالذنب. وأحسست بالذنب أيضًا، لأنه حتـى وفاتـه، رأيـت فيـه الرجـل

بنظرته الصارمة المهيبة، التي ارتسمها فيَّ وفي "دوشا" عندما طرقنا بابه في المرَّة الأولى. كنت أعلم أنني سأقف أمام مقبرته، دون أن أدري لماذا جئت. ولكن أعرف أيضًا أنني لم أستطع البقاء في البيت أُعذِّب "نادية" بصمتي. لذلك ركبت سيارتي وانطلقت. سألتني "نادية" إلى أين ذاهب، ولكنني تجاهلتها، بالضبط كما تجاهلت كثيرًا من أسئلتها في الآونة الأخيرة، حتى أصبحت تقل شيئًا فشيئًا. واصلت السير حتى وصلت المقابر، لأنني شعرت بأنني لا أستطيع السير بجانبها.

لم يكن هناك شموع بجوار المقبرة، ولكن كانت هناك زهور يانعة، وهذا يدل على أن "ماريا" تزوره باستمرار. لم أرها منذ مدة طويلة. حقيقة لم أزرها منذ وفاة "دوشان" غير مرَّة واحدة، عندما زُرتها في المستشفى منذ سنوات عديدة. كانت هناك تتابع عملية في الحلق، وفي انتظار العلاج الكيميائي. أتذكَّر أنني لم أشعر بالأسف لهذه المرأة الساكنة التي لا تتكلم، ولاحظت عينيها تحوم في غرفة المستشفى، وأحسست أنني لن أشعر بالأسف لها حتى لو ماتت. لم أستطع أن أسامحها عندما طلبت مِنِّي، في ذلك الوقت، أن أذهب إلى أُمِّي، أعلم أنها لم تفعل ذلك تعاطفًا مع "دوشا"، ولكنها لم تـرِدني أن أعيش معها. أتذكَّر ذلك في الغرفة الخانقة في المركز الطبي. فكَّرت في عدم جدوى زيارتي لها، إنها لم تردني أن أكون حفيدًا لها، ولم أشأ أن تكون جدتي، فلا معنى لهذه اللعبة التي نلعبها. لذلك نهضت وخرجت دون أن أتكلم.

بعد فترة، اتصلت بي مرَّة لتهنئني بعيد ميلادي. زعمت أن "دوشا" ذكرتها. ثم شَكَت بأنها ليست على ما يُرام، وتكلمت عن صحَّتها، عن التجلُّط والشرايين. أتذكَّر أنها كانت كالسيدة العجوز الوحيدة التي تتمنَّى أي شخص

يُواسيها بالكلمة، لكنها لم تجد فيَّ هذا الشخص، وبعد ذلك لم تتَّصـل بي مجـددًا. وبالتالي توقَّفت "دوشا" عن سؤالي عنها. كنت أعلم أنها ستخبرني لـو أن "ماريـا" ماتت، وبالتالي تيقَّنت من أنها ما زالت على قيد الحياة.

شعرتُ بالغباء لأنني وقفت أمـام المقـبرة طاويًـا ذراعـيَّ، كـأنني في جنـازة. تصورت أن الزُّوَّار العاديين قد يفكرون في موتاهم فقط، يتواصلون معهم قلـيلًا ثم يعودون إلى ذكرياتهم. ولكن أفكاري شردت نحو "ماريا"، بدلًا من "دوشان". فكَّرت في كم يكون عُمرها الآن، وخطر في بالي أنها قد تكون في دار مُسنِّين. مـن السهل أن أتذكَّر وجهها، مُترهِّل من المرارة الشديدة، تشكو في صـمت مـن كـل شيء. رأيت كيف أن عمال العناية اللطاف حاولوا أن يلاطفوها، لكن بلا جدوى، وكيف فشلت محاولاتهم في أن يجعلوها تندمج مع النُّزَلاء الآخرين. ثـم فكَّـرت بعد ذلك في البيت الخالي، وفجأة تساءلت إذا كان فعلًا خاليًا.



عند مغادرتي المقبرة، كنت عازمًا على أنني سأمُرُّ مرورًا عابرًا، مجرد أن أُلقي نظرة من بعيد وأستمر عائدًا إلى "ليوبليانا". لم أرد أن تقلق عليَّ "نادية". ولكـن من الشارع لم أتمكن من معرفـة مـا يجـري في سـكن "بودلجـار"، وبعـد المنـزل بأمتار عديدة، توقَّفت سيارتي من نفسها. فنزلت منهـا ورجعـت مشـيًا، متأكـدًا من أن البيت كان خاليًا. لذلك لم أدقَّ الجرس أو أطرق الباب، وقـرَّرت أن أنظـر من خلال النافذة، عـلى الـرغم مـن أننـي بالكـاد أرى أي شيء مـن خلالـه. ثـم أفزعني صوت فتح الباب.

ما زالت "ماريا" تبدو كما هي، رغم أنها صارت امرأة ضـئيلة في الحجـم الآن. أجهدت عينيها لتتعرف إلى الزائر، لم تحدث نفسها عن ارتداء نظارة، لا سيما الآن، إذ إنها تلمس ما يحيط بها كي تحدد مكانها، يبدو أن بصرها يخونهـا. لـذلك، فقـد أكون بالنسبة لها مجرد ظل، أو أكون أي شخص.

- إنه أنا، "فلادان".

- مَن؟

- "فلادان"، حفيدكِ.

تهادت "ماريا" نحوي بخُطى غـير آمنـة، وهـي تتسـند إلى الحـائط. عنـدما اقتربت مِنِّي مدت يدها تتحسسني. شدَّتني من معصمي وجـذبتني إليهـا. ثـم مشينا معًا نحـو البـاب الأمـامي. عنـدما خطونـا عـلى عتبـة البـاب، اتَّكـأت إليَّ لأساعدها. أسندت يديها إليَّ وجعلتني أساعدها حتـى الصـالة، ثـم إلى المطـبخ، وأجلستها على كرسي. وتركتني:

- يمكنك تناول بعض العصير من الثلاجة.

- شكرًا.

كانت تنبعث رائحة كريهة من أرجاء المنزل، وكـل شيء عليـه طبقـة مرئيـة من القذارة. مـررت إصـبعي عـلى رفِّ نافـذة المطـبخ بسرور لا يمكـن تفسـيره، ونظرت إلى الغبار الأسود الذي تجمَّع على طرف إصبعي. وقلت في نـفسي هـذا عقاب عادل لامرأة كانت مهووسة بالنظافة والنظام طول حياتها، نحلة إذا وقع في يدها شيء غير منظم، ولكن، في النهاية، كان غير مُجدٍ أن تعترف بعجزهـا، أو كانت بخيلة جدًّا لدرجة أنها لا تدفع تكاليف نظافة المنزل.

- أخبرت "دوشا" بكل شيء أعرفه.

- ماذا؟

- عن خطابات "نيدلكو".

من حُسن الحظِّ أن "ماريا" لم تلحظ وجهي المُرتبك؛ لأنني كنت أحاول جاهدًا أن أُصدِّق ما سمعته للتَّوِّ. بعد لقائنا، حاولت "دوشا" أن تعرف مزيدًا عن خطابات "نيدلكو" التي لم أستطع أن أعرف مصدرها، كانت تتحدَّث عن "دوشا" ثانية لم أعرفها لمدة طويلة. لو أنها مهتمة بالخطابات، لفعلت ذلك من فترة. لذلك لا أتخيَّل لماذا تسأل "ماريا" عنها الآن.

حقيقة أن "دوشا" سألت يعني أن "ماريا" كانت تتوقَّعني، وهذا وضعني في وضع حرج. كنت ناكر الجميل الذي يزور بعد سنوات عديدة، ويريد أن يشتري بعضًا من ذكرياتها بثمن رخيص، بينما هي لم تزل تمتلكها. أصبحت زيارتي المفاجئة تبدو هكذا، ولم تعد زيارة حقيقية. وبالتالي أصبحت محاولاتي لإقناع السيدة "ماريا" بغير ذلك لا جدوى منها. دون تضييع وقت، وبطريقة مباشرة، جعلتني أعرف أنها تقبَّلت هذه اللعبة الشرسة. وكانت مُستعدَّة للاستجواب.

- أخبرتها عن سائق العربة.

- أي سائق؟

- الشاب البوسني الذي أحضر خطاب "نيدلكو"، بعدما رحلت. لقد أخبره "دوشان" أنك لم تعد تعيش هنا، ولكن كان من الممكن أن يعطيه عنوانك الجديد. ربما لم يكن يحفظه، ولم يشأ أن يسألني. وطلب منه "دوشان" ألا يحضر أي خطابات من "نيدلكو" بعد ذلك. الشاب كان لطيفًا، أحببت أن أدعوه للدخول وتناول بعض القهوة، ولكن "دوشان" كان غضبانَ منه، لأنه غضبان من "نيدلكو"، لذلك لم أقل شيئًا. كنت

سأعطيه عنوانك، ولكنني لم أفعل؛ لأنني أعرف أن "دوشان" يعلم لماذا لا يريد أن يعطيه العنوان.

قد تكون القصة الفعلية مختلفة، ومن الممكن أن أتخيَّل بسهولة "دوشان" يترك الشاب واقفًا لدى الباب ولا يسأله من أجل "ماريا"؛ لأنه من البوسنة. ومن ناحية أخرى ربما كان مُتعجِّلًا، لذلك لم يقف الشاب طويلًا أمام الباب، حيث يراه كل الجيران. كان من الممكن أن يبحث عن مذكرته السوداء التي دوَّن فيها عنواننا الجديد، مثل الدليل المهم في تحقيقات الشرطة. وتخيَّلت كيف كانت "ماريا" تتبعه كالظل، ولم تخبره أين المذكرة، وربما همست له أنه لا يصح أن يعطي معلومات شخصية لمثل هؤلاء الناس، وأن عنوان ابنتهم من الأشياء الشخصية.

استطعت أن أرى بنفسي مرَّات عديدة على مدى السنين الماضية أن الناس يتم وصفهم بـ"أولئك"، بصرف النظر عمَّن هم فعلًا، ومن أين، وماذا يفعلون. لا تريد "ماريا" أن تتعامل مع سائق العربة إلا بما تقتضيه الضرورة القصوى. بالطبع لم ترغب في الاعتراف بذلك للناس، لأنها تعلم أن هذا غير لائق، وهكذا استمرَّت في أن تظهر نفسها بصورة جيدة، دون أن تعرف أنها لا تستطيع إخفاء كراهيتها لـ"أولئك"؛ لأن "أولئك" يميلون إلى أن يكونوا أكثر فطنة وتبصرًا عمَّا تتصوَّر هي.

- هل تتذكَّرين اسم السائق؟

- الشاب البوسني؟

أحست "ماريا" أنها في حاجة إلى أن تحُطَّ من قدر هذا الشخص، حتى بعد ستة عشر عامًا، من سائق عربة إلى شاب بوسني، وهكذا تؤكد ازدراءها له، ولـ"دوشا" أيضًا، وأنا بالطبع، على الأقل لاهتمامنا بمثل هذا

الشخص. كراهيتي لهذه المرأة خنقتني مرَّة أخرى، ولكنني هدَّأت نـفسي بحـكِّ حذائي في الأرضية المُتربة، وإعجابي بالأثر الذي تركته، متـذكرًا أن الحيـاة أخبرتهـا بما يمكن أن يقوله لساني السليط، لكونها نباتية، ولكونها وحـدها في منـزل خـالٍ لأكثر من عشر سنوات.

- نعم.

- لا أدري، كانت عربة لشخص يُدعى "لازيتش"، وتحمل لوحة معدنية مـن هذه المنطقة.

- ولكنكِ لا تعرفين اسم السائق.

- لم أتحدث معه.

- هل أنتِ متأكدة أن اسمه "لازيتش"؟

- أخبرت "دوشا" فعلًا بذلك.

أردت أن أقول شيئًا، ولكنني غيَّرت رأيي. فهي جَدَّتي الوحيدة، وهذا وداعنا، والأمر لا يحتمل أن أندم على شيء يتعلَّق بها.



بالنسبة لي، يبدو سائقو الشاحنات مخلوقات مُخيفة يشقون طريقهم نحـو البلدان التي يتجنَّبها الآخرون. كان "سمير"، أبـو "دانيـال"، سـائق شـاحنة، عـلى الأقل لحين أن تخرج في فترة اقتصاد الظل. واعتاد "دانيال" أن يحكي لي باستمرار عن مغامراته في الفنادق الصغيرة في "بـلاروس"، ومحطـات البنـزين في بلغاريـا، وعن ضباط الجمارك في "مولدافيا"، والمسافرات على الطريق في بولندا.

ولكن بغض النظر عن ظُرف القصص، فإنني كنت أخاف قليلًا من "سمير"؛ لأنه يلتزم الصمت حينما أكون موجودًا. عندما كنت طفلًا، لم أعرف كثيرًا من الناس الصامتين؛ فكل واحد عرفته في "باولا" كان متحدثًا جيدًا. بعد كأس من الشنابز يتكلَّم كثيرًا، حتى "أمير موزيروفيتش" كان يبدأ في الكلام.

مَن يدري أنني عندما أدركت للمرَّة الأولى أنني أكبر وأصير كئيبًا ووحيدًا وصامتًا، أخذت أقود في غابات روسيا لأيام وأسابيعَ وسنين عدَّة دون أي رغبة في الحديث مع أي شخص. تصورت نفسي أحيانًا أسير بالسيارة في طريق مستقيم لا نهاية له، مُستغرقًا في التفكير، مُحَدِّقًا في المسافات البعيدة التي تزداد ظلمة ووضوحًا، ولكن تظل بعيدة وموحشة. وأفكر في كل مرَّة كيف كان أبي يكره هؤلاء الناس الذين يخرجون الكلمات من أفواههم بالقوة، وكيف لا يوافقني على أنني أصبحت واحدًا منهم.

من حُسن الحظِّ أن "نادية" اعتادت تدريجيًّا على صمتي، فلم تسألني في ذلك المساء عن مقبرة "دوشان"، ولا "ماريا"، ولا سائق الشاحنة "لازيتش" الذي أحضر خطابًا من "نيدلكو" منذ سنوات. تركتني أحتفظ بكل هذا، واستمرت حياتنا العادية. ذهبت للنوم وحدها هذه الليلة، دون أن تقول لي تصبح على خير، وانتظرتها حتى تنام. كل ما فعلته أنني رقدت بجوارها، أُفَكِّر في مسؤول الشحن "جوفان لازيتش"، صاحب شركة "لازيتش المحدودة للخدمات اللوجيستية"، وكيف عثرت أخيرًا على اسم شخص يبدأ بحرف "ج." في خطاب "نيدلكو" في الصباح التالي. أعلم أنه يجب أن أُفَكِّر في "نادية" وفينا أيضًا، لكنني أرحت نفسي بأنه يكفيني شعوري بالذنب لأنني لا أُفَكِّر في هذا.



بدأت بحثي في جراج في مقلب نفايات الألواح المعدنية فائقة التسخين عن أي شاحنة مكتوب عليها اسم "لازيتش"، ولكن بلا جدوى. غمغم الشاب الذي في الكشك بأنه ليس لديه الوقت لينظر إلى ما هو مكتوب على الشاحنات، وأنه لا يُحصي السائقين، ثم أخذني للـ"كافتيريا"، هكذا يسمي الحاوية الموجودة خلف سور الجراج. يوجد بضعة سائقين يتسكَّعون ساكتين في البرد، في انتظار التعليمات. جلست وفي الحال لفت الأنظار، حيث لم يعتادوا على الوجوه الغريبة. عندما رأت الجرسونة أنه لا نية لي في الرحيل، اقتربت من طاولتي.

- ماذا تريد؟

- عفوًا، هل تعرفين "جوفان لازيتش"؟

لم تجب، فقط تفحصتني بارتياب. حسبت أنها تريد مزيدًا من التفسير عن سبب اهتمامي بهذا الرجل المحترم الذي أسأل عنه، ولكنها استدارت نحو الزبائن الآخرين.

- "ميرو"، اتصل بـ"لازو" واسأله متى سيحضر.

لم ينفذ "ميرو"، الذي يستند إلى جدار الحاوية متكاسلًا، ما طُلب منه في الحال.

- مَن هو؟

افترضت أنه يقصدني، ولكنه سألها دون حتى أن ينظر ناحيتي. هذه وسيلة اتصال خاصة - أو هكذا افترضت - بين هؤلاء الذين فقدوا الأمل في مستقبل أفضل بانتظارهم هنا، وليس لديهم الطاقة لكلمات أكثر من

اللازم. فقط جلسوا هنـاك في صـمت، يشـاركون بعضـهم بعضًـا خيبـة الأمـل في طريق الحياة.

- ما أدراني، ها هو، اسأله بنفسك.

لم ينظر إليَّ أحد، وهزَّ "ميرو" رأسه ببلاهة وأمسك بالتليفون.

- أهلًا، "لازو"؟... أنا "ميرو"... هل ستأتي لترى "دراجيكـا" اليـوم؟... أوووه... جميييييل... هنا شاب يبحث عنك... أنت! تعالَ!

استدار نحوي للمرَّة الأولى.

- لماذا تبحث عن "لازو"؟

- في الواقع، كان قد أحضر في أحد الأيام خطابًـا مـن أبي، وأودُّ أن أعـرف إذا كان ما زال على اتصال...

لم يشعر "ميرو" بالرغبة في الاستماع أكثر مـن ذلـك، فتفسـيري كـان معقـدًا بالنسبة له.

- شيء بخصوص خطاب... لا أعرف! اسمع يا "لازو"، لماذا تقرفني وتسـألني أنا؟ تعالَ واسأله بنفسك! يا لتطفلك اللعين!

لم يرغب "ميرو" في إزعاجي بأي معلومات إذا كان "لازو" سيأتي أم لا، ولكن قرَّرت أن أبقى متفائلًا، وقلت في نـفسي إن هـذا السـكوت معنـاه أن "لازو" في الطريق، ولا معنى في سؤالي "ميرو" متى سيحضر. الوقت هنا يمضي مختلفًا عـن أي مكان آخر في العالم، ومحتمـل أن أتلقَّـى إجابـة لا فائـدة منها، مثـل "حـالًا سيأتي".



كان "لازو" من نوعية مختلفة عن زبائن الكافتيريا الآخرين. عندما جاء إلى الحاوية بمقطورته بعد نصف ساعة. استطعت أن أستشف من نزوله من الباب أنه يتمتع بحياته عن زبائن "دراجيكا" الآخرين. فعلى الرغم من أن درجة الحرارة تحت الصفر بكثير، فإنه يمشي بجاكت مفتوح، وحذاء جلد لامع خفيف. حاول أن يعطي انطباعًا أنه - لكونه "فتوة من الطراز القديم" - لا يشعر بالبرد إطلاقًا. كان دخوله دراميًّا.

- أين أنتم يا قُدامى المحاربين في الحرب من أجل سلوفينيا؟ تجلسون هنا، في استراحة جديرة بكم، كما يقول الأمريكان. "دراجيكا"، انظري إليهم، أليسوا لُطافًا؟... اللعنة على صربيا، بلدكم، الصغيرة أو الكبيرة! لا عجب أن تكون دولتكم في أزمة، لو أن أفضل عمالها هنا، عليها اللعنة، يا "ميرو"، هذا الأهبل "تاديتش"، سيبيع بلدكم، ولكنكم تجلسون هنا فحسب، ولا يهمكم أي شيء. ألم تروا كيف جعلوا الألبان يأخذون كوسوفو، بلدنا؟ حالًا، سيعلنون الاستقلال، هؤلاء المرضى السَّفلة...

غمغم واحد من "قُدامى المحاربين" الذين تحدث إليهم ردًّا عليه، بينما لم يبذل الآخرون أي جهد للمشاركة في هذا النقاش السياسي.

جلس "لازو" إلى الطاولة الشاغرة الوحيدة، وطلب من "دراجيكا" لتحضر له شنابز الكمثرى، ثم استدار نحوي:

- هل تبحث عنِّي؟

- نعم.

- تعالَ هنا.

جلست بجواره، ومدَّ لي يده.

- "لازيتش يوغوسلافيا".

- "فلادان بوروجيفيتش".

ترقَّبت أن يحدث اسمي أي رد فعل له، ولكن "لازيتش يوغوسلافيا" لم يُبـدِ أي اهتمام بالاسم، ولا بي.

- ربما تعرف أبي "نيدلكو بوروجيفيتش".

- ماذا تقول؟ "بوروجيفيتش"؟ من أين؟

- من "باولا"، أصله من "فويفودينا"، ولكننا عشنا في "بـاولا" حتـى الحـرب. كان ضابطًا. ثم عاش في "برتشكو" بعد ذلك.

- لماذا تظن أنني أعرفه؟

- لقد أرسل خطابات لأُمِّي أثناء الحرب عن طريقك.

- عن طريقي؟

- بشاحنتك.

- أثناء الحرب؟

- نعم.

- هل تعرف متى حدث ذلك؟ اللعنة...

- آخر خطاب أرسله إلى أُمِّي منذ ثلاث سنوات، من "برتشكو".

- من "برتشكو"؟

- نعم.

- بشاحنتي؟

- لا أعرف ذلك بالضبط.

- ماذا تعرف؟

- أعرف أن شخصًا أحضر الخطاب في شاحنتك، وحسـبت أنـك عـلى اتصـال به، أنك تعرف أين هو.

- وهل أبدو لك كساعي بريد؟ لا أعرف "بوروجيفيتش" هذا الذي يخصُّك.

- ماذا عن "توميسلاف زدرافكوفيتش"؟

- مَن هذا أيضًا؟! يااااا للمصيبة!

- اسمه الجديد، لقد غيَّر اسمه.

- غيَّر اسمه؟

- نعم، من "بوروجيفيتش" إلى "زدرافكوفيتش".

- أووووه، ما هذه المتاهة يا رجل؟

- لا أدري.

من الواضح أن "لازو" غير معتاد على حديث الغرباء مع بعضهم بعضًا، كما أنه نافد الصبر مع المُحقِّقين الصِّغار الطموحين أمثالي.

- اسمع، لن أستطيع مساعدتك. لعلمك، لقد نسيت حاليًا كل شيء. مَن رأيت، ومَن قابلت، ومَن ضاجعت. لو تعرف الناس الذين تعاملت معهم... إنهم أغبية في كل مكان حاليًا. لن تُصدِّق ما يحدث في البلد الآن. لا ترى هذا في أي مكان آخر، صدِّقني. وأفضل ما تفعله هو أن تنسى. لو كنت إنسانًا طبيعيًّا، لأُصبت بالجنون من زمن. فحتى لو أنني قابلت أباك، فقد نسيت الآن. لأن هذا ما اضطررت أن أفعله. في هذا البلد، لا يوجد قانون، ولا نظام، ولا أي شيء بالمرَّة. الناس يسرقون فقط، اللصوص في كل مكان وأنا لا أستطيع... لا أستطيع أن أرى ما يحدث، ولو أنني وضعته في ذهني... لأُصبت بالجنون... بالنسبة لي، كل شيء يدخل من أذن ويخرج من الأخرى، لن أهتم بشيء بعد ذلك، لن أحرم نفسي من النوم لأي سبب. مستحيل يا "جوزيه"، لقد تخلَّصت من كل هذا القرف، عذرًا على فرنسيتي.

أخبرني "لازيتش يوغوسلافيا" بكل شيء، وذهب إلى الضحية التالية:

- مـاذا هنـاك يـا "مـيرو"، يـا جنـدي يـا قـديم؟ سـيعلنون فعـلًا كوسـوفو جمهورية، ليست نُكتة. هيَّا نذهب إلى هناك ونسحقهم!

كان "ميرو" ما زال متكئًا إلى جدار الحاوية، نصف نائم، وبلا شك أي حركـة تصدر منه هي غير مقصودة، وليست من خطة حياته القصيرة.

- لقد نمت مع كل الأُمَّهات الألبانيات. اذهب أنت ونَم مع مَن تريد.

ضحك "لازو" مقهقهًا بصوت عالٍ، بينما كنت أبحث عـن "دراجيكـا". أردت أن أدفع حساب القهوة وأخرج من هناك بأسرع ما يمكن، قبـل الحلقـة التاليـة من النقاش. عند هـذه اللحظـة، حـدَّق "لازيـتش يوغوسـلافيا" فيَّ بطريقـة قـد تفسر بأنها تهديد، ولكن اتَّضح أنها طبيعته، وليست زائفة. فهمـت أنهـا حالتـه الطبيعية، وأنني كنت أتعامل مع نمـوذج للمُهـرِّج البلقـاني. فـ"لازو" يحـب أن يمزح، ولكن لا أحد هناك يمزح معه.

- لقد مضى على الحرب خمسـة عشر عامًـا. ومـا أفعلـه الآن لا يهـم أحـدًا. حتى إلى اليوم، الأذكياء المتعجرفون لا يعرفون مَن البطـل ومَـن مجـرم الحـرب، وليس من شأن أحد أن يسألني مَن أعرفه ومَـن لا أعرفـه. يجـب أن نـنسى كـل شيء، وخصوصًا أنتم أيها الشباب الذين ليس لديهم أي فكرة عمَّا يحدث هناك، ولمن ولماذا. لقد مضت خمس عشرة سنة، وينبغي ألا يتكلَّم أحد عن هـذا؛ لأن الناس لا يقولون إلا التَّوافه، وفقـط هـؤلاء الـذين لم يكونـوا هنـاك ولم يـروا أي شيء يتكلمون. الحرب هي الحرب. كان ذلك أشبه بكوكب آخـر. لا أحـد يفهـم هذا. إما كنتم هناك، وإما لم تكونوا. لا شيء آخر يهم. إذا كنتم هناك فكل شيء واضح لكم، ولا تسألون عن شيء. أما إذا لم تكونوا فليس من حقكـم أن تسـألوا عن أي شيء. فهمتم؟



- من المحتمل أنني لن أعرف أبدًا إذا كان قد كذب عليَّ أم لا.

كانت "نادية" راقدة بجواري تستمع بصمت لشكوكي إذا كان "جوفان لازيفيتش" قال الحقيقة عندما زعم أنه لا يعرف أبي. إنني على يقين بأنه ليس لديَّ القدرة على جعل الناس يخبرونني بما لم يقصدوا أن يقولوه لي. فلست جاسوسًا ذكيًّا خاصًّا في فيلم أمريكي. فما أنا إلا رجل صغير، أو صبي كبير، يبحث عن أبيه في العالم الحقيقي. ليس لديَّ أفضل كتاب السيناريوهات من هوليوود رهن إشارتي، ليؤلفوا لي جميعًا ردًّا ساخرًا على مونولوج "لازو". وليس لي عضلات "بروس ويليس" كي أجر هذا الكاذب من رقبته، وأعلقه في مسمار في جدار حاوية "دراجيكا"، وأجعله يغني.

لم أستطع غير أن أسكت، وأشكره على وقته، وأدفع الحساب وأنصرف. لم أستطع غير أن أتقبل كل التفاهات التي حكاها بامتنان، وأرى آخر أثر من "نيدلكو بوروجيفيتش" يتلاشى أمامي، مثل آثار أقدام بدوي في رمال الصحراء.

- اللعنة على "جوفان لازيتش"!

استدرت نحو "نادية" ورأيت نقطتين صغيرتين لامعتين مكان عينيها. إنها دموع انعكست عليها أضواء الشارع الخافتة مثل المرايا. كانت "نادية" تبكي.

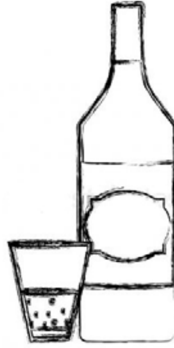
مَن يدرى كم الدموع التي ملأت عينيها في صمت، وتهددني بشكل خفي. تهدد بأن "نادية" ستعود ذات يوم إلى منزل أُمِّها، وتغلق على نفسها باب غرفتها. فلن تصل إليها مكالماتي، وستدقُّ أُمُّها القلقة على

بابها، ولكن دون فائدة. يهددون بأن "نادية" سـوف ترقـد هنـاك عـلى سريرهـا، محاطة بلعبها اللطيفة المُحبَّبة مـن طفولتهـا، تُحـدِّق في السـقف المطـلي بلـون ذهبي متوهج في ظلمة النجوم، تسترجع كل حياتنا التـي عشـناها معًـا، وتـودع كل يوم كان بيننا. ربما تبكي، ربما تبتسم بين الحين والآخر، ولكنها لن تندم عـلى أي شيء، ولن تثنيها أي ذكريات بيننا عن نياتهـا. عنـدما يـأتي يـوم مـا، وتنتهـي قصة فيلمنا، سوف تخرج من غرفتها، ولن أكون في حياتها بعـد ذلـك، وستشـقُّ حياتها من دوني.

اللعنـة عـلى "جوفـان لازيـتش"، وكـل سـائقي الشـاحنات في هـذه الـدنيا! و"نيدلكو بوروجيفيتش" أيضًا.



23



- هل تعرف بار "بوس"؟ في الساحة أعلى سوق الخضار؟

- نعم.

- متى يمكنك أن تكون هناك؟

- خلال خمس عشرة دقيقة.

- أراك هناك.

بعد عشرين دقيقة في بار "بوس"، وجدت رجلًا يجلس إلى طاولة بجوار النافذة، لا يحمل إلا شبهًا خفيفًا من الرجل الذي قابلته في مكتبه من مدة ليست بالطويلة. لم يكن "بران ستانيزيتش" ببذلته الزرقاء الأنيقة، لكنه لم يزل يبرز متميزًا في بار مثل هذا، مكان التقاء بقية البروليتاريا البرجوازية.

- اعتدت أن أعيش هناك، في تلك البلكونة في الطابق الرابع ذات الستائر القصيرة. هل يمكن أن تراها؟ هناك مباشرة. أبنائي كبروا في هذه الساحة.

كان هناك قطار خشبي صغير، لا يمكنك أن تنـزلهم مـن عليـه. متـى كـان هـذا بحق الجحيم؟ جلسنا هناك، في تلك الأيام، فقط كُنَّا نجلس.

كل شيء كان مختلفًا في ذلـك الوقـت. حينئـذٍ، كـان "بـران" مـا زال يشرب شنابز "بلوم" ويرتاد أماكن مثـل هـذه، حيـث ينـتشر الشـعور بقـذارة المـاضي، ويمكن أن ترى بُقع النبيذ السيئ الممسوحة على الطاولات، مع آثار من العصـير والكريم لازقة بها. لقد تدفقت رغاوى بـيرة عـلى أرضـيات هـذه البـارات، وقـد طفت عليها أعقاب السجائر المهملة من زمـن، ومـا زلـت تشـم رائحـة الزبـائن الأحياء والأموات، لا يهم كم من الهواء النقي أدخله المُـلَّاك الجُـدُد. ربمـا اعتـاد "بران" أن يكون واحدًا منهم، ولكنه تـاه في يـوم مـا في تمويهـه الانتقـالي، الـذي وضعه في طبقة هؤلاء الذين يمسحون أفـواههم بالمناديـل القطنيـة، قبـل شرب نبيذ جنوب أفريقيا.

بجلوسه في بـار "بـوس"، عـاد إلى بيتـه ليعمـل مـع هـؤلاء الـذين مـا زالـوا يمتلكون براميل من البيرة للغداء. عاد إلى عالمه القديم، وجلس أمامي، عاد مرَّة أخرى ذلك الظريف في قناع الغطس الأصفر، الذي أزال ذات يوم الشوك الصغير من سمك "الأنشوفة"، المشوي على موقـد "دوشـا"، بطريقـة غشـيمة، بأصـابعه البدينة، من أجل أبنائه ومن أجلي على الشاطئ.

أم كان فقط يخبرني بالقصة التي يعتقد أنني أحب أن أسمعها؟

- أحب المجيء هنا، لأستعيد ذكريـات أيـامي كضـابط. أتعلـم؟ أصبح يتضح لي أكثر وأكثر أن عـالم الرفاهيـة ذاك لم أعـد أنعـم بـه. أفتقـد شرب البيرة على الدِّكَّة أمام سكني مع زملائي. اعتدنا أن نجلـس هنـاك، فأراقـب الأطفال وهـم يركبـون قطـارهم الخشـبي ليـذهبوا إلى بلـدانهم البعيـدة. أستطيع أن أشتري المكان كله، ولكن لا أستطيع أن أشتري هذه البيرة بعـد

الآن. لا يمكن أن تجد الجو والإحساس بأنك، في لحظة ما، تستطيع أن تمتلك كل ما تريد. لم يعد يوجد شيء من هذا القبيل. ما زلت آتي إلى هنا كي أقابل شخصًا ما من ذلك الزمن، ولكن لم يعد كما كان، ولن يكون. لـن أحـاول مـرَّة ثانيـة أن أخصص ساعتين كي آخذ الأولاد للغداء، بينما ننهي على مهل النقاش حـول بذلـة قفز أحد المتزحلقين. لن يحدث مـرَّة أخـرى أبـدًا، أبـدًا. ولكـن هـا هـو الحـال. ستعرفه عندما تكبر وتصبح في سِنِّي.

بعد أن انتهى من رثائه الحزين على الماضي، عاد "بـران" للحـاضر، وسـحب ظرفًا من جيبه، ورماه أمامي. ظهرت منه صور فوتوغرافية.

- أردت حقًّا أن أريك إياها.

في الصورة العُليا، جندي يربط رباط حذائه. أردت أن أضـعها جانبًـا كي أرى بقية الصور، ولكن "بران" دفعها أمامي.

- خذ نظرة أخرى!

عندئذٍ فقـط، أدركـت أن الجنـدي يقـف بجـوار جُثَّـة امـرأة، متكئًـا عليهـا بقدمه، كي لا يميل كثيرًا وهو يربط حذاءه.

- ما هذا؟

في الوقت نفسه، وضع "بران" صورة أخرى في يدي. فيها أربع جُثث، كما لو أن شخصًا ما كوَّمها فوق بعض، مع بقايا لبيت محترق تكاد تظهـر في الخلفيـة. في الصورة الثالثة، جندي يقف بجوار محرقة، حيث ألقيـت فيهـا جُثَّـة خامسـة لطفل. اختفى اللهيب الذي خلفه، بينما الدخان ما زال عالقًا حول موقع النار.

- ما هذا؟

- هذه "فيشنيتشي".

أخذت نظرة أخرى في الصورة والجندي الذي كان يقف يُحَدِّق في الجُثَث التي أمامه بلا حراك. كان "نيدلكو" يمد يده نحو إحدى الجُثث، كما لو أنه أراد أن يلمسها، مثلما فعل جَدِّي "ميلوتين" ذات مرَّة على ما أعتقد. وفي الحال ارتجفت. أعطاني "بران" الذي لا يعرف رمزية المشهد باقي الصور، ولكنني رأيت ما يكفي.

- ما هذا؟

- هكذا تعرف مَن تبحث عنه.

- أعرف.

- لو أنك تعرف لِمَ توقَّفت عند الصورة الثالثة؛ ما بعدها أسوأ.

- ماذا تريد؟

- أريدك أن تعرف كل شيء يا "فلادان". الرجل الذي نتذكره من "باولا" لم يعد موجودًا. "نيدلكو بوروجيفيتش" مجرم حرب. مسؤول عن الجُثَث التي في الصور. هل أنت متأكد أنك ما زلت تريد أن تقابله؟

كان ينظر كل منا في عيني الآخر، ولكنني لم أستطع أن أرى سوى "نيدلكو" وهو يمد ذراعه، ليلمس ذراع طفل مُلطَّخة بالدم.

- يا "فلادان"، أنت لا تعرف، أبوك طلب مِنِّي أن أعتني بك عندما تعود إلى سلوفينيا. وأنا حاولت. بذلت أقصى ما في وسعي. ولكنني لست أباك ولا أستطيع أن أطلب منك ما يجب فعله. لم أستطع حينئذٍ، ولكن أستطيع الآن، ولو بنسبة أقل. هذه حياتك. و"نيدلكو" أبوك، والقرار قرارك. ولكنني ما زلت أرغب في تحذيرك، لا أعرف، كصديق افتراضًا. الناس الذين يحمون هؤلاء المتهمين من قبل محكمة "لاهاي" الجنائية، يحمونهم لسبب. بحمايتهم، يحمي العديد من الناس أنفسهم. وأنت لست ابن هؤلاء

الناس. أفهمت؟ أقصد قد ينتهي بك كل هذا بنهاية سيئة، لـو أن هـؤلاء النـاس شكوا أنـك تخـون "نيـدلكو" وتريـد أن تسـلمه إلى الشرطـة. الحـرب مـا زالـت مستمرة بالنسبة لهؤلاء الناس، وهم لا يهرجون.

لم أُفَكِّر إطلاقًا في المساعدة لتقديم "نيدلكو" للعدالة، على الـرغم مـن أنـه قـد ينبغي عليَّ ذلك. ربما كان من المفترض أن أذهب إلى الشرطـة وأخـبرهم بكـل شيء أعرفه عن مجرم الحرب هذا الهارب. القصة التي اعتبرتها قصَّتي، لكنها كانـت أكـثر من مجرد قصَّتي، إنها قصة أربعة وثلاثين شخصًا آخرين. قصة أقاربهم وأصـدقائهم الذين نجوا وما زالوا على قيد الحياة.

- "فلادان"، أرجو أن تفهمني، لو شعر هؤلاء الناس بتهديد، ولو لثانيـة، لـن ينتظروا أن يفكروا. أرجو أن تفهم عن أي ناس أتكلم.

أومأت، على الرغم مـن أن ذهنـي كـان في مكـان آخـر، ولم أُفَكِّـر في هـؤلاء الناس الذين يحذرني منهم "بران".

- هل أنت متأكد من أنك تريد أن تراه فقط، لا أكثر؟

- متأكد.

- فعلًا؟

- فعلًا.

- وهو كذلك.

نظر إليَّ "بران" كما لو كان يريد أن توافق نظراتي على كلماته.

- كن في مطعم "ستوماك" في فيينا يوم السبت، السابع من فبرايـر، الطاولـة ستكون باسمك. هل حفظت هذا؟

- مطعم "ستوماك".

- نعم، في فيينا، يوم السبت، السابعة مساءً. لديك الوقت لتفكر وتغير رأيك إذا رغبت في ذلك. لو قرَّرت ألا تكون هناك، انتهى الأمر.

- سأكون هناك.

- هذا قرارك، وأرجو أن تفهم ما أنت مُقدِم عليه.



بعد دقيقة أو دقيقتين، رأيته من نافذة بار "بوس" يتوقَّف في الساحة، قبل أن ينزل إلى سوق الخضار، يشاهد الملعب الصغير، حيث اعتاد أن يقف القطار الخشبي الصغير، الذي أخذ أطفاله حول العالم. وقوفه على رصيف حياته الماضية انتهى، وعاد إلى الواقع واختفى عن الأنظار.

وهكذا تُركت وحدي مع "ميلوتين" و"نيدلكو" وقصصهما التي تشابكت أمام عيني بطريقة قاسية. كل شيء يشير إلى حقيقة موت والد "نيدلكو" المبكرة، حولت "نيدلكو" إلى رجل يضاهي هؤلاء الذين قتلوا أسرة "ميلوتين"، إلى رجل حَرَق المنازل وكَوَّم الجُثث. لقد كانت حلقة مُفرغة، وللحظة مرَّت على بالي فكرة أنني قد أكون جزءًا من هذه القصة اللعينة، وقد تُرمى جُثَّتي في يوم من الأيام في كومة مع جُثث أخرى، يُحَدِّق فيها الذين نجوا. في هذه القصة غير المحكية، تحوَّل الجلادون إلى ضحايا، وتحول الضحايا إلى جلادين، وكل واحد في هذه القصة قَتل، وقُتل.

لم أرغب في أن أكون جزءًا من هذه القصة، ولكن لم أكن متأكدًا أنني أستطيع أن أهرب منها. لم أعد أُصدِّق بأنني الشخص الذي يمكن أن يترك قصة بلا نهاية؛ لأن كل نهاية كانت مجرد بداية أخرى، أو بالأحرى آلاف البدايات الجديدة. لم تكن نهاية قصة "نيدلكو" بداية قصَّتي فحسب، بل

أيضًا بداية قصص أخرى كثيرة، أكثر ألمًا. إنها بدايات لقصص جميع الضحايا، التي يتكرر سردها هنا لسنوات. مؤلمة لأنني حُوصرت مع جُثث ناس أبرياء وجلَّاديهم. مؤلمة لأنني أعلم أن السؤال الوحيد الذي ظل بلا إجابة هو أي دور مرسوم لي في هذه القصص، وفي أي قصة ستكون نهايتي.



- هل أنت ذاهب إلى فيينا؟

طرحت "نادية" السؤال في ذلك المساء مباشرة بعد عودتي من بار "بوس"، مخمورًا بعض الشيء، وقد أخذت أُعيد كلمة بكلمة، حديثي مع ذاك الرجل صاحب القناع الأصفر. هززتُ كتفي، حيث كانت هي وسيلة التواصل الوحيدة التي في إمكاني. تعبت من تجوالي حول العالم وحيدًا، وأردت صُحبتها. لم أكن متأكدًا إذا كنت أريدها في مشواري إلى فيينا، أم أريدها في حياتي بعد ذلك.

- قل لي إذا كنت تريدني أن أذهب معك بدلًا من أن تتوه بلا ضرورة.

قد لا أفهم متى أصبحت طالبتي الصغيرة تلك شخصًا بالغًا يفهم شخصية مُعقَّدة مثلي، تلك التي ترسل ملابسها المُتَّسخة إلى أمها في نهاية الأسبوع، وتيقَّنت أنها بشرائها بلوفرات استعمال تنقذ الفقراء في الصين. يبدو أنها قبل ذلك بقليل كانت تثرثر حول الحرب ضد الإرهاب، و"كونشرتو" "هابي يوث"، وآيس كريم "بين وجيري" الذي أكلته في لندن، وسرقة درَّاجة أُمِّها. تلك الشخصية التي فكَّرت ذات يوم بجِدِّيَّة أننا كُنَّا سنصبح أفضل لولا تدخل الأمريكان الفظعاء أصبحت الآن ماهرة في علاقتنا؛ تطرح أسئلة صحيحة، تتجاهل هذياني غير الناضج، وأصرت،

على الرغم من رفضي الطفولي، أن تحدِّثني وتصمد في محادثة البالغين من طرف واحد تلك.

انتقدت "نادية" بعنف في ذلك المساء نظريتي عن الأطفال السعداء الـذين لا يكبرون أبدًا لأنهم يعيشون مختبئين من المجتمع في بيوت الدُّمى.

ما دامت تقبّلت بصبر عدم قُدرتي على الرد على أسئلتها، والتعبير لفظيًّا عن مشاكلي بشكل ناضج، كان عليَّ الاعتراف بأن الأطفال السعداء قد يكبرون أسرع مِنَّا. نحن النفـوس التعيسـة الـذين نظـل أسرى لسـن الرشـد المبكـر والمظـاهر. النفوس التعيسة التي تعلمت دائمًا بنزوات القدر، وليس بحكمته.

كانت "نادية" طفلة سعيدة، فعندما كنت أشـاهد الأخبـار التـي تظهـر أولًا في الشريط من أسفل، كانت تبكي لأن أختها حصلت على دراجة جديدة في عيد ميلادها، بينما تستمر "نادية" بـدرَّاجتها القديمـة. بيـنما كنـت قـد فقـدت أبي، مقتت "نادية" أبويهـا لأنهـما لم يشـتريا لهـا حـذاء "كـونفرس أول سـتارز" قبـل ذهابها إلى المدرسة. بينما أصـبحت بـلا أم، تـذمَّرت "ناديـة" لأنهـا اكتشـفت أن مُدَرِّستها في الرياضيات لا تحبها، ولذلك حصلت على B. بيـنما كنـت وحيـدًا في وسـط عـالم غريـب، هلعـت "ناديـة" لأنهـا غـير قـادرة عـلى الـذهاب إلى درس الرقص.

كانت "نادية" طفلـة سـعيدة، وغضـبانة مـن أبيهـا، الـذي لم يتركهـا تثقـب أنفها. كانت "نادية" طفلة سعيدة، أُمُّها حبستها في البيت لمدة ثلاثة أشهر لأنهـا وجدت في حقيبتها مارجوانا. كانت "نادية" طفلة سعيدة، وصديقها الأول قطـع علاقتــه بهــا قبــل انتهــاء امتحــان المدرســة، ولــذلك نقصــت ثلاثــين درجــة

عن الدرجات المتوقعة. كانت "نادية" طفلة سعيدة، وتغلَّبـت عـلى كـل أمـراض الطفولة، واحدًا واحدًا، والآن تجلس أمامي، مستعدة لمناقشة أمور جادَّة.

عل عكسي أنا، الذي ضربتني الحيـاة عـلى رأسي في الحاديـة عشرة، إذ أجلـس بجوارها، وليس لديَّ أدنى فكرة عمَّا أفعل مع مشاعري الطفولية العاصـفة. لـذلك أخفيتها، ورفضتها، وأنكرتها، واختبأت من كل واحد يقـترب مِنِّـي. وظللـتُ طفـلًا، طفلًا قد يعرف ما حدث في "سريبرينتسا"، طوال السنين الماضية، وما حدث قبلهـا في "فوكوفار"، ولكنني ما زلت طفلًا لا أستطيع الدخول في أي مناقشة بجِدَّيَّة عـن أي شيء. على الأقل عن الأمور الجادة التي يجب أن يتكلَّم فيها.

- هل لديكِ وقت للذهاب إلى فيينا؟

- أنت تعلم أنني سأوفق ظروفي معك.

- وهو كذلك.

- متى ستذهب؟

- لا أعرف حتى الآن إذا كنت سأذهب أم لا.

- وهو كذلك.

يا لي من تعيس! لم أفلح في أكثر مـن ذلـك هـذا المسـاء، أرخيـت نظـرتي في خجل. لقد انعكست الأدوار تمامًا، ولم تعـد "ناديـة" تلميـذتي الصـغيرة، الآن أنـا طفلها الصغير، الذي لا يستطيع الاعتناء بنفسه وفي حاجة إليها.



24



يمكن أن تعبر "نادية" شارعًا له ست حارات. وتنتبه جيِّدًا ألا يهرسها الترام. يمكنها أن تستخدم أكثر من وسيلة في آنٍ واحد لتأتي من شرق المدينة لأقصى غربها. يمكنها أن تشتري تذاكر مترو الأنفاق من ماكينة التذاكر. تعرف كيف لا تُحدِّق في شخص أسود أو تركي يَمُرُّ بجانبها وهي تركب الدَّرَّاجة. وأظن أنه يمكنها أن تفرق بين الياباني والصيني. تعرف في أي لحظة كيف تصل إلى نهر "الدانوب". تعرف أنه يجب أن تقف في الجانب الأيمن من السُّلَّم الكهربائي ليتمكن مَن لهم مصالح مستعجلة أن يمروا في الجانب الأيسر. جرَّبت الكعكة بالشوكولاتة في فندق "زاخر". زارت فيينا مع والديها، وفي المدرسة، ومع زملاء الجامعة، ومرَّة بعد ذلك. وزارت ملاهي "براتر"، والمتاحف، وشارع "مارياهيلفر".

كانت "نادية" تعـرف أيـن هـي ذاهبـة، ومهمتـي الوحيـدة ألا تغيـب عـن ناظري. كنت نفسًا ريفية ضائعة في مدينة ضخمة، يخيفنـي حجمهـا. لا أعـرف من أين تبدأ وأين تنتهي، ولا أُصدِّق أن شخصًا يستطيع التجوُّل في مدينة وهـو لا يستطيع أن يمشي فيها. لقـد خفـت منهـا، كـما خفـت مـن بلجـراد ومنازلهـا الرمادية الضخمة. المنازل في فيينا أجمل وأنصع، ولكنها تتساوى في إخافتي. كما اعتـدت أن أجـري مرعوبًـا وراء "دوشـا" في شـوارع بلجـراد الواسـعة المشـجرة، ألصقت عينيَّ في ظهر "نادية" بتـوتُّر ولم أجـرؤ حتـى عـلى التفكـير في أن أفقـد مرشدي في مثل هذه المدينة.

كانـت لغتـي الإنجليزيـة ضـعيفة، فتجنَّبـت تكـوين جمـل طويلـة، مكتفيًـا بالتواصل بالكلمات المنفـردة. عنـدما كـان ينبغـي أن أتعلـم الإنجليزيـة، تعلَّمـت السلوفينية. نسيت الإيطالية البسيطة التي تعلَّمتهـا في "بـاولا"، ونسـيت الألمانيـة البسيطة التي تعلَّمتها في الثانوية. كنت محصورًا بين الحدود الضـيقة للغتـين الأُمِّ. أما "نادية"، مقارنة بي، كانت عبقريـة في اللغـات، حيـث تشـعر بالراحـة في فيينـا متعددة اللغات كـ"بابل" وكأنها في بيتها.

لذلك هدَّأتني فقط الكلمات المألوفة التي سمعتها من المارة، في خضم هذه الفوضى المضطربة. كنت مسرورًا لرؤية كل عامل مهاجر من فيينا يتسلَّل خلـف ظهري ويعبر الشارع معـي. اسـتمعت إلى "شـعبنا" في الـترام، فشـعرت بالراحـة لفهمـي كلـمات قليلـة مـن المحادثـات التـي التقطتهـا بالكُرواتيـة والبوسـنية والصربية. كنـت أسـير وراء "ناديـة"، ألـتقط المحادثـات مـن نـاس مـن عـالمي، كالصور على شاشة الرَّادار، مؤمنًا بأنها ستحول هذه الوحدة الهائلة إلى أُلفة.

كانت الغرفة في فندق "وايلد بنسيون" - أرخص فندق في فيينا - ملاذي وملجئي، حيث شعرت بأنني أطلب بكآبة من موظف الاستقبال حق اللجوء. كنت هاربًا من قمَّة الأشجار في أطراف فيينا، من محطات مترو الأنفاق النظيفة، من وقوف السيارات لعبور المُشاة، ومن العدد اللا نهائي للمتاحف، ومن الواجهات المتجددة بعناية، ومن كل العالم الهارب من شتَّى البقاع ليتجمَّع هنا، بجوار نهر "الدانوب".

كنت هاربًا من فيينا الحسنة والسيئة؛ لأنني لم أستطع التمييز بينهما. أغلقت على نفسي الغرفة، وتجنَّبت الاقتراب من النافذة ومشاهدة شارع "لانج جاس". استلقيت على السرير وشغلت التليفزيون، وانتظرت مجيء الليل. معرفتي بأنني غير مضطر لمغادرة غرفتي كان بلسمًا بالنسبة لي، أفلحت أحيانًا في نسيان ما ينتظرني في اليوم التالي.

قاومت أي ذُعر يهاجمني، واستقرَّت نبضات قلبي أخيرًا. خرجت "نادية" من الحمَّام وجلست بجواري، وعانقتني برقَّة، وملَّست على يدي على نحو مُطمئن. بدأ يُعرض على التليفزيون فيلم بطولة "ريس وزرسبون". شاهدناه أكثر من مرَّة، ولكنني سعيد به الليلة بشكل غير متوقع، وضعت الريموت على الطاولة الجانبية. قبَّلتني "نادية" بامتنان معتقدة أنني تركت الفيلم معروضًا من أجلها.

لم نقل كلمة في ذلك المساء، عندما انتهى الفيلم، أغلقت التليفزيون، وأسندت رأسي إلى ذراع "نادية" ونمت.



دخلت مطعمًا في فيينا بأسقف منخفضة، وجدت طاولات بوسنية قصيرة، بعضها مليء بديكور أطعمة بلاستيكية مُلوَّنة ومُزخرفة. أومأ لي جرسون، بمريلة سوداء طويلة، وكأنه تعرَّف إليَّ، وأرشدني بيده بطريقة بارعة إلى قاعة ضيقة، ثم صعدنا على السُّلَّم إلى بلكونة خشبية تنتشر فيها طاولات مُزيَّنة بشكل لطيف. تحت رواق حجري في مقصورة بعيدة في ركن الغرفة، يجلس شخص إلى طاولة صغيرة، عليها مشروب واحد فقط، وطفاية مملوءة بأعقاب السجائر التي ينبعث منها دخان كثيف. جلست وحدقت فيه، أردت أن أتبيَّن عينيه أعلى لحية بيضاء غير مهذبة، ولكنه كان متواريًا في ظل الرواق الحجري. خفت أن ينسحب من أمامي، أو يتأرجح بميل أكثر نحو الظلام، في ركن الغرفة، ليختفي في ممر سري، ولكن فجأة مال إلى الأمام فطلَّت عيناه من الظلام للحظة (التي كانت هي عيناي كما ذكَّرني بذلك "أمير موزيروفيتش"، "لوزا"، مؤخرًا). كان يبكي، وبعد ثانية، عندما أغلق عينيه، تدحرجت دمعتان صغيرتان على وجهه، تبعتها أُخريات تسيل حول تجاعيده. كنت أشاهده، وجعلني هذا أشعر بالدفء والحب، لقد هدَّأتني دموعه، مثلما اعتادت أن تربت يداه الكبيرتان الدافئتان على رأسي حينما كنت صغيرًا. أشاهده يبكي وأستمتع، كأنه يغني لي "الفجر البازغ لم يشرق بعد" وتدريجيًّا أغطُّ في نوم، لا يوقظني منه إلا صباح صيف حار. وأخيرًا، رأيت يديه، اللتين حاول أن يمسح بهما عينيه الدَّامعتين. كانت يداه كبيرتين، كبيرتين جدًّا على وجهه، على الرغم من أن وجهه مُتوارٍ خلف لحية بيضاء. لم تسلك يداه طريقهما نحو تجويف عينيه الصغيرتين. انتابني شعور بأن يديه تكبران أمام عيني، بينما يلوح بهما في ارتباك حول وجهه المبلل بالدموع، ثم تركهما

من اليأس تنزلان، تستقران كعصفورين على حجره، وخفض رأسه كأنه يعترف بالهزيمة. فجأة سقط رأسه على الطاولة مباشرة ليسحق تحته كأس نبيذ أحمر. رقد أمامي كأنه ميت، ولكنني ما زلت أرى دموعه المُنحدرة على وجهه المنكفئ.



استيقظت في منتصف الليل ولم أمتلك الشجاعة كي أنظر في الساعة لأعرف كم تبقَّى من الوقت حتى الفجر. هناك شعور أكبر بالنهاية عند الاستيقاظ في الظلام أكثر من الاستيقاظ على أي ضوء ساطع، لا يهم كم هو قوي. كان من الواضح أن نومي في "وايلد بنسيون" قد انتهى. استيقظت وعليَّ أن أتكيَّف مع هذا. ربما حظي جسدي المُنهك بساعات من النوم، ولكن رأسي كان يقظًا أكثر من أي وقت مضى. إنني أعرف هذا الشعور، لقد هربت منه بالكاد بمساعدة الفيلم العاطفي جدًّا و"نادية" ليلة أمس.

التلفظ بهذه الجملة أصبح نوبة قلق بالنسبة لي:

"جمهورية لكوسوفو وقارة لإستريا"

استيقظت، كانت "نادية" مُستغرقة في النوم في مكانها على السرير. لم يكن هناك أحد أسفل نافذتنا في شارع "لانج جاس". الكل كان نائمًا في الفندق المقابل في الشارع أيضًا. انتظرت لدقائق عديدة، لأرى بعض المارَّة يصرفون انتباهي بمظاهرهم، ولكن لا يوجد أحد. تبدو فيينا مثل "ليوبليانا" في الليل، إذ الحياة تنتهي بعد غروب الشمس مباشرة. ذهبت

إلى الحمَّام، وتناولت بعض الماء في هدوء كي لا أوقظ "نادية". يؤمن النمساويون بأن الماء جدير بالشرب، وأنه شيء جيد، إذ كنت أشربه كما لو أن بقائي يعتمد عليه. بعدها جرَّبت علاجًا بسيطًا بالصدمة، فرششت بعض الماء النمساوي المُثلِّج على وجهي. ولكن لم ينفعني بشيء.

"جمهورية لكوسوفو وقارة لإستريا"

عُدتُ إلى الغرفة. ما زالت "نادية" لا تتحرك. لم تشعر بالفراغ الذي بجوارها على السرير، وتمدَّدت على مكاني على السرير. اختلست نظرة أخرى إلى شارع "لانج جاس"، فلم أستنتج إلا أن الناس في فيينا لا يرون شيئًا مناسبًا يجعلهم يتمشون في الليل في هذا التوقيت، وأن الشوارع ستظل خاوية حتى الصباح. أسدلت الستارة وجلست على الأرض بجوار النافذة. نظرت إلى "نادية" وهي نائمة، وتذكَّرت، مرَّة ثانية، الصبي الذي في الحادية عشرة وهو يبكي في الغرفة 211 في فندق "بريستول" في بلجراد، بينما أُمُّه غارقة في النوم بجواره. لقد أصبحت ذلك الصبي مرَّة أخرى، حبيس غرفة الفندق، منتظرًا الصباح البعيد، الذي لن يجلب أي شيء إلا يوم سيئ آخر.

حجزت "نادية" غرفة مزدوجة في هذا الفندق بالإنترنت. واشترت لنا تذاكر قطار، وأحضرت تاكسي في الساعة السابعة صباحًا. كما أنها هي التي أخذت لنا غرفة مستقلة في القطار، وذكَّرتني بأنه علينا أن نُغيِّر القطار في "ماريبور". وهي التي عرفتني كيف نستقل مواصلة من محطَّة قطار فيينا إلى الفندق وفي أي محطات المترو نغير القطار. لكنها على الرغم من كل هذا نائمة، وأنا يقظ، محبوسًا بين جدران غرفة الفندق.

"جمهورية لكوسوفو وقارة لإستريا"

كلما اقتربت ساعة لقائي مع "نيدلكو"، ابتعدت عنه في عقلي، ولم أعـرف إذا كنت سأستطيع أن أتكلَّم معه عنـدما أقابلـه أم لا. لقـد اختفـت الأسـئلة التـي وددتُ أن أطرحها عليه، كنت خائفًا من كل الإجابات المُحتملـة، حتـى بعـد أن استمعت لها في عقلي مرَّات ومرَّات. ما زلت لا أعرف الإجابة على أبسط سـؤال وهو "هل أنا حقًّا أريد أن أعرف؟" لا أريد ندمه، أو أن يجعل نفسـه إنسـانًا في نظري، على الأقل ولو للحظة، لا أريد أسبابًا يمكن أن أفهمها.

ولكن الأهم من ذلك أنني كنـت خائفًـا أن أتعـرَّف إلى أبي في هـذا الرجـل، وفعلًا تمنَّيت هنا في فندق "وايلـد بنسـيون" في فيينـا، وللمـرَّة الأولى، أن يكـون "نيدلكو بـوروجيفيتش" مـات فعـلًا عنـدما دفنتـه زوجتـه "دوشـا"، وأن يكـون شخصًا آخرَ بدلًا منه في مكانه الغامض في فيينا. أردت أن أُصَدِّق بأن أبي القاتـل المحترف أخذ دور المقتـول دون أن يعـرف السـبب، ليـدرك حينهـا أنهـا نهايتـه. أردت ألا يكون ذلك الرجل المُتخفِّي مـن العدالـة الظاهريـة في فيينـا. أردت أن أحب أبي، وأكره مجرم الحرب، الجنرال "نيدلكو بوروجيفيتش". تمنَّيت ألا يلتقي هذان الشخصان في جسـد واحـد، وألا أتعـرَّف إلى أحـدهما في الآخـر. أؤمـن أن الجـنرال "بـوروجيفيتش" سـيظل الرجـل صـاحب النظـرة العاصـفة في صـور "فيشنيتشي" التي دفعهـا "بـران" في يـدي. وأؤمـن أن أبي لـن يظـل أبي منـذ أن ذهب هناك.

ينبغـي أن يكـون أبي الرجـل اللطيـف الأبـدي الـذي كنـت أقفـز مـن عـلى كتفيـه العريضـتين إلى البحـر، الـذي جـاءني مـرَّة بصـور لسـيارة "رينـو 18"،

وقال لي إنه سيشتري لي مثلها حينما أحصل على الرخصة، والذي ضربني ذات مرَّة عندما قطفت تين الجيران، وإن كنت لم آكله، والذي تركني مرَّة أشاهد برنامج "إيروفزيون" حتى النهاية، لآخر اسم في تتر النهاية، على الرغم من أنه ظل لما بعد موعد نومي. أبي يجب أن يظل أبي، ولا يتحول إلى الجنرال "بوروجيفيتش"؛ لأنه لو تحوَّل أبي إلى الجنرال "بوروجيفيتش"، سأصبح بلا أب، وسوف تتلاشى معه عشر سنوات سعادة، تتساوى بالأرض، مثل أي قرية في "سلافونيا".



- ماذا بك؟ هل كل شيء على ما يُرام؟

شقشق النهار، واستيقظت "نادية" التي كانت تنام بجواري، لتراني ملتصقًا بالجدار على الأرض.

- أريد أن أذهب إلى البيت.

- كم الساعة الآن؟

- لا أعرف.

- منذ متى وأنت جالس هناك هكذا؟

- لا أعرف.

- إنها السادسة الآن، تعالَ هنا.

أعادت التليفون إلى الطاولة بجوار السرير. صعدتُ إلى السرير، والتصقت بي "نادية"، ووضعت رأسها على صدري.

- قلبك يدقُّ.

- نعم.

- هل أنت خائف من اللقاء؟

- نعم.

- يمكنك ألا تذهب إذا لم ترغب، ويمكننا أن نتجوَّل في المدينة.

- أريد أن أذهب إلى البيت.

- وهو كذلك.

أغلقت "نادية" عينيها، وأغلقت عينيَّ أيضًا. فكرة أننا عائدون في القطار إلى "ليوبليانا" أراحتني. استيقظ شارع "لانج جاس" أسفل النافذة، أصواته جعلتني أنام تدريجيًّا.



عندما تهيَّأ أخيرًا القطار في محطَّة فيينا للتحرُّك، وبدأت العربات تجرُّ بعضها نحو "ليوبليانا"، أحسستُ بارتياح، وكأنما انتشلني شخص ما من الغرق، واستطعت أن أتنفَّس الهواء النقي مرَّة أخرى. نجوت، ولكن عندما بدأت ضواحي فيينا في الاختفاء، بدأت أعترف في صمت بالندم لأن مخاوفي هزمتني. حاولت أن أخفي ذلك خلف أفكار متخيَّلة، ولكن خطر لي وتذكَّرت أن قرار عدم لقاء "نيدلكو بوروجيفيتش" لم يكن لي وحدي. شعرت بأن مخاوفي صنعت لي القرار. حاولت أن أقنع نفسي أن هذا فقط ما سهَّل قراري، ولكنني لم أقتنع بذلك أيضًا. لقد هربت.

- فيم تُفكِّر؟

كنا نجلس بمفردنا في الغرفة. تقمَّصت "نادية" دور الصديقة لأتحدث إليها، وتشاركني مخاوفي، وتُبدِّدها بالكلام. لكنني كنت أهزُّ رأسي فقط، ولم أبعد نظري عن الخُضرة الممتدة أمامي في الخارج. هناك أفكار لا

أستطيع أن أشرحها لأي شخص على الإطلاق، تذكَّرت النـاس الـذين يعـودون إلى ديارهم من الخارج، وصدورهم دافئة.

تذكَّرت هذا الشعور على الرغم من أنه كان منذ زمن طويل. ربما كنـت في السابعة أو الثامنة، عندما عُدنا من بحيرات "بليتفيتش"، وكنت نائمًا في المقعـد الخلفي في سيارتنا الـ"يوجو" البيضاء أثناء رحلتنا الطويلة. كُنَّا في منتصف الليـل حينما وصلنا إلى "باولا"، أيقظني أبي فجأة. غضبت أُمِّي وطلبت منه أن يتركنـي نائمًا، لأن الوقت مُتأخِّر، ولكنه كان يكرر:

- في بيته، سيسعد.

في الحقيقة رأيت، وأنا نصف نائم، هيكل سفينة ضخمة في حـوض السُّـفُن، ثم قاعدة عسكرية. وأثناء نزولنا شارع "أوملادينا"، وظهرت عمارتنـا عـلى بُعـد، قال لي أبي:

- هناك بيتنا.

شعرت فعلًا بأنه بيتي، وبدا كذلك.

لم يعد لي أي بيت، لأننـي مكثـت بالخـارج في وقـت مـا لاحـق ولم أسـتطع العودة. كنت أعلم أنني لا أستطيع إلا أن أنتقل من غُربة إلى غُربة، وأننـي لـن أشعر بشيء عندما يمُرُّ القطـار مـن "سـبيلفيلد" عـلى المصـنع الحـراري والقُـرى السلوفينية على الأطراف إلى محطَّة القطار، حيث تظهـر لافتـة "ليوبليانـا" عـلى الرصيف. وأعلم أنني لا أستطيع تفسير ذلك لـ"نادية"؛ لأنها لن تفهـم حتـى لـو أرادت ذلك. لذا التزمتُ الصمت واتهمتُ في مُخيِّلتي حشدًا غير مرئي من أفـراد قليلـين دمَّـروا بيتـي في وطنـي الكبـير، كي يحصـلوا عـلى جمهـوريتهم الصـغيرة كوسوفو، "جمهورية لكوسوفو" بالضبط كما قال الـ"جرافيتي".

مَن يدري إذا كان "نيدلكو" يُفكِّر هكذا، كما اعتقدت في نفسي. شعرت بالذنب لمشاركتي أفكاري معه، ولكن كان هذا أقوى مِنِّي. كلما اقتربنا من النقطة التي اعتاد عالمي أن يبدأ عندها، شعرت بأننا حوصرنا في منفى وحصار دائم. أصبحت أكثر اتصالًا بذلك الرجل الذي لا يستحق أن يُقال عنه رجل.

أتساءل إذا كان "نيدلكو" يعرف من أجل مَن يحارب وضد مَن، لما بدأت الحرب. وكشخص يدَّعي دائمًا أنه يوغوسلافي، هل كان مُقتنعًا بأنه يحارب من أجل وطنه، وبيته في "باولا"، عندما فعل ما فعله في سلوفينيا؟ هل رأى الناس الذين مثله - الذين تمنوا أن يكون كل شيء كما هو - ولم يكن لديهم جيش خاص بهم؟ هؤلاء الناس سلموا أنفسهم في أول يوم من الحرب، أو اختبؤوا في المخابئ، أو هربوا بلا رجعة لمنفاهم الأبدي في الغُربة. كانوا أقلية، هُزموا قبل إطلاق الرصاصة الأولى، وأُهينوا ونُفُوا. لربما "نيدلكو" لم يرَ هذا، أو لم يفهم، ولربما كان ذلك سبب عدم وضع بندقيَّته جانبًا، وعدم خلع زيِّه العسكري.

بينما كنت شارد الذهن وأُحدِّق في نافذة القطار السريع، تساءلت هل أدرك "نيدلكو"، مع كل جندي أو مدني سقط في هذه الحرب، من أي طرف، أن جزءًا صغيرًا من عالمه حتمًا مات؟ أتفهم أن ذلك الرجل - الذي كان أبي ذات يوم - لم يكن لينجو من هذا الإحساس. هذا الإحساس قد يتحمله "نيدلكو" آخر، "نيدلكو" الذي احتفظ بقصة أبيه "ميلوتين"، بعيدًا عنَّا كلنا لأعوام، "نيدلكو" الذي لم يتغلَّب على قدر أبيه مُطلَقًا، "نيدلكو" الذي سيُولد بعد موت "نيدلكو" الآخر، مرتفعًا كطائر الفينيق

من الألم. "نيدلكو" الذي له قصَّته الخاصة، قصة "ميلوتين"، و"أجنيس"، القصة التي "برَّرت" فعله هناك، في "فيشنيتشي".

بهذه الطريقة فقط، استطاع أبي أن يقتل الناس الذين أخذ معهم حمَّام شمس في الشواطئ الصخرية أسفل متنزه "لونجومير"، وبجوارهم جلس في مسرح "أرينا"، والذين ضحك معهم في الأفلام نفسها. بهذه الطريقة فقط، توقَّف عند نقطة ما عن رؤية هؤلاء الناس الذين أحب أن يشاهد معهم برنامج المسابقات، والذين كانوا يشترون معًا تسجيلات الموسيقى نفسها لأطفالهم. بهذه الطريقة فقط، استطاع أن يميز نفسه عنهم؛ لأنه لم يعد بشخصيته نفسها.

ظللتُ أُحَدِّق في وديان النمسا، وأقاوم أي شعور بالذنب لأنني وجدت نوعًا من التفهُّم لرجل لم يعد يستحق هذا الاسم. ولكن تفهُّمي لا يتعدَّى مشاعره، وإحباطه، وحدود إنسانيته القصوى. أما بعد هذه الحدود، فتوجد أفعاله الفظيعة التي ظللتُ أرفض تفهُّمها. ما بعد هذه الحدود، لا يوجد يأس ولا حزن ولا غضب. ما بعد هذه الحدود، لا يوجد إلا غريزة القتل، ذاك الوحش عديم الإحساس الذي لم يقتل دفاعًا عن النفس، ولكن إساءة للنفس. لا أريد أن أخترق هذه الحدود، ولا أريد أن أدخل عالمه الخاص به. بالفعل لم أكن مُهتمًّا حتى بمعرفة كيف تعدَّى "نيدلكو" نفسه هذه الحدود. هذا سؤال لا يمكن أن يُجيبه غيره.

ليس لديَّ سؤال أطرحه عليه.



كان الغضب هو الذي حوَّلني وأخرجني من القطار إلى مكـان مـا في وسـط حديقة خضراء واسعة فاتنة بين فيينـا و"جـراتس". تبعتنـي "ناديـة" في صـمت، مُجهدة ومتصالحة، بينما أنا مُمزَّق من الغضـب، أسـأل "نيـدلكو"، في مُخَيِّلتـي، لماذا قرَّر أن يعيش، ولماذا أراد أن يراني الآن، بعـد كـل هـذه السـنين مـن لعبـة الاستغمَّاية. لماذا اختار فجأة أن يظهر؟ من بـين كـل هـذه الأسـئلة، كـان سـؤال "لماذا" الـذي يبـدو تافهًـا مـا زال يتفجـر في داخـلي. سـؤال أردت أن أقذفـه في وجهه، كالقفاز لأعلن التحدي في مبارزة أنتقم منه فيها، هناك في وسط المطعـم في فيينا. كنت أشتعل غضبًا لأنه يلعب بحياتي كالدمية، وهذا الغضب هو الذي دفعني إليه.

مشت "نادية" خلفي كالأطفال، لحقنا بأول قطار عائد إلى فيينا، وجلسـنا في أول مكان شاغر صادفنا في القطار الذي دخل المحطة من مكـان مـا، إلى مكـان ما. كل ما أراه هو موعد الساعة السابعة مساء، عند طاولـة في ركـن في مطعـم مظلـم بأسـقف منخفضـة، كـما تخيلـت، تحـت تـأثير الليلـة الماضـية، مطعـم "ستوماك".

في فيينا، أحسَّت "نادية" بأنها تتولَّى المسؤولية مرَّة أخرى وتبعتها إلى "وايلد بنسيون"، في طريق مألوف. ولكن هـذه المـرَّة، لم أعـد قـادرًا عـلى الاسـتماع إلى الناس من حولنا، لم أفعل إلا أن حدَّقت دون اكتراث في نافذة المـترو، منتظـرًا في صبر أن تتباطأ السرعة عند النقطة التي كنت أُركِّز عليهـا. كـل مـا كنـت أفعلـه منذ أن نزلت من قطار "ليوبليانا" هو عدُّ الدقائق، وتفكيري بـأن هـذه الثـواني والدقائق تمُرُّ عليَّ مُتثاقلة. ثم توقَّفت للحظة، وتجمَّد كل شيء، شعرت بالـذُّعر مرَّة أخرى، ثم تحرَّكت من جديد، والدنيا بدأت تلفُّ بي.

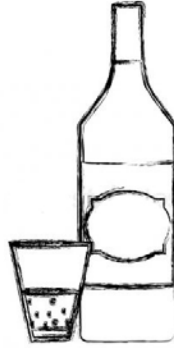


بعد فترة، وجدت نفسي جالسًا على حافة السرير، أشهد شارع "لانج جـاس" يتلاشى في الظلام، بينما "نادية" ترقـد خلفـي، محاولـة أن تكـون غـير مسـموعة وغير مرئية. انتظرت لحظة، وعندما تحرَّرت من هذا العـبء، وصـفت لي بدقَّـة الطريـق إلى مطعـم "سـتوماك" للمـرَّة الثالثـة، وللمـرَّة الثالثـة رفضـت عرضـها للذهاب معي، أو أن أسـتوقف تـاكسي، أو أن أسـتقل مـترو الأنفـاق. قـرَّرت أن أمشي، مقتنعًا بأن التمشية في شوارع فيينا الطويلة ستسرق الوقت الزائد.

كانت السـاعة الخامسـة، قـرَّرت أن أنطلـق نحـو شـارع "سـيجاس". قالـت "نادية" إن الوقت مبكر، لكنها لم تلِح. قبَّلتني على خدِّي، وطلبت مِنِّي أن أتصل بها عندما أنتهي من المهمة. لم يكـن هنـاك أي أثـر للغضـب الـذي أحضرني إلى هناك لبعض الوقت.



25



أصبح المرئي غير مرئي ذلك المساء، لـن أتعـرف عـلى مطعـم "سـتوماك" إذا سألتني اليوم، كما لو أنني لم أضع فيه قدمًا. أتذكَّر فقط الصبي الـذي أومـأ لي عندما دخلت وقـدَّمت نـفسي. الصـبي الـذي أخـبرني بأنهـا السادسـة إلا رُبعًـا، ودلَّني على الطاولة بجوار النافذة، التي تطل على القاعـة. أتـذكَّر هـذه القاعـة التي تصبح جزءًا من المطعم في ليالي الصيف فقط. أعطاني قائمة المطعم الزرقـاء في يدي. أتذكَّر أيضًا أنني طلبت كأس نبيذ أبيض، وتبعتها بأخرى.

بعد ذلك، جلس "نيدلكو" إلى طاولتي. كنت أشرب الكأس الثالثة أو الرابعة. أتذكَّر كم اندهشت لسكينته، وكلمته "مرحبًا" الهادئة. مدَّ يده بصورة روتينيـة. بدت تحيَّته عادية وغير مناسبة:

- ماذا ستشرب؟

كانت هذه هي الكلمات التي بدأت بها بعد كل هـذه السـنوات، قبـل أن أشير للجرسون بأن يأتي. لم أكن أريـد أن أبـدأ المحادثـة بهـذه الكلـمات. كانـت لطيفة ومتواضعة، وكنت قد وعدت نفسي ألا أكون لطيفًا أو متواضـعًا في ذلـك المساء. شعرت بأنني بُحْتُ بكل مخاوفي لـ"نيـدلكو" بهـذه الكلـمات، وكرهـت نفسي عندما قلتها.

- أنت وحدك.

نظر "نيدلكو" حوله كأنه يتوقَّع شخصًـا آخـرَ يتنـاول العشـاء معـي. لكـن نظرته لم تكن خائفة، كنظرات اللاجئ الذي يترقَّب سرًّا المُطاردين.

- "بران" شكَّ فيك، ولكنني كنت متأكدًا أنك ستأتي وحدك.

لاحظت رضاه، رضا الجندي الذي اكتشف تـوًّا أنـه عـرف تكنيـك مُنافسـه، واستعدَّ للهجوم.

- هل رأيت الصور؟

- نعم.

- إذًا عرفت كل شيء.

ظل "نيدلكو" ساكتًا، كما لو أنه حرك قطعة شطرنج وفي انتظار حركتـي، أو أنه شرد لثانية. جلست أمامه، مُرهقًا، لم أعرف ماذا يحمل الوجـه الـذي أمـامي لي.

- لماذا طلبت مِنِّي أن أحضر؟

- معذرة؟

لم يتوقَّع السؤال، على الأقل ليس في البداية.

- أنت تعلم... أنني لا أستطيع...

- ماذا؟

- لا أستطيع... هذه المحاكم... وهذه... لم أستطع... ولا أقدر على هذا.

- نعم، إذًا؟

- لا أدري، أعتقد أن هذا كافٍ.

- كافٍ لأي شيء؟

- كل شيء يا "فلادان"، كل شيء؛ الهروب، الاختباء... كل شيء. بعد هذه السنين، لا أُدين لأحد بأي تفسير. فكل واحد يعرف كل شيء. لقد ذهبت إلى كل المناطق. و... ضد مَن سأدافع عن نفسي هناك؟ ضد أولئك الدجَّالين؟ إنهم لا يهتمون إطلاقًا... بأي أحد مِنَّا. إنهم ينعمون بالأموال، وينتظرون معاشاتهم. غير مهتمين بالعدالة، ولا الحقيقة.

لم أكن أتابعه، لأنني كنت أُفَكِّر مما أخذ كفايته، وما وتَّرني أن "نيدلكو" كان يقول ما كنت أُفَكِّر فيه، منذ فترة. إذا كان لا يريد الهروب، ولا يريد الاختباء، فعليه أن يُسلِّم نفسه، ولكن إذا كان لا يستطيع ذلك...

ولكن خطر لي فجأة أنني طوال هذه الفترة منذ أن جلسنا معًا إلى الطاولة، كنت أرى أبي، وكل المشاعر الأخرى التي توقَّعتها أو تمنَّيتها عندما نتقابل اختفت. لقد طرد اللا وعي الوعي، وجلست أمامه كابنٍ طال هجره. سلَّمت له نفسي بلا مقاومة، وسلَّمت مشاعري لرجل أردت أن أكرهه بشدَّة. عند هذه النقطة، أصبحت مُدركًا ضعفي، كنت خجولًا. أمسكت بكأس من النبيذ وابتلعته مرَّة واحدة، محاولًا أن أُغرق فيه نفسي.

- إذًا ماذا تريد منِّي؟

- لا شيء، أردت فقط أن أقول وداعًا.

حاولت أن أكون غير مُكترث، على الأقل في ذلك الوقت، ولكنني فشلت. تأثَّرت بكلماته، تحرَّرت تمامًا من إرادتي. شعرت بالذنب لكل هذه

المشاعر غير المرغوب فيها، وأردت أن أنتقم منه، أضره، أؤذيه، أهاجمه، شيء ما، أي شيء. ولكن لم أستطع. كنت هادئًا، أخذت رشفة من الكأس، شربت نخبًا لنفسي لأنني افتقدت الشجاعة لأواجه مجرم الحرب الذي يجلس أمامي، بينما "نيدلكو" تظاهر بأنه لم يلحظ شيئًا، من المُحتمل من باب الأدب. علاوة على ذلك، حدَّد النبيذ قُدرتي على التركيز، ولم يعد فيَّ شيء يستطيع أن يقرأ تعبيرات وجهه. وأصبح كل ما لديَّ هو الكلام.

- لعلمك، هذه الجُثَث التي في الصور التي أراك إياها "بران"... تلك الجُثَث التي كنت أقف أمامها... أتمنَّى أنك تعرف أنني لم أُكوِّمها. إنني رأيتها هكذا. ثم وقفت هناك أشاهدها، وتذكَّرت قصة أبي، وكومة الجُثَث من عائلته، وعائلتك، وعائلتي. كل هذا دار في مُخيِّلتي. حياتي كلها. قدرنا المشؤوم. حينئذٍ أدركت كيف أنني... كيف أننا كلنا صغار وغير مهمين، كيف كل هذا - الدور الذي حاولت أن ألعبه - كان فعلًا لا إحساس به، وزائد على الحاجة. ولأن الحياة تلعب بنا كلنا طوال الزمن، فهذا ما فعلته بنا. هذه خطة طويلة الأمد، وما كان عليَّ إلا أن أضع نفسي في الصورة. كل هذا كان مكتوبًا مُسبقًا لي. لم يكن هناك أي اختيار. هذا كان مُقَدَّرًا لي، ومُقَدَّرًا للكل. هذا هو قدرنا.

- حقًّا.

أخيرًا، تحدَّث النبيذ نيابة عنِّي، كنت فخورًا بنفسي. ها هو أنا الذي كنت أفتقدني. وقح، ساخر، فظٌّ، لوَّام، غضبان. شربت كأسًا أخرى، ناديت الجرسون، طلبت زجاجة كاملة من النبيذ؛ كتيبتي الحليفة. عند تلك اللحظة، فقدت الأمل في نفسي، وروَّضتها على حقيقة أن الكحول فقط هو الذي يجعلني أقول كلمات معقولة ذلك المساء.

- "فلادان"، لا علاقة لهذا بالرَّب. لا تقلق. فلست واحدًا من هؤلاء الشيوعيين الذين فقدوا عقلهم تمامًا، والآن مُتديِّنون أكثر من القساوسة.

- ماذا بعد؟ لِمَ كل هذا؟

- قدر، قدر فحسب.

- معذرة؟

- أنت ذكي، وأعرف أنك تفهم ما أقول. هذه الحرب امتداد لتلك الحرب. وقدر "ميلوتين" هو قدري. أنا متأكد من هذا. وهناك شيء آخر أنا متأكد منه. لو أنك ظللتُ معي، أو أنا ظللتُ معك، منذ ذلك الوقت... حسب ما تحب... لكان سيصير قدرك أيضًا. لا يمكنك أن تهرب من قدرك.

أخيرًا، بدأ الوقت يسير ببُطءٍ. أسكرني النبيذ، ولكن هدَّأني في الوقت ذاته. بدأت أبرع في لعبة "نيدلكو"، كلمة بكلمة. لعبة الأقدار، راح الغضب الذي كنت أستدعيه طوال المساء يصحو بداخلي، اتخذت موقفًا عدوانيًّا.

- لا أفهم.

- ماذا؟

- هل أحضرتني هنا لتُسمعني قصة الأقدار؟

استطعت أخيرًا أن أبدأ بالغضب الذي كنت أخطط له من البداية، ولكنني لا أمتلك الشجاعة الكافية عندما أكون مُتنبِّهًا. فقط عندما أكون مخمورًا، لا أعتني بمشاعر "نيدلكو". نظرت أخيرًا نحو أبي، وبدأت أنتقم من مجرم الحرب الذي أمامي.

- بدأت تقريبًا أُصدِّق كل هذه القصص التي رويتها عن الجُثَث المُتكوِّمة.

- لا أفهم.

- طبعًا لا تفهـم، بالتأكيـد حكيـت هـذه القصـص لنفسـك أولًا، ثـم قـرَّرت بعدها أن تُصَدِّرها لي.

- لا أفهمك يا "فلادان".

- لا تفهمني!

- لا أفهمك.

- هل يمكنني أن أسألك؟ هل كان هذا الأمر أسهلَ؟

- ماذا تقصد؟

- حسنًا... عندما فبركت كل هذا... فكرة القدر هذه.

- ماذا تقصد بكلمة فبركت هذه؟

- مـثلًا... عنـدما فبركـت قصـة أنـك لم تسـتطع الهـروب... عنـدما كوَّمـت الجُثث... وكوَّم "ميلوتين" الجُثث... عندما فبركت كـل هـذه القصـص المُقنعـة... كانت أسهلَ بالنسبة لك، أليس كذلك؟ هل كل هذا كان أسهلَ عنـدما اقتنعـت بأن هذا قدر لا يمكنك الإفلات منه؟ عنـدما أقنعـت نفسـك بأنـك لم تقتـل كـل هؤلاء الناس، وأنه القدر ينفذ إرادته؟ عندما أدركت أخيرًا أن هنـاك شـيئًا أكـبر منك ينفذ ذلك، وبالتالي لا تشعر بأنك مُذنب؟ عندما فهمـت أن لا شيء فعلتـه في حياتك وما فعلته كله كان مفروضًا عليك؟ هل كان أسهلَ عندما آمنت بهذه الفكرة الأكبر؟

- اسمعني يا "فلادا...

- ولكن لم يكن ذلك كافيًا لك، فأحضرتني لتقصَّ عليَّ هذه القصة. كي أُؤمـن بالقدر؟ لماذا؟ هل لتجعله أسهلَ بالنسبة لي أيضًا؟ كي أفهمـك؟ لأسـامحك؟ هـل هذا هو السبب الذي أحضرتني من أجله؟ كي تسـاعدني أعفـو عنـك؟ كي تسـهل الأمر على نفسك؟

- أنت لا تفهم.

- مَن؟ أنا؟

- لا... لا... لا... أنت لا تعرف كم من الوقت أُفَكِّر فيك، وكل شيء فعلته، وكل شيء فهمته كان من الممكن فهمه من مدة طويلة. صدِّقني فعلت... وذلك سبب عدم مجيئي هنا كي أفهمك. أنا فعلًا لم أفعل...

- لماذا جئت إلى هنا إذًا؟

- جئت كي أعرف منك لماذا أردتني أن أحضر.

- أنا أسألك بجِدَّيَّة.

- وأنا أجبتك بجِدَّيَّة.

كان "نيدلكو" هادئًا، نظر إليَّ بعبوس، كأنه يتساءل إذا كان يُصَدِّقني أم لا.

- "فلادان"، لن أبقى طويلًا.

- أعرف، أخبرتني بذلك.

- ربما تشعر بالأسف في يوم ما، لو افترقنا هكذا.

- ربما، وربما لا.

كنت أُجاهد نفسي ألا أشعر بالأسف تجاه هذا الرجل، مُصِرًّا على أن أخرج من هذه المعركة منتصرًا.

- لماذا لا تنصت إليَّ؟ لتسمع ما سأقوله لك! أنت لست مضطرًا أن تقبله، إذا كنت لا تريد ذلك.

- أنا لست قسًّا، ومطعم "ستوماك" ليس بكرسي اعتراف.

- لست في حاجة إلى قسٍّ، ما أريده هو أن أوضح لك شيئًا.

- لن تتحدَّث عن القدر، أليس كذلك؟

- إذا كنت لا تريد أن تسمع...

- اسمع، إذا كنت لن تستغل الوقت في الحديث عـن نفسـك، وعـمّا فعلتـه بإرادتك، أرجوك لا تتكلَّم مُطلقًا، فهمت؟

- هل تعتقد أن كل شيء كان كما أردته أنا؟

- أخبرتك توًّا، لست مُهتمًّا بهذه القصة.

- هل تعتقد أن لي خيارًا؟

- لقد أجبت عن هذا السؤال بنفسك بالفعل.

- ماذا تعتقد؟

- لا أُؤمن بالقدر.

- وهو كذلك، لست مضطرًا أن تسميه قدرًا، ولكنك تعلم أن كل واحد منَّـا هو جزء من قصة أكبر في حياته، قصة تنفرط دون إرادتهم. أسـتطيع أن أخـبرك عن كل شيء من البداية. عن الجيش، السياسة، التاريخ...

- ولكن ليس عن نفسك.

- ولكنني جزء من كل شيء، ولا أستطيع أن أفصل نفسي الآن.

- لا تستطيع أم لا تريد؟

رأيت الإحباط على وجهه، كان من الصـعب أن أظـل غـير مُبـالٍ أمـام هـذا المنظر. فسحبت نظرتي من عليه، وسرحت بها بعيدًا لفترة. صببت لنفسي كـأس نبيذ وشربتها.

- لا أعرف لماذا أتيت إذا كنت لا تريد أن تستمع لي؟

- ولماذا يجب أن أستمع لـك؟ لقـد ربَّيتنـي مُلحـدًا، أيهـا الشـيوعي الـدموي، والآن تريد أن توعظني عن القدر؟ أنا لست مُهتمًّا بقدرك، أنا مهتم بك أنت.

- أنا؟

- نعم أنت، أنت فقط.

- أنا فقط؟

- أنت فقط.

- ليس هناك "أنا فقط".

غضبَ، ورفع صوته الرَّنَّان عفويًّا، تردَّدت كلماتـه الأخـيرة في أرجـاء المكـان، حتى إن بعض الحضور نظروا إلينا. توقَّف "نيدلكو" وأرخـى نظرتـه. عـرف أنـه أُثير، فاستمر هادئًا لدرجة أنني بالكاد سمعته.

- حياتي هي الجيش، وأنا الجيش. لأنني أُؤمن بالجيش مـثلما يـؤمن النـاس بالرَّب. أُؤمن بذلك الجيش، والبلد الـذي يمثلـه الجـيش. أم أنـك تـرى أنـه كـان يجب أن نضع سلاحنا جانبًا، وندعهم يأخـذون مـا يريـدون مـن بلـدنا؟ أووووه؟ كنت أعتقد أن الموقف يمكن أن يصبح تحـت السـيطرة. أن نقمـع كـل هـؤلاء المُتمرِّدين القوميين، ونستعيد السلام والنظام. لكنك قد تعي أن كل شيء أصـبح خارج السيطرة، لقد فات الأوان. كانت هنـاك مصـالح مختلفـة لم نكـن نعـرف عنها في البداية...

- أرى أنك لا تستطيع أن تبتعد عن قصَّتك.

- ولكنها قصَّتي، قصَّتي الوحيدة، أمثل هذه القصَّة حقًّا.

وقفت، بالكاد أستطيع أن أعدل نفسي، ولكنني عزمت على الرحيل. اتَّكـأت إلى الطاولة، أحاول أن أُوازن نفسي, اصـطدمت بالكـأس، فانسـكب النبيـذ عـلى الطاولة، ثم على الأرض. حضر الجرسون، ونظَّف المكان، بيـنما حـدَّق "نيـدلكو" فيَّ صامتًا طوال الوقت، خائفًا من أن أتركه.

- ماذا بك؟

- قلت لك إنك لن تستطيع الابتعاد عـن قصَّـتك، وأنـا غـير مهـتم بهـا. وفي الواقع لا أريد أن أسمعها.

- ولكن يا "فلادي"، ليس لديَّ قصة أخرى.

آخر مرَّة ناداني بـ"فلادي" كنت في الخامسة أو السادسة، فعلًا كان يائسًا، أردت أن أرحل.

- ما كان عليَّ أن أحضر.

- والآن؟ هل سترحل؟

- نعم سأرحل.

- هكذا؟

- نعم.

- ستندم يا "فلادي".

- سأندم.

ابتعدت، وقع الكرسي على الأرض، انقلبت الكؤوس على الطاولة، تدحرجت واحدة على الأرض وتهشَّمت. تشبَّثت بالحائط، أمسكت بالجرسون، والزبائن القريبين، وأخذت بالكاد طريقي لباب الخروج، بينما كان يصيح خلفي. لكنني لم ألتفت ورائي. كنت أعلم أنه ينبغي ألا أفعل، ولم أفعل. كنت سكرانَ بما يكفي أن أقوم بهذا العمل البطولي. وبشيء من الحظ، كنت في الشارع. أعلم لو أنني كنت واعيًا، لكنت التفت، ونظرت إليه، ولربما عدت له، واستأنفنا محادثتنا.

ولربما انتهي كل شيء بصورة مختلفة.



26



استيقظت بأسوأ مغص في المعدة وضغط على المثانة، كلاهما أخرجاني من نومي القلق. حدَّقت في أقرب جدار، متسائلًا لفترة طويلة أين أنا. عندئذٍ فقط، تذكَّرت صورًا من الليلة الماضية في مطعم "ستوماك" التي تسرَّبت من عقلي كأنها كابوس انتهى الآن.

كانت "نادية" مُستلقية على السرير بملابسها، في انتظاري لأستيقظ. شيء ما في نظرتها أخبرني بأنه لا يمكن أن أخبرها بأي شيء عن ليلة أمس، وأنه لم يكن أكثر المساءات سلامًا بالنسبة لها. حاولت أن أتذكَّر عودتي، ولكن الشوارع والمباني غير المألوفة لي تحرَّكت أمامي، كأنني رُحْتُ أتجوَّل في مناطق غير معروفة في المدينة. حاولت أن أجلس معتدلًا، ولكن هذه الحركة غير الضرورية تسبَّبت في صداع فظيع.

- هل أنت بخير؟

- رأسي.

لم أستطع أن أقول أي كلمة، فالكلمات كانت مؤلمة، وقرَّرت ألا أتحرك.

كنت في حاجة ماسَّة إلى الأسبرين، أو زجاجة ماء مُثلَّج، لم أكن قادرًا كـذلك في تلك اللحظة على أن أجُرَّ نفسي إلى الحمَّام. أغلقت عينـيَّ، ورأيـت "نيـدلكو" يقول لي "وداعًا". في الحال، غمرني شعور بالعار، طغى على ضعفي الجسدي.

لم أستحق هذا الشعور، هل كنت أنا الشريـر في الليلـة الماضـية؟! لم أعـرف كيف أتفاداه. لقد رأيت خيبة أمل "نيدلكو"، ونظرتـه المُحبطـة أمـامي، النظـرة التي أمطرني بها بلا رحمة. وشعرت بالأسف من أجله.

الجـنرال "بـوروجيفيتش" لم يسـتطع أن يـدافع عـن نفسـه أمـامي الليلـة الماضية. لم يرد على هجومي، لعب دور الضحية الضعيفة البريئة، يحاول ببراعـة أن يستعطف رحمتي طوال المساء. كان مقتنعًـا بأنـه يقـدر أن يكسـبني بهـذه الطريقة، لذلك لم يرد على عدوانيتي المخمورة. ربما لم يفهمها، ولم يفهم من أين جاءت، ولماذا. بدلًا من ذلك، راح يُحَدِّق في عينيَّ، ويسـأل في صـمت، لمـاذا أنـا، ابنه، لا أريد أن أكون في صفِّه، ولا أريد حتى أن أسمع قصَّته.

قصَّته اللعينة، الكاذبة، القذرة، الشاذة، المدسوسة، الغبية، الخادعة، الزائفة. القصَّة التي تقبَّلتها بسهولة عندما حكاها "أمير" و"دانيلو" و"بران" متفرقة، كما لو كانت تحكي نفسها. كانت محبوكة بمهارة، ومتماسكة أمامي، كأنما شخص مـا ألَّفها لي بوجه خاص. أحسستُ بالخزي منها، لعدم كفاءتها، ولسذاجتي.

شعرت بالخزي لأننـي أردت أن أصـدِّقها طـوال الوقـت، تلـك القصَّـة التـي قـد تكـون صُـنعت مـن أجـل الـدفاع عـن مجـرم حـرب أمـامي. ربمـا خجلـت

لأنني كنت أريد أن تكون هـذه القصَّـة حقيقيـة؛ مـن أول حـرف لآخـر حـرف، خجلت لأنني اشتقت في اللا وعي أن أفهم وأُبرِّر لأبي منذ البداية.

هذه هي الخطيئة التي حطَّـت عـلى وعيـي في ذلـك الصـباح. في فـترة مـا، انحـزت دون وعـي إلى جانبـه، وتهيَّـأت أن أصـدق قـدره. الجُثَـث المتكومـة، الحقائق الخفية، تخفيف ألم القلـب الخفـي، الغضـب الكـامن الـذي يمكنـه أن يُحوِّل الإنسان إلى حيوان... كنت على استعداد لتصديق كل هذا.

خجلت من هذا الاعتقاد، وخجلت أكـثر مـن السـذاجة وعـدم الإدراك بـأن المؤمن الأكبر بها كان يحكي لي القصَّة نفسها، في كل وقت. المؤمن الذي يريد أن يقدم نفسه بأنه أكبر ضحية في القصة، والذي توقَّع مِنِّي أن أوافق عليها بصورة عاطفية، وأتقبل بلا شروط كل ما سبق ذكره، كما فعلت. تضـايقت مـن نـفسي، وشعرت بالإحباط لأنني أُغويت وانسقت له بهذه السهولة، ووقعت في المصيدة التي نصبها لي.

كان الغثيان يزداد سـوءًا. أخـيرًا، اضـطررت للحركـة. لم تقـل "ناديـة" شـيئًا، ولكنها مسدت على ظهري أثناء قيامي. في الحـمَّام، دفعـت بـرأسي تحـت المـاء البارد، وجعلت الماء ينساب على عنقي، ثم على الأرض. ثم شربته، تجرَّعته آمـلًا أن يخرجني من التعاسة التي أنا فيهـا، ولـو عـلى الأقـل لثانيـة. لم ينفـع الأمـر. خلعت ملابسي ودخلت البـانيو. لم يسـتطع جسـدي المُنهـك أن يقـف معتـدلًا، فجلست وتركت الماء ينساب على كل جسـمي، سـددت فُوَّهـة البـانيو بقـدمي حتى لا يتسرَّب الماء، وأخذت أُراقب الماء وهو يرتفع ببُطءٍ.

لكن الإحساس بالخزي لم يتلاشَ، شعرت بـأن جـزءًا مـن كيـاني يخجـل مـن مـوقفي ككـل تجـاه هـذا الأب الضـائع، مـن مقـاومتي أن أقـف بجانبـه بكـل

قوَّتي، من أنني نظرت إليه في عينيه، ورفضته. رفضت الرجل الذي كان محور حياتي لمدة أحد عشر عامًا، والذي اعتذر لي بطريقته الخاصة عن كل شيء فعله بعد إحدى عشرة سنة. هذا الرجل حوصر تمامًا بجسد مجرم حرب، تمنَّى في النهاية أن أُصدِّق القصَّة التي يحكيها لي. ولكنني لا أريد أن أُصدِّق أي شخص ولا أي شيء.

سمعت طرقًا خفيفًا على الباب.

- هل أنت على ما يُرام يا "فلادان"؟

- سأكون أفضل حالًا.

لم يكن في نيَّتي أن أخرج من هذه الحالة المُؤقَّتة. ما زلت أريد أُن أُعيد ترتيب بعض الأفكار في رأسي المُصاب بالهَوَس. أفكار حوله، الآن تروح مِنِّي وتختفي في المجهول.

بالأمس، اعتقدت أنني عرفت كل شيء عن الرجل الذي كان أبي. والآن أدركت أنني لم أعرف أي شيء عنه. كل شيء تبعثر بالأمس في كثير من الشكوك والأسئلة. رجعت لبداية هذه القصَّة مرَّة أخرى واستطعت أن أرى نظرة "نيدلكو" غير المُعَبِّرة في اليوم الذي انتهت فيه طفولتي. هل هذا الرجل عاش بعد هذا اليوم فعلًا؟ وهل كان هو المدعو "نيدلكو" حقًّا؟ هل الرجل الذي جلس معي بالأمس في مطعم "ستوماك" هو نفسه الرجل الذي أخذني إلى السوق في "باولا" في ذلك اليوم شديد الحرارة في يونيو، واشترى لي آخر هداياه؟

كانت الأسئلة نفسها تظهر مرَّة ثانية، ومرَّة ثانية لا أجد إجابات. كنت في البانيو، منغلقًا عليَّ خلف باب الحمَّام في غرفة في فندق "وايلد بنسيون" بفيينا، واضعًا رأسي بين ركبتيَّ ومُحَدِّقًا في الماء الذي يتجمَّع حول قدميَّ،

ارتعشت من البرد، ولكن أن أتحمَّل البرد أسهل من أن أتحمَّل الألم الـذي خمـد لينتظرني ويعود في الصباح، في أول يوم من حياتي الجديدة.



بعد دقائق عديدة، رأيت "نادية" أمام باب الحـمَّام وفي يـدها قُرصـان مـن الأسبرين.

- خُذهما.

فعلت كـما قالـت، ورجعـت إلى الحـمَّام كي أبلـع القُرصـين بالمـاء. خرجـت واستلقيت على السرير. ما زلت أشعر بـأن الأرض تـدور مـن حـولي، ومـا زلـت أترنَّح بلا اتِّزان. جلست "نادية" بجواري ووضعت يدها على صدري.

- أتريد الإفطار؟

- لا.

- ما رأيك في التمشية قليلًا؟ ربما الهواء النقي ينعشك.

هززتُ رأسي بالنفي. فكل ما أريده شخص يستمع لي. للمرَّة الأولى في حياتي أشعر جسديًّا برغبتي في إخراج كل هذه المرارة التي تدقُّ في صـدري تحـت يـد "نادية". يجب أن أتخلَّص من ليلة أمس، كلمة كلمـة، يجـب أن ألفظهـا بعيـدًا عَنِّي.

أخيرًا، بدأت أحـكي لـ"ناديـة" وأنـا متـألِّم، لكـن بشـكل لا يخلـو مـن السُّخرية أيضًا. بدأت أحكي لها عن هـذا الجـلَّاد المُـتعطِّش للـدماء، الـذي أقنع نفسه بأنه مجرد ضحية بريئة للقـدر. المجـرم الـذي أراد أن يقنعنـي ببراءته، وكـاد يفعـل ذلـك، لأنـه مـن السـهل أن تقتنـع بقصَّـة تُحيـل كـل المسؤولية على قوَّة خفية غير مرئية ولها قُدرة فائقة كالقـدر. حكيـت لهـا

عن إيمان "نيدلكو" بها، عن إيمانه كأنه خلاصه، بالنهج نفسه الذي يؤمن به الناس في مواجهة ما لا يستطيعون مواجهته بأنفسهم. كالموت على سبيل المثال، أو الخطيئة. أسررت لها أنني أعتقد أن قدر "نيدلكو" هو إلهه. وقلت إن "نيدلكو" أصبح مؤمنًا آخرَ بين يدي الرحمن، الذي قاده لذلك، وسيغفر له كل خطاياه في النهاية.

- إذا كان إيمانه قويًّا كما تقول، فهو لا يحتاج إليك لتؤكد له هذا.

- بالعكس، من الصعب أن يكون إيمانك قويًّا من دون مساعدة.

أخبرتها أيضًا بالوداع الذي تنبَّأ به. حاولت أن أقنع "نادية" ونفسي، بأنه يستغل عاطفتي، وأنها لعبة أراد أن يلعبها ليلة أمس، ولكنها هزَّت رأسها.

- ربما طلبك كي تساعده في أن يموت في سلام.

لم أجرؤ أن أقول هذه الكلمات على الرغم من أنها دارت في ذهني كثيرًا. خفت لدرجة أنني لم أستطع أن أعترف بأن هذا هو الدور الذي كان مرسومًا لي بالأمس. خفت أن أُدرك أن "نيدلكو" كان يتطلَّع لي كشخص يمكن أن يقوي اعتقاده بأنه كان مجرد عروسة "ماريونت" صغيرة، لا حول لها ولا قوة، مُعلَّقة بخيط عظيم من التاريخ يُحرِّكها. خفت من إدراك أنه أراد أن أتفهَّمه فقط ليُبرِّر نفسه أمام نفسه، لتهدئته وإرضائه وإعداده للموت، الموت الذي تنبَّأ به لي.

- وعلى حسب ما فهمت أنك لم تفعل ذلك بالأمس كي تساعده، بل العكس تمامًا.

- أهو أمر طبيعي أن تساعدي مجرم حرب ليموت في سلام؟ حتى إن كان مجرم الحرب ذاك والدكِ؟

أخيرًا ساعدتني "نادية" - وربما دون أن تعرف - لأصل إلى سؤال شغلني طويلًا أنطق به، ولكنها ظلت صامتة، كأنها تريد أن تخبرني بأنني الوحيد الذي يمكن أن يسأل نفسه هذا السؤال، وأنني الوحيد القادر على إجابته.



حَمَلَنا القطار ببُطءٍ إلى بيتنا، لنعود إلى حياتنا اليومية؛ هي إلى أحيائها المجهرية وأنا إلى صيانة الماكينات والمُحاضرات التي تأتي عرضًا. صرنا مُهَدَّدين مُجَدَّدًا بالحياة العادية التي لم نعرف كيف نعيشها قبل سفرنا إلى فيينا، وربما كان هذا اختبارًا لنا من جديد. جلسنا وجهًا لوجه، وأحسستُ أن عقلينا يتجوّلان في الأيام التالية، عندما نكون بمفردنا مرَّة أخرى، وعلينا أن نحارب الصمت الذي بيننا. أحسستُ بأن "نادية" تسأل نفسها لو لم يكن هذا القطار سيُعيدنا إلى المكان الذي تهرَّب منه، المكان الذي حاولت أن تحدِّثني فيه، ولكن بلا جدوى.

- "فلادان"...

هذا هو "فلادان" الذي لم يعِد بشيء جيد "فلادان" الذي أخافني، "فلادان" الذي كان شيئًا ينتهي ما بعده.

- كنت أفكِّر... قرَّرت أن أذهب إلى منزل والدي. على الأقل هذه الفترة... موضوع والدك... كان كثيرًا عليَّ. أتمنَّى أن تتفهَّم... ربما بعدما نأخذ فترة راحة من كل شيء... أريد أن نبدأ من جديد. من الصفر. ليس الآن، ولكن بعد أن يستقر كل شيء. عندما تستقر أنت، وأستقر أنا على كل شيء. ربما نُحاول مرَّة ثانية. ولكن الآن أريد أن أذهب إلى بيت والدي لفترة.

بدلًا من الإجابة، بدأت أُخَمِّن أي فترة من الصمت حطَّمت قصَّتنا. أخـذت أُفَكِّر وأسترجع الزمن، أتخيَّل لو أن ما حدث لم يحـدث فكيـف كانـت ستصبح النهاية؟ لكن لم أستطع أن أعـترض، فبعـد كـل مـا فعلتـه مـن أجـلي، لا أمتلـك الشجاعة لأطلب منها أن تُضحِّي بنفسها من أجلي أكثر من ذلك. من أجلنا. على الرغم من أنني أردت ذلك أكثر من أي وقت مضى، فقد كنت خائفًا جدًّا من أن تتركني وحيدًا. كانت "نادية" تنظر من النافذة وتبكي، وتمنَّيتُ لو أبكي معهـا، كي أُريها أنني أهتم، أنني ممنون، أنني مخلص. في تلك اللحظة، اكتشـفت أننـي لم أحب شخصًا بقدر حبي لها، وأصررت ألا أدعها تختفي من حياتي، مثلما فعلـت مع كل فرد أحببته قبلها. سأتركها تذهب، ولكن لن أتركها تظل بعيدًا.

كنـت أخـبر نـفسي بـذلك، وإن كنـت لا أُصَدِّق. لا أُصَـدِّق أننـي أسـتطيع إرجاعها لحياتي مرَّة أخرى. ازداد خوفي، وبدأت أخاف من جديد. بعـد "ناديـة"، لم أستطع رؤية أي شيء؛ لأنه بعد "نادية"، لا وجود لشيء. أردت عـلى الأقـل أن أشكرها، أشكرها على كل ما فعلته معـي. أو عـلى الأقـل أعتـذر. أخبرهـا بـأنني أتفهَّم أنها صغيرة، أنني أعرف بأنها طفلة تحتاج إلى الرعاية والحب. لكـن بـدلًا من ذلك، رحنا نغرق في صمتنا الأخير.



27



بعد فترة طويلة، استيقظتُ وحيدًا من نومي، وجدتُ نفسي في هـذا الفـراغ القاتل الذي دفعني بعيدًا عن أفكاري التي حاولت تجميعها بلا جدوى. شعرتُ بأنني ظهرت توًّا في هذا العالم، من دون ذكريات أو انطباعات. كل شيء جديـد، ولكنني أرقد هنا دون آمال، أو رغبات، ودون أي اشتياق لمعرفة ما ينتظـرني. لم تعد مدينتي تمتدُّ أبعد من جدران هذه الغرفة. بالنسبة لي، هنـاك فـراغ أوسـع من ذلك الذي أُحاصر فيه.

فكَّرت مرَّات لا تُحصى في أن أرحل، ولكن لأن "نادية" لم تعد معي، أدركـتُ أنه لا شيء سوى الخوف يجعلني ماكثًا في "ليوبليانا". خِفتُ مـن إدراكي أن كـل المدن في هذا العالم تتساوى في الغُربة، وأن الناس أنفسهم يسيرون في كل مكان. ناس لا تعرفهم، كما لا أعرفهم في هـذه المدينـة. سـتظل "ليوبليانـا" بالنسـبة لي مدينة الغُرباء المألوفين. فهنا، حيث بيتي، لا يفتقدني أحد. خير دليل عـلى هـذا تليفوني الذي لم يرن لمدة أربعة أيَّام وخمـس ليـالٍ منـذ أن اتصـلت بي "ناديـة" آخر مرَّة.

كنا نتحدَّث أنا و"نادية" في التليفون بين الحين والآخر. كانت المحادثات عن الامتحانات، وحياتها المنزلية، وعن ماكينات البيع، وعن الطقس، عن كل شيء، ولا شيء. محادثات طغى فيها الصمت على الكلام. لم تذكر "نادية" أي شيء عن علاقتنا؛ إذ كانت قد انتهت بلا رجعة، ولم أخبرها عن مدى رغبتي في عودتها. أعلم أن قصَّتي أخافتها، ولكن أعلم أنني لا أستطيع أن أبعث فيها الطمأنينة، ولذلك ستكبر مخاوفها معي.

لم أكن من النوعية التي تُكوِّن علاقات مع الناس. كانوا يبتعدون عنِّي تدريجيًّا بشكل غير ملحوظ، حتى تركوني نهائيًّا. غير أنني لم أشعر بالهجر إلا معها... "نادية" اقتربت مِنِّي، كما لم يقترب مِنِّي أحد من قبل، ولكن لا أعرف كيف أُظهر لها هذا. ولا أعرف كيف أخبرها بذلك، ومع كل علاقة انتهت في الماضي، يكون اللا منطوق أثقل وغير مُحتمل. لذلك توقَّفت عن الاتصال بها، وأعلم أنها ستتوقَّف عن الاتصال أيضًا لتوِّها. أخيرًا، تستطيع أن تتغلَّب على أي شيء، ولكن لا تستطيع أن تتغلَّب على نفسك. بدأت أقتنع أن كلًّا منَّا مُقدَّر له أن يكون نفسه، هذا كل شيء.

منذ عودتي من فيينا، غالبًا ما أُقارن نفسي بـ"نيدلكو"، أتعرَّف إلى نفسي فيه، وأتعرَّف إليه فيَّ، وكثيرًا ما أُفَكِّر في أننا متشابهان. فهو مجرم حرب هارب، وأنا بطل منبوذ، ولكنني مقهور بإحساس أن حياتي تعاقبني بالأسلوب نفسه الذي عاقبته به حياته. كلانا يتخفَّى من الناس، محصورين في المتاهات المظلمة لعالمنا الداخلي، كأننا ننفذ العقوبة نفسها. فكَّرت كثيرًا في أن جريمته جريمتي، وأتقبَّلها ببُطءٍ، مثلما تقبَّلت كل شيء جلبته لي الحياة على مدى السنين.

كنت أعود إلى شقَّة "توميسلاف زدرافكوفيتش" في "برتشكو" كل يوم، وأشعر كأن شخصًا ما حبسني فيها ونسيني. أحسُّ أن وحدة "توميسلاف" العظيمة ابتلعتني، اعتدتُ أن الناس المُطاردين بخطايا عظيمة مثلي، ومثل "نيدلكو"، يسقطون في مثل هذه الوحدة. ولكن الآن، وأنا أتجوَّل حول مخبأ "نيدلكو" الخالي، وأبحث بلا جدوى عن مخرج، أدرك أن هذه الوحدة هي الميراث المُدمِّر، وأنها تدريجيًّا ستصبح وحدة لنا جميعًا، نحن الذين سنظل بعدما يرحلون، ونحلم ببراءتنا.



في صباح أحد الأيام، استيقظت من هذه الوحدة على صوت "دوشا".

- "فلادان"، هل سمعت؟

كان ذلك كأنني أتلقَّى مكالمة من "دوشا" من ماضٍ بعيد. صوتها صوت أُمِّي. ليس لأنها تستخدم اللغة الصربية الكُرواتية هذه المرَّة، ولكن لأن شيئًا ما في هذا الصوت يبدو كأنه يتَّصل من ذاكرتي غير الموجودة، كما لو أن "دوشا" أصبحت أُمِّي مرَّة أخرى.

- لا، ماذا؟

- "نيدلكو"... قتل نفسه... يقولون ذلك... إنهم وجدوه... هذا الصباح... ميِّتًا في فيينا.

ومضت صورة "نيدلكو" أمام عينيَّ للحظة، ثم اختفت على الفور، وتلاشى كل شيء. مرَّرتُ يدي على السرير كي أتأكد أن العالم كما تركته.

- آلو، "فلادان"، أتسمعني؟ أخبروني...

- سمعت.

سكتت "دوشا" وأدركت أنها لا تعرف ماذا تقول. عندما مـات "نيـدلكو" في المرَّة الأولى، لم تقل شيئًا. ولكن الآن أسمع النبرة المُرتعشة التي تنمُّ عـن شـخص يوشك أن يبكي. لقد تراءى لي أنه الموت الأول بالنسبة لها، ولا يمكن أن تتغـاضى عنه كما تغاضت عندما مات "نيدلكو" بالنسبة لي وحدي.

أعلم أن "دوشا" أحبَّـت "نيـدلكو" بطريقتهـا الخاصـة، ربمـا بـالقوة نفسـها عندما كان يأتيها بوردة ويده مجروحة، على رصـيف رقـم 2 في محطَّـة "بـاولا". فجأة، سمعت بُكاءها في التليفون. حزنت لهـا، حزنـت لأُمِّـي التـي لا يمكـن أن تُظهر حزنها أمام أحـد غـيري، حزنـت لهـا لأنهـا الآن تسـتطيع أن تبـدأ حياتهـا الجديـدة، وقـد مـرَّت أشـياء كثـيرة بـلا رجعـة، تسـتطيع أن تبـدأ حياتهـا مـع "دراجان" و"ملادن".

لذلك، على نحو غريب، اعتبرت أن مكالمتها هذه هي الوداع. عندما تنتهـي من الدموع، ستنقطع آخر علاقة غير مرئية بيننـا، التـي فصـلت بيننـا وجمعتنـا طوال هذه السنين، سينفصل كل منَّا عن الآخر. سنعيش أخيرًا في عالمين مُـوازيين بعيدين، وسنكون قادرين على ألا يُظهر كل منَّـا الألم للآخـر. عنـدما تفـرغ مـن دموعها، ستكون هذه هي النهاية بيننا، ولن ننظـر إلى الخلـف. سـتقول وداعًـا، وأقول وداعًا، وستكون النهاية، إلى الأبـد. سـبعة عشر عامًـا، لم تأخـذ أبي بعيـدًا فقط، بل أخذت أُمِّي أيضًا. عندما تنتهـي مـن دموعهـا، سـتكون تلـك النهايـة، وللأبد، نهاية أسرة "بوروجيفيتش".



في هذه اللحظة، أسمع فجأة "لوزا" - "أمير موزيروفيتش" - يصيح بلهجته البوسنية:

- اللعنة على يوغوسلافيا... يا رب!

أرى نفسي في ضباب غامض، أسأل أُمِّي في صمت ماذا يعني هذا الكلام. ثم أرى بعد ذلك "دوشا" تشرح لي بأنها ربما كلمة ورثناها من اللغة التركية، وأننا سنعرف كثيراً من هذه الكلمات العثمانية المتبقية عندما نقرأ عن البوسني الفائز بجائزة نوبل "إيفو آندريتش" في المدرسة.

يجلس بجوارنا ثلاثة أصدقاء سابقين، "نيدلكو" و"أمير" و"بران". بعد ضربة جزاء ضائعة من "فاروق هادزيبيجيتش"، في الدور رُبع النهائي في بطولة العالم، جلسوا أمام التليفزيون، كما لو أنهم ينتظرون المباراة كي تستمر، وتأخذ يوغوسلافيا فُرصة أخرى.

سمعت "أمير" يصيح:

- هذه شخصيتنا بالنسبة لكم، وهذا سيُدمِّرنا كلنا في يوم من الأيام. كان بإمكانه أن يبصق على أي واحد يشاء، كان يمكنه أن يبصق على "بوروتشاجا" من رأسه إلى قدميه، كما فعل لاعبنا "رفيق" في كأس العالم، وتظاهر الحكم بأنه لم يرَه. ولكنه اضطر أن يبصق على "مارادونا". لأن "بوروتشاجا" يمكن أن يبصق عليه أي واحد، ما عدا هو "رفيق شابانادزوفيتش"، البوسني الحقير، يمكنه أن يبصق على "مارادونا".

- كنت سأتفهَّم لو أنه بصق على صورة "تيتو"، ولكن ليس "مارادونا". فتجرأه على كُرة القدم، كمَن... كمَن يتعدى على الرَّب!

يرنُّ صوته في أُذني، أُحَدِّق في "نيدلكو"، وهو يصبُّ كأس شنابز "بلوم" ويقول:

- هكذا نحن بالنسبة لك يا "لوزا". نتعدى على الرب، ثم تـنعكس النتيجـة، ونندهش.

أُحدِّق في عينيه الدامعة وأسمع "دوشا" تقول الشيء الذي ما كان ينبغي أن تقوله في تلك اللحظة:

- متى البطولة القادمة؟

فيصرخ "نيدلكو" في رأسي:

- أي بطولة؟ لن تكون هناك بطولات! انننننننننتهى!

حتى "أمير" كان هادئًا في غرفة المعيشة، مُحَـدِّقًا في صـديقه المُقـرَّب، بيـنما "بران ستانيزيتش" انتفض مـن كُرسـيِّه، حتـى إننـي رأيتـه بوضـوح يمسـح آخـر دموعـه اليوغوسـلافية. بيـنما تميـل أُمِّـي الكـأس إلى شـفتيها وتقـترب مـن أبي وتحتضنه برقَّة. ودون أن يُقاومها، يمدُّ ذراعيه حول رأسـها ويضـمُّها إلى صـدره. أرى أُمِّي تشير إليَّ بأن أنضمَّ لهما، فيأخذني أبي في حضنهما ويضـغط عـليَّ بيـده القوية. هكذا وقفنا نحن الثلاثة هناك، يعتصر بعضنا بعضًـا، بابـا يعـتصر مامـا، ويعتصرني أنا بشدَّةٍ أكبر، ويقبِّل كلًّا منَّا بالتناوب. أضع رأسي على صدره وأسمع دقَّات قلبه "دوم تك، دوم تك، دوم تك...".

الصورة البعيدة الباهتة لثلاثة أشخاص يتعانقون في شقَّتنا في "بـاولا" تـزداد قوة شيئًا فشيئًا، وتتضح أكثر. فجأة، أشعر بشخص منهما يحتضنني بقوَّة، ويميل رأسي على صدرهما، حتى كدت لا أستطيع التـنفُّس، وكـأن الهـواء انحـبس بـين أجسادنا.



أُحاول أن أبعد هذه الصورة الخانقة في ذهني، بدأت أستمع باهتمام لـ"دوشا" وهي تشهق من جديد:

- "فلا..

- نعم.

بدأ النفس يزداد عُمقًا وطولًا، أصبح كل شيء هادئًا، إلى أن أصبحت أُمِّي، في الطرف الآخر من الخط، غير مسموعة بالمرَّة. لست أدري إذا كانت قد أغلقت الخط، أو أنها استنزفت كل دموعها.



28



- لقد حقَّقت له أمنيته الأخيرة وينتظره الآن كل شيء، كما قال بالضبط.

بينما كنت أسير بين المقابر في المـدافن البحريـة الشـهيرة في "بـاولا"، أبحـث عن اسم "توميسلاف زدرافكوفيتش"، الاسم الذي أخفـى والـدي مـن جرائمـه في الفترة الأخيرة، كلمات "لوزا" ترنُّ أعلى وأعلى. لم أطرح أي أسئلة على هذا الرجل الذي اتصل بي ليخبرني بأن أبي مدفون هنـا، في هـذه المـدافن، ولكـن أعتقـد أن هـذه كانـت آخـر أمنيـة يُحقِّقهـا، الكـابتن "أمـير مـوزيروفيتش"، لــ"نيـدلكو بوروجيفيتش".

بعد أن دفنه صديقه - الـذي سـاعده في الاختبـاء عـن محكمـة "لاهـاي" الدولية لسنوات عدَّة - في مقبرة تذكارية تحميها اتفاقية لاهـاي، مـات أيضًـا "لوزا". على الأقل الصحف تقول إنه مات، ولكن أعلم أنه قتل نفسـه. ولكـن هـذا لا يهـم؛ لأن "توميسـلاف زدرافكـوفيتش" يرقـد هنـا، بفضـله، في مكـان ما لا يبحث فيـه الإنسـان عـن سـلام دائـم، ولكـن ربمـا هـو المكـان الوحيـد

الصحيح له. هنـا، بـين جنـود مـن جيـوش كثـيرة، بـأرواح ضـحاياهم العديـدة، تراقبهم، بينما عدم السلمية تنتظر النسيان والمغفرة من التاريخ.



تسـحبني اليـوم قـوة خفيـة تجـاه مقـبرة "أوجسـت ريـتر فـون تـراب" و"هيدفيجا فيلبر". عندما وقفت أمامهـا، تـذكَّرت أننـي وقفـت هنـا ذات مـرَّة، معه.

- هنا يا "فلادان" يرقد جَدُّ وجَدَّة الأطفال الذين في الفيلم.

سمعته وأعلم أنه يقصد فيلم "صـوت الموسـيقى"، الفـيلم الـذي شـاهدناه بالأمس. لم أُصدِّقه؛ لأنني أعلم أن أبي يحب تأليف القصـص، لـذلك انتظـرت أن تتسلَّل ابتسامة إلى وجهه العبوس لتفشي بأنه يمزح، ولكنه هذه المـرَّة يتجاهـل نظرتي المُرتابة، ويخبرني بأن مسقط رأسي غالبًا في مدينة نمساوية، وأن كثيرًا مـن الجنود الذين خدموا بلدهم مثله يُدفنون هنا. وقال:

- هذه لم تعد مقبرة بعد الآن، إنها نصب تذكاري كبير.

لا أفهمه، لأن هناك مقابر كثيرة في كـل مكـان، ولا وجـود لنصـب تـذكاري، ولكنه يستمر في قوله إن الجنود يجب أن يُدفنوا هنا؛ لأن هذا سيُواصل التاريخ العسكري الثري لهذه المدينة، جاعلًا من هذه المقابر نصبًا تذكاريًّا شهيرًا وضخمًا جدًّا.

ما زلت صغيرًا على قصص القبور والانتقال، وكل هـذه الأيـام الآتيـة بعـدنا. سبَّبت كلماته لي قشعريرة، ولكنه استمر في الكلام بأن أسماء المـوتى تخـبر بكـل شيء، وأنه عندما جاء إلى "باولا" في المرَّة الأولى، ذهب مباشرة إلى المقابر ليعرف أين هو بالفعل. وقال:

- شعبنا ليس هنا على الإطلاق، فهناك نمساويون، وألمان، وإيطاليون، وتشيكيون. هذا تاريخ بالنسبة لك يا "فلادان". اليوم نحن هنا، وغدًا سيكون غيرنا.

ثم شردت أذهاننا ونحن ننظر إلى مقبرة "أوجست" و"هيدويجا"، أبوي "جورج"، وبدأ لحن من الفيلم يرنُّ في رأسي، لكنني أعرف أنه لا ينبغي أن أُصَفِّر في المقابر. حتى لو كانت نصبًا تذكاريًّا، وليست مقابر.



إنه قبر صغير، يُرى بالكاد، مخفي عن الأعيُن الفضولية للزُّوَّار غير المعنيين. لا توجد صورة، ولا تاريخ، ولا اسم بلا شك. فكَّرت للحظة وأنا واقف بجواره، هذا ليس قبر أبي. نظرت حولي خوفًا من أي شخص يلمحني، فيكشف عن قبر مجرم حرب مُختَفٍ. يرقد هنا "توميسلاف زدرافكوفيتش"، أقرؤها ثانية، وأسمع صوت أبي المخمور ثانية، يخترق غرفتي ذات مرَّة، في منتصف الليل، يُقاطع محاولاتي للنوم... "عشت في قاع الحياة، والجحيم والهاوية" كم مرَّة سمعت هذه الأغنية، وكم سمعت أُمِّي تهمس له:

- بهدوء يا "نيدلكو"، بهدوء، "فلادان" نائم.

منذ أن أخبرتني "دوشا" بأن "نيدلكو" مات، وأنا أراه بكثرة. أراه وأراها أيضًا، و"أمير" و"إنيسا"، وكل شخص هناك. على الرغم من أن الجو بارد في الخارج فإنني أحسُّ بأن الصيف قادم. يمكنني سماع "ماريو" وهو يهمس في دروس الإيطالية بأن أباه وعده بأنه يمكن أن يذهب بالقارب بمفرده إلى جزيرة "فراتاريسكي"، وأنه يمكنني أن أذهب

معه. تقريبًا الجو صيف، أشعر بذلك، أتذكَّر كل يوم على الغداء "نيدلكو" يكـرر السؤال نفسه:

- ماذا عن ذهابنا إلى جزيرة "كريس" أو "لوشينج" هذا العام؟

لم نكن أنا وأُمِّي متأكدين إذا كان يعني ذلك، لذلك لا نرد. ويسـتأنف أثنـاء صبِّ الشوربة في طبقه:

- لم نذهب إلى جزيرة أبدًا.

أتمنَّى لو أنه يقصد ذلك، ونذهب إلى جزيرة، وأنتظر الصيف، الـذي سـيبدأ في أي يوم الآن. لقد حل شهر يونيو، وحان أن تخرج أُمِّي مـن الـدولاب ملابـس وأدوات البحر.



بدأ الظلام، ما زلت واقفًا عند مقبرة "نيدلكو"، أفكر. بعد سبعة عشر عامًـا، ما زلت أنتظر ألا ينتهي يونيو، وأن يبـدأ صـيف جديـد في "بـاولا". أشـعر أكـثر وأكثر أنني ما زلت الصبي الـذي ينتظـره في الغرفـة 211 في فنـدق "بريسـتول" حتى يعود. الصبي الذي ينتظـر أن يعـود إلى "بـاولا"، حيـث ينتظـره أصـدقاؤه بالقارب، وسوف يأخذه أبوه إلى جزيرة "كريس" أو "لوشينج"، أو لجزيـرة أكـبر، أكبر من جزر "بريوني"، أكبر بحيث لا تتخيَّـل أنهـا جزيـرة. ذهـب"سينيشـا" إلى عمَّته في جزيـرة "كريـك"، وأخـبرني بـأن كـل شيء هنـاك مختلـف عـن هنـا، في الساحل.

أُفكِّر في أصدقائي القُدامى، أتساءل أيـن هـم الآن، ومـاذا يفعلـون، وأتـذكَّر كيـف ضربنـا مـؤخرة "فريـد" السـمين بالنِّبلـة، وأقنعنـاه بأنـه دبُّـور، فـأسرع "فريـد" إلى بيتـه خوفًـا مـن أن يُصـاب بحساسـية. أَوَدُّ أن أضـحك الآن، ثـم

أُفَكِّـر في أن "سينيشـا" و"مـاريو" أقـدم صـديقين لـديَّ، ينتظرانـي في الحديقـة الخلفية، خلف المتجر - لمدة سبعة عشر عامًا - لنتقابل ونذهب معًا إلى منطقة سباحة "فالكان" بعد الغداء. إنهـا نصـف سـاعة مشـيًا مـن عمارتنـا إلى البحـر، أتذكَّر "مـاريو" يعـد بأنـه سـيأخذ كوتشـينة أخيـه، بيـنما وعـد "سينيشـا" بأنـه سيحضر كُرة مطَّاطية لمباراة كُرة يد في الماء. لمدة سبعة عشر عامًا يجلسان عـلى السُّلَّم أمام عمارتنا، والفوط حول رقبتيهما، في انتظاري.

أسأل نفسي: "هل انتهى كل شيء الآن؟ هل يمكنني أخيرًا أن أعود إلى البيت وأذهب معهما إلى الشاطئ؟ هل سيبدأ صـيفي؟". أتسـاءل، وأنـا أُحَـدِّق في قـبر أبي، وكأنني أنتظر الإجابة.

ولكن لا يرد "توميسلاف زدرافكوفيتش".

ولا "نيدلكو بوروجيفيتش".



تقسيم يوغوسلافيا
تواريخ مهمة تتعلق بالرواية

1990/6/30

خسرت يوغوسلافيا أمام الأرجنتين في ربع النهائي لكأس العالم لكرة القدم. وفيما بعد قالت بعض الآراء إن الفوز بكأس العالم كان سيُبقي على وحدة بلد مثل يوغوسلافيا.

1991/6/25

أعلنت سلوفينيا الاستقلال. ولسبب ما، يعتقد بعض الناس أن هذا هو السبب الرئيسي فيما عقب ذلك. وعلى النقيض من ذلك، في سلوفينيا يبدأ التاريخ من هذه النقطة.

1991/6/25

أعلنت كرواتيا الاستقلال. بينما كان كل فرد تقريبًا في سلوفينيا مؤيد للاستقلال، كانت الأقلية الصربية الكبيرة في كرواتيا غير سعيدة تمامًا بالانفصال عن صربيا.

من 6/26 حتى 1991/7/7

حرب العشرة أيام في سلوفينيا. هناك لقطة شهيرة في التليفزيون لجندي شاب يحاول أن يفسر سبب الحرب :"إنهم نوعًا ما يريدون الانفصال، ونحن نوعًا ما لا نسمح لهم بذلك".

1991/11/18

سقوط المدينة الكرواتية الشرقيـة "فوكوفـار" ألحـق الجـيش اليوغوسـلافي، أو بالأحرى الصربي، الهزيمة بالجيش الكرواتي ودمر المدينة والعديد من سـكانها عـلى طول الطريق. ومن ثم كان للحرب البلقانية، شـأنها شـأن أي حـرب متميـزة، كـل شيء؛ بما في ذلك معسكرات الاعتقال.

1992/4/5

انتهت آخر جولة للسلام في "سراييفو" بقتل كل من "سوادا دوبروفيتش" و"أولجـا سوسيتش" على يد القناصة الصربية. بعـد ذلـك مبـاشرة، أصـبحت "سراييفـو" تحـت حصار عسكري لمدة ثلاث سنوات.

1995/7/11

سقوط المدينة البوسنية "سريبرينيتسا"؛ إذ دخل الجيش الصربي بقيادة الجـنرال "راتكو ملاديتش" منطقة من "سريبرينيتسا" تقع تحت حماية الأمم المتحدة، وقتـل على مدى الأربعة أيام التالية أكثر من 8 آلاف مواطن.

1995/12/14

وقع كـل مـن "سـلوبودان ميلوشـيفيتش"، و"فرانجـو تومـان"، و"عـلي عـزت بيجوفيتش" في باريس اتفاقية السلام التي تمت مناقشـتها مـن قبـل في "دايتـون"، ولكنهم جميعًا ماتوا قبل أن ينالوا بسببها جائزة نوبل للسلام.

1999/3/24

بداية قصف "الناتو" لصربيا. وكان هذا أول عمل يقوم به حزب "النـاتو" في أوروبا، وكان أيضًا آخر فصل من حروب البلقان.

2001/6/28

تـم ترحيـل "سـلوبودان ميلوشـيفيتش" إلى المحكمـة الجنائيـة الدوليـة في "لاهـاي"، ومـات الـرئيس الصربي في السـجن بسـكتة دماغيـة قبـل أن تصـدر المحكمة حكمها عليه.

2008/2/17

أعلنت كوسـوفو الاسـتقلال. وهـذا هـو آخـر جـزء مـن يوغوسـلافيا يعلـن استقلاله. ولكنها ما زالت في انتظار الاعتراف الدولي بها.

2008/7/21

تم إلقاء القبض على "رادوفان كاراديتش". كان "رادوفان كـاراديتش" طبيبًـا نفسيًا وشاعرًا قبل أن يصبح مجرم حرب؛ وكتب شعرًا للأطفال.

2011/5/26

تم اعتقال "راتكو ملاديتش". وقبل ترحيله، سمحت له السلطات الصربية بزيـارة قبر ابنته التي ماتت منتحرة.

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

.1	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
.2	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.3	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.4	جريمة في بوينس آيرس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.5	نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
.6	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
.7	علاقات دولية	إلييت إليكا	ألبانيا
.8	قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتزة	ألمانيا
.9	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
.10	حب كالأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
.11	أفلام في قصص	مجموعة مؤلفين	أمريكا
.12	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
.13	اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
.14	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
.15	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
.16	جريمة الساحر	أرني ثورارينسون	أيسلندا
.17	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
.18	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
.19	حذارِ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
.20	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
.21	امرأة في حقيبة	رافاييل مونتيز	البرازيل
.22	بيتنا في إزمير	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل
.23	كابوس ساو باولو	أنطونيو شيرشينيسكي	البرازيل
.24	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.25	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.26	الأثر المقدس	إيسا دي كيروش	البرتغال
.27	الأشياء الماضية	برونو فييرا	البرتغال
.28	أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.29	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
.30	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة

31.	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
32.	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
33.	أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
34.	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
35.	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
36.	توباز	هاكان جنيد	تركيا
37.	ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
38.	جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
39.	جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
40.	خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
41.	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
42.	الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
43.	الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
44.	لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
45.	مينتا	سوللماز كاموران	تركيا
46.	نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
47.	سحر	صلاح الدين دميرتاش	تركيا
48.	المزيد	هاكان جنيد	تركيا
49.	الرجل الذي باع العالم	ألبير چانيجوز	تركيا
50.	المدينة ذات العباءة القرمزية	أصيلي إردوغان	تركيا
51.	جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
52.	معسكرات الشيطان	يواقيم توبول	التشيك
53.	حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
54.	حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
55.	ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
56.	سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
57.	كافكا	فرانز كافكا	التشيك
58.	المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
59.	احذري يا آنا	ماريك سينديلكا	التشيك
60.	المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
61.	العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
62.	بال خال	أولجا سلافينكوفا	روسيا
63.	رسائل سبتمبر	بيروني رحيم	زيمبابوي

64. امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
65. خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
66. يوغوسلافيا.. أرض أبي	جوراي فوينوفيتش	سلوفينيا
67. الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
68. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
69. كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
70. بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
71. بنات الصين	يي مِاي	الصين
72. الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
73. رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
74. سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
75. النجمة الحمراء	يركسي هوملانبيك	الصين
76. رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
77. الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
78. المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
79. جريمة في باريس	صوفي إناف	فرنسا
80. الأخ الأكبر	ماهير جوفين	فرنسا
81. المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
82. التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
83. اعترافات مؤجلة	ميجيلا بودوين	فنزويلا
84. النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
85. أين أنتِ؟	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
86. حياة على باب الثلاجة	أليس كويبرز	كندا
87. صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
88. القنَّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
89. الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
90. القزم	أليكساندر بروبوكيف	مقدونيا
91. د. مينجوس.. الأخ الأكبر	خيسوس ريكاردو فيلكس	المكسيك
92. إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
93. صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
94. سميته كرافتة	ميلينا ميشيكو فلاشر	النمسا
95. حرية حزينة	فريدريكا جيزفاينر	النمسا
96. ف.و.م.و	ألموت تينا شميت	النمسا

97. دكَّان الساري	روبا باجوا	الهند
98. جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
99. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
100. المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
101. تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
102. عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا
103. أفكار سيئة	لويد ميركام	ويلز
104. أيتام ذهبيون	جاري ريموند	ويلز

صدر من كتب عامَّة:

105. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
106. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
107. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
108. المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
109. الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
110. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
111. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
112. القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
113. مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
114. زيارة لمكتبات العالم: تاريخ مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
115. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
116. الذكاء الأخضر	ستيفانو مانكوسو	إيطاليا
117. خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
118. ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
119. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
120. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
121. النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
122. لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
123. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
124. الجري	ثور جوتاس	النرويج
125. عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
126. اللعب مع الكبار	يوريس لونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

127. بيلبورت: قصة مدينة	جيفري لويس	أمريكا
128. سيلفي مع الشيخ	كريستوف بيترز	ألمانيا
129. لا صديق سوى الجبال	بهروز بوجاني	إيران
130. شرخ في الحائط	كلاوديا بينييرو	الأرجنتين
131. شمس الحرية	آنا ماريا ماتشادو	البرازيل
132. طلاق على الطريقة التركية	أسمهان أيكول	تركيا
133. جدتي وبريتني سبيرز	لونا الموصلي	سويسرا
134. لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
135. يوم هنا ويوم هناك	أجيولار كامين	المكسيك
136. روميو جولييت في البلقان	ديان ترايكوسكي	مقدونيا
137. أختي فاتلة متسلسلة	أوينكان برايزوايت	نيجيريا
138. لا سوبيربا	إليا ليونارد	هولندا

#كتب_مختلفة #سلوفينيا



رواية عن الذين نجوا من الحرب في يوغوسلافيا لكنهم لم ينجوا من مصائرهم المأساوية

بعد أن تجمعت يوغوسلافيا على حلم الفوز بكأس العالم في عام 1990، حدث بعدها أن بدأت الانقسامات والانهيار وتفككت الدولة والأسر واستقلت كل مجموعة عرقية بدولتها. في هذه الرواية تدرك مدى الانهيار الذي تعرضت له يوغوسلافيا وأثره على شعبها، فمن متابعتك لرحلة بطلنا "فلادان" في البحث عن والده بين باولا (صربيا) وليوبليانا (سلوفينيا) وبرتشكو (البوسنة) لكرواتيا وفيينا، تشاهد على خلفية الأحداث الصراعات العرقية والدينية التي يواجهها "فلادان" الصربي مع كل الأشخاص الذين يقابلهم من كروات وصرب وبوسنيين وغيرهم، وحتى مع أهله وتحديدًا أمه السلوفينية.
رواية عميقة ذات معاني كثيرة؛ عن معاناة الفرقة والعنف والفقدان، عن احتدام الشعوب الذين كانوا يعيشون تحت سقف دولة واحدة بعد الانقسام، عن المصير المشتت والماضي المشوش الذي يعيشه "فلادان"؛ "أهو أمر طبيعي أن تساعد مجرم حرب ليموت في سلام، حتى إن كان... والدك؟".



جوران فوينوفيتش

كاتب سيناريو وروائي ومخرج وشاعر. ولد في عام 1980 في مدينة "ليوبليانا" بسلوفينيا. درس في أكاديمية المسرح والإذاعة والسينما والتليفزيون. نشر مجموعته الشعرية الأولى "إنه عالم جميل" في عام 1998. اشتهر بروايته "ارحلوا يا حثالة الجنوب" في عام 2008 والتي كانت مشروع سيناريو فيلم ورفعت الشرطة السلوفينية دعوى قضائية عليها، ولكن سحبوا الدعوى بعد غضب الجمهور وتسليط وسائل الإعلام، نالت الرواية جائزة "بريشيرن" الأدبية وجائزة "كريسنيك" في عام 2009. نشر بعدها كتاب "عندما يلتقي جيمي شو فيدل كاسترو" في عام 2010 وهو عبارة عن مقتطفات من الجرائد، وبعدها روايتنا هذه "يوغوسلافيا.. أرض أبي" في عام 2011 والتي نالت أيضًا جائزة "كريسنيك" في عام 2013، ثم نُشرت له رواية "شجرة التين" في عام 2016 والتي ستصدر منها الترجمة العربية عن العربي للنشر والتوزيع.

العربي للنشر والتوزيع
60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg
9 789773 194987
WWW.alarabipublishing.com.eg
تصميم الغلاف: جورج لطيف

فراق
ذكريات
وحدة
يوغوسلافيا
سلوفينيا حرب